(٢٠)

# قراءات تأويلية
# في نهج البلاغة


الأستاذ المتمرّس

الدكتور حاكم حبيب الكريطي


إشراف ومراجعة وتدقيق

مركز الإمام أمير المؤمنين للدراسات والبحوث التخصصية

٣/ ٢٣٩
ك ٤٩٦ گريطي، حاكم

قراءات تأويلية في نهج البلاغة/ حاكم الگريطي
- ط١- النجف: مركز الامام امير المؤمنين (ع)، للدراسات والبحوث التخصصية ، ٢٠٢٤
٢٨٦ص؛٢٤سم
ردمك: ٧-٧٣-٧١١-٩٩٢٢-٩٧٨ :ISBN
١- علي بن أبي طالب(عليهما السلام). ٢. أهل بيت النبي ، علم. ٣- نهج البلاغة – دراسات – أ- العنوان

رقم الايداع
٣٩٧٩ / ٢٠٢٤

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٩٧٩) لسنة ٢٠٢٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

## هوية الكتاب

* **اسم الكتاب**: قراءات تأويلية في نهج البلاغة
* **تأليف**: الأستاذ المتمرّس الدكتور حاكم حبيب الكريطي
* **إشراف ومراجعة وتدقيق** : مركز الإمام أمير المؤمنين عليه السلام للدراسات والبحوث التخصصية
* **الإخراج الفني**: نذير هندي الكوفي
* **المطبعة**: مطبعة الضياء – النجف الأشرف
* **الناشر**: مركز الإمام أمير المؤمنين عليه السلام للدراسات والبحوث التخصصية – النجف الأشرف، ١٤٤٥هـ -٢٠٢٣م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ
وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً

صَدَقَ اللّٰهُ العَلِيُّ العَظِيمُ

(سورة النساء، الآية: ١١٣)

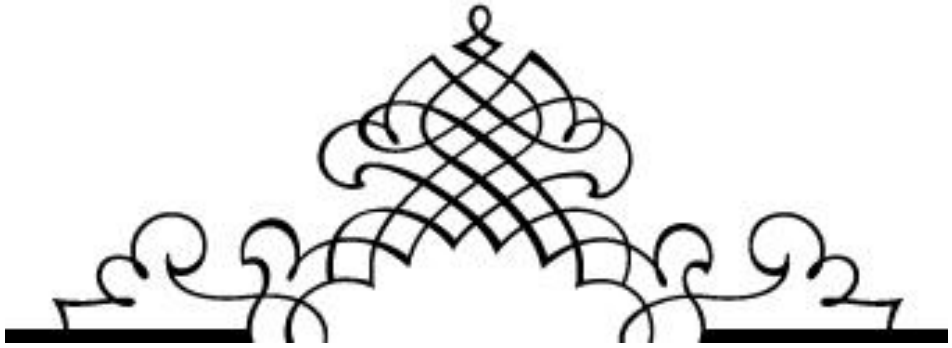

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

# مُقَدِّمَة

**مركز الإمام أمير المؤمنين عليه السلام للدراسات والبحوث التخصصية**

الحَمْدُ للهِ الَّذَي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القَائِلُونَ، وَلاِ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ العَادُّونَ، ولاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ الُمجْتَهِدُونَ، واجْعَلْ اللهم شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ، عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، الْخَاتمِ لِمَا سَبَقَ، وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وعلى آله أَساس الدِّينِ، وَعِماد الْيَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي.

إنَّ النصوص الموجودة في نهج البلاغة تنفتح على دلالات عميقة لا تنتهي، وهي تتعدّد بتعدّد الناظرين فيها، والمتأمّلين في ألفاظها وعباراتها، والدليل على ذلك كثرة الدراسات التي دارت حول هذا الكتاب، وهي تختلف بعضها عن بعض، باختلاف رؤية كلّ كاتب وتوجهاته وخلفياته العلميَّة والفكريَّة والثقافيَّة، وإلى يومنا هذا ما يزال نهج البلاغة، غضّاً طريّاً مُكتنزاً بالمعاني، معشباً مثمراً، يعطي ثمره منفتحاً أمام العقل الذي يريد الانفتاح عليه، بما يمتلكه العقل والوجدان من مؤهّلات لغويَّة وعلميَّة وفكريَّة، بعيداً عن الهوى والميل والعاطفة.

ومن هذا المنطلق سعى مركز الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) للدراسات والبحوث التخصصية إلى استنطاق هذه النصوص وقراءتها والوقوف عند مفرداتها وتراكيبها، معتمدين على القراءات الجادة العميقة، ومن ذلك القراءة التأويليَّة التي قدّمها الأستاذ الدكتور حاكم الكريطي وفّقه الله لكلّ خير، مؤلف الكتاب الذي رصد أقوال الإمام مستنطقاً دلالاته، التي لا تعطي نفسها إلاّ بعد النظر المتأني في النص، وتأويله على وفق المعطيات اللغويَّة والاجتماعيَّة والفكريَّة التي تحيط به.

وبعد حصول موافقة المجلس العلمي الاستشاري للمركز على طباعة هذا الكتاب، تمَّت مراجعته وتدقيقه وتصويبه وإبداء الملاحظ التي تتّصل بالسلامة الفكريَّة والتدقيق اللغوي، ومن ثمَّ العمل على إخراجه وطبعه ونشره، ليكون مادة فكريَّة سائغة للقرّاء الكرام، وهذا ما يسعى إليه المركز في نشر فكر الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وتراثه، والله من وراء القصد.

النجف الأشرف

مركز الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) للدراسات والبحوث التخصصية

٨ ربيع الاخر ١٤٤٥هـ - ٢٤ / ١٠ / ٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسَّلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمين محمد وآله الطيبين الطاهرين وأصحابهِ الميامين المنتجبين وبعد:

فمن مِننِ اللهِ تعالى ونعمِهِ التي لا يُحصيها العادّون، أنْ هيّأ لي فرصةَ النظرِ في كلامِ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي صار نهجاً للبلاغةِ بحقٍّ، لأتلمّس من خلاله ما أودعه فيه من علوم ومعارف، وألبسها ثوباً فنيّاً، صار ركيزةً لوضعِ علومِ العربيّةِ من خلاله، وقبله من خلالِ القرآنِ الكريمِ والأحاديثِ النبويةِّ الشّريفةِ، على الرغم من أنَّ ما يقولهُ الإمامُ عليه السلام، غالباً ما يأتي استكمالاً لأفكار ورؤى ومناهج حياة يودعُها عليه السلام في أحاديثه، بعد أنْ يُجسّدها في سلوكه في كلِّ حينٍ أمام أصحابه.

وعلى الرغمِ من ارتباطِ أغلبِ النصوصِ في نهجِ البلاغةِ بحوادث بعينها نصّ على ذكرها الشريفُ الرضيُّ جامعُ النهجِ، فإنَّ معالجاتِ

الإمام عليه السلام ، تأتي للحديث عن المناسبة في وقتها، ولما يصلحُ لغيرها في عصرهِ وفي المستقبلِ، وهذا واحدٌ من أسرارِ خلودِ نصّ الإمامِ عليه السلام في النهج. وعلى السّامعِ في عصرهِ، وعلى الراوي والقارئ في العصورِ اللاحقةِ، أنْ يأخذَ منها ما تُعينه معرفتُهُ على استنباطهِ؛ لأنّ النصَّ لا يتخلى عن العواملِ الاجتماعيّةِ والدينيّةِ والفكريّةِ المرتبطةِ به .

إنّ نصَّ نهجِ البلاغةِ ينفتحُ على دلالاتٍ لا تنتهي، وتتعدّدُ بتعدّدِ الناظرين فيه، والمتأمّلين في ألفاظهِ وعباراتهِ، ولا أدلّ على ذلك من كثرةِ الدراساتِ التي دارتْ حوله، وهي تختلفُ عن بعضها البعض باختلافِ رؤيةِ كلِّ كاتبٍ، وثقافتهِ وعلمهِ واهتمامهِ وتوجُّهاتهِ، وإلى الآن، ما يزال نصُّ نهجِ البلاغةِ، غضّـاً طريّاً مُكتنِزا بالمعاني، مُعشِبـاً مُثمِراً، يُعطي ثمره في كلِّ حين، مُنفتِحـاً أمام العقلِ الذي يريدُ الانفتاحَ عليه، بما يمتلكه (أيْ العقل) من مؤهّلاتٍ لغويّةٍ وعلميّةٍ وفكريّةٍ، بعيداً عن الهوى والميلِ والعاطفةِ على الرغمِ من مشروعيّةِ ذلك كلّه.

فلغةُ نهجِ البلاغةِ على وفقِ هذه الرؤيةِ ، تمثّلُ فكرَ الإمامِ عليه السلام ، وفي الوقت نفسه، تمثّل الأداةَ التي تنقل هذا الفكر فهي (المحتوى والأداة) في آنٍ معاً. وهذا سرٌّ آخرُ من أسرارِ خلودِ النصوصِ العلويّةِ في الأزمان كلّها.

واستناداً إلى هذا، فإنّنا سنقفُ عند المفرداتِ والتراكيبِ كثيراً، ونحنُ نقرأُ النّصوصَ قراءةً تأويليةً، أغرانا بها اكتنازُ أقوالِ الإمامِ عليه السلام بدلالاتٍ لا تُعطي نفسها إلا بعدَ النظرِ المتأنّي في النصِّ، وتأويلِهِ على وفقِ المعطياتِ اللغويّةِ والاجتماعيّةِ والفكريّةِ التي تحيطُ به من دونِ تعسّفٍ أو تحاملٍ فكريٍّ بأيِّ دافعٍ كان، إلّا بدافعِ الموضوعيةِ التي لا يليق النظرُ في كلامِ الإمام عليه السلام إلّا بها.

ومن هنا فإنّ التدبّرَ التأويليَّ في النصِّ، سيُعيننا على التقاطِ العلاقاتِ المدهشةِ بين الألفاظِ التي تشتبكُ وتتعالقُ مع بعضها اشتباكاً دلالياً عجيباً ، بما أسبغَ عليها الإمامُ عليه السلام من حمولاتٍ جماليّةٍ ودلاليّةٍ ، وهذا ما بهر من سمعها ومن قرأها من العربِ، وهذا ما بهر الشريفَ الرضيَّ، الذي أحسّ بهذا كلّه، بوصفه شاعراً كبيراً وأديباً بارعاً، تحسّس مواطنَ الجمالِ في شعره ، ووجد ضالته الجماليّةَ والفكريّةَ في كلامِ الإمام عليه السلام .

إنّ ما نريده في بحثنا التأويليِّ هذا في نهجِ البلاغةِ، الوقوفُ المتأنِّي على كلامِ الإمام عليه السلام، لنستخرجَ بعضاً مما فيه من علوم ومعارف، مستعينين بما يُعطيه المعجم العربي من دلالاتٍ للألفاظ التي تتحرك في حقولٍ دلاليّةٍ متقاربةٍ، ثم النظر الفاحص في طبيعةِ علاقاتِ الألفاظِ مع

بعضها، وما يُنتجه هذا النظرُ من دلالاتٍ ومعانٍ ستكون تشكيلاً عقلياً، ربما يكون مسارا لقراءاتٍ أخرى في المستقبل ـ إنْ شاء الله تعالى- ، كما كان مساراً لنا في كتابنا السابق ( أهل البيت في نهج البلاغة / قراءة تأويلية).

إن البلاغةَ التي تجلّلتْ بها أقوالُ الإمامِ عليه السلام في خطبهِ ورسائلهِ، أظهرتْ حُسنـًا وجمالاً، لم يألفْهُ العربُ في لغتهم باستثناء لغةِ القرآنِ الكريمِ ولغةِ الحديثِ النبوي الشريفِ ـ ووجدوا فيها نمطاًزاهياًمن الكلام، يحملُ ثراءً معرفياًفي الاتجاهاتِ كلّها، ويمكن أن نضعَ حسنَ بلاغةِ الإمامِ عليه السلام تحت ركنين :

أولاً: حسن حسّي ومعرفي، ندركُهُ من الوهلةِ الأولى بحواسّنا ومشاعرنا، ونتجاوب معه نفسيّـًا، فنشعر بجمالِ المعرفة وبقيمتها من جهة أخرى.

ثانيـًا: حسن عقلي: وهذا النمطُ يكشفه لنا استبطانُ النّصوصِ وقراءةُ ما يختبئ خلفها من دلالاتٍ، تُنتجُها حركيةُ النّصِّ لأنّه حيٌّ يصلح للعصور كلّها ـ كما أشرنا ـ، وهذا الركنُ هو الذي يعنينا في بحثنا هذا، من دون أن نغفلَ الركنَ الأوّلَ، لأنّه يساند هذا الركن ويُعطيه جماليته التي تُحقّقُ لدلالاتِ النصوصِ تأثيرَها في النفوسِ والعقولِ في آنٍ معـًا.

ومن هنا يزدادُ الاحساسُ بجمالِ نصِّ نهجِ البلاغةِ وبقدرتهِ على

التأثيرِ. من خلال هذا كلّه، لأنّه سيُعيدُ للتدبّرِ المأمورِ به في القرآنِ المدوَّنِ نشاطَهُ، وهو يتدبّرُ ما يقوله (القرآنُ الناطقُ).

بقي أنْ نشيرَ إلى قضيّةٍ أخرى، هي أنّ هذا التّوجّهَ من القراءاتِ التأويليةِ، قد يقودُ إلى الانزلاقِ عن جادةِ الصّوابِ، والذهابِ يميناً أو شمالاً عن معطياتِ النّصّ، وهذا ما سنتحاشاه ـ إنْ شاء الله تعالى ـ في قراءاتنا هذه، ونُلزمُ أنفسنا بتبنّي المعاني التي تقدمُها لغةُ النّصِّ مع ما يتصلُ بها من مرجعياتٍ مختلفة يمكن أنْ يشير إليها الإمامُ عليه السلام وفي ضوءِ ما يُقدّمُهُ المعجمُ من قراءاتٍ لمعاني المفرداتِ. وهذا منهجٌ مألوفٌ في القراءاتِ التأويليةِ.

إنّ مهمةَ هذا الكتابِ أنْ يتحرَّى وينظَر بدقةٍ تُتيحُها اللغةُ في حديثِ الإمام عليه السلام لا بعينٍ واحدةٍ، ولكن بعيونٍ شتى، هي عيونُ اللغةِ التي كان الإمام عليه السلام مصدرَها الثالثَ بعد القرآنِ الكريمِ وأقوالِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ العملُ على موازنة ذلك كلّه بما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المواضعِ كلّها. فإذا توافق القولان (وهو ما تحقّقَ حقّاً) قطعنا مطمئنين بصحةِ منهجنا، ولم يتعارض القولان ولن يكون ذلك؛ لأنَّ منبع الاثنين في أقوالهما واحدٌ ، فما عندَ الإمامِ عليه السلام مأخوذٌ من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وما عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو من اللهِ تعالى .

انتظمتْ هذه الدراسةُ في ستة فصول، موضوعاتها مختلفةٌ، ولكنّها تجتمعُ في الهدفِ العام، وتتنوّع في التفاصيل بما يُحقّقُ ذلك الهدفَ، لأنّ مُبدعَها واحدٌ، ولأنّها تُؤلّف ركائزَ ثابتةً من أفكارِ أميرِ المؤمنين عليه السلام ، ولأنّ طريقَ التدبّرِ بها واحدٌ، والمنهجَ الذي نسيرُ عليه في القراءةِ واحدٌ.

فالفصلُ الأوّلُ تكفّل ببيانِ الأوصاف التي أسبغها الإمامُ عليه السلام على القرآنِ الكريمِ، فضلاً عن أسمائهِ وصفاتهِ وعلومهِ، وهذا كلّه يُعدُّ تأسيساً لعلومِ القرآنِ منذُ بداياتِ نزوله.

أمّا الفصلُ الثاني فنظر في الأسسِ التي وضعها الإمامُ عليه السلام لمالك الأشتر ولغيره من العمالِ والولاة وللعصور كلّها، من أجلِ اختيارِ القضاةِ الذين يتكلّفون ببسطِ العدلِ في الدولةِ، على وفقِ منهجِ الإمامِ عليه السلام .

وانصرف الفصلُ الثالثُ إلى التأمّل في الأسسِ التي يجبُ على الوالي أنْ يضعها أمامَ عينيه، وهو ينظرُ في اختيارِ العمالِ الذين ينهضون معه بمهمةِ إدارة الولايةِ؛ لأنّه شريك لهم فيما يقومون به من أعمال .

وتكفّل الفصل الرابع بقراءةِ أقوالِ الإمامِ عليه السلام في تغسيلِ النبي صلى الله عليه وآله وتكفينهِ ودفنه ووداعهِ، وأظهرتْ عمقَ الصلةَ بين النبوّةِ والإمامةِ ، بعيداً عن الاهتمامِ بشؤونِ الدنيا التي تمسّك بها الآخرون، والنبيُّ لم يُدفن بعد.

وذهب الفصل الخامس إلى البحثِ في أهميّةِ الوفاءِ بالعهدِ في عهدِ الإمامِ عليه السلام لمالك الأشتر على مصر، بوصفه أسّـاً من أسسِ بناءِ الدولةِ والمجتمعِ.

واهتمَ الفصلُ السادسُ بقراءةِ كتاب الإمامِ عليه السلام إلى عاملهِ على البصرةِ عثمان بن حُنيف، بعد أن دُعي إلى وليمةِ قومٍ من أغنياء البصرةِ، إذْ جعل الإمامُ عليه السلام من هذه الحادثةِ سبيلاً لبيان ما يريدهُ من سُبُلِ تهذيب النفوسِ، وحمايتها من الزللِ.

بقي أمرٌ أودُّ الإشارةَ اليه هنا، وهو إنّ قراءةَ نهجِ الإمامِ علي عليه السلام بهذه الطريقةِ التأويليةِ، أثبتت أنْ (نهج البلاغة) هو من الإمام حقاً ـ على الرغم من أنَّ هذه القضية ليستْ من وكدِ الدراسة، بعد أنْ قال كبارُ العلماءِ في القديمِ والحديثِ قولَهم القاطعَ في ذلك. ولكنّ قراءةَ النّصِّ برّزت هذه الحقيقةَ من طريقٍ آخرَ، طريقِ التأويلِ الذي يقلّبُ النّصوصَ ويُمحّصُها على وفق ما تريدُه اللغة وتُعطيه في آنٍ معـاً.

وبعد فأنا على يقين تام، أنَّ هذه الدراسةَ محاولةٌ جادةٌ في قراءةِ تراثِ أميرِ المؤمنين عليه السلام برؤيةٍ موضوعيّةٍ إلى حدٍّ بعيدٍ؛ لأنّ تراثه منهاجاً قرآنياً، ولا يصح أن يُقرأ هذا المنهاج إلّا بعينِ العدلِ والصحةِ والصدقِ، وهنا لا تظهر من هذهِ القراءةِ إلّا الحقيقةُ الناصعةُ البعيدةُ عن الميلِ

والهوى إنْ شاء اللهُ تعالى، وهذا ما توخَّيناه منذ بدأ القلمُ بخطِّ أوّلِ سطورِ هذا الكتاب.

لقد أخذتْ هذهِ الدراسة مني جهداً ووقتـًا وتدبّراً وقلقـًا مشروعـًا محتسبـًا الأجرَ عند الله تعالى، وقد زادني حبُّ عليٍّ عليه السلام والولاءُ له والتمسّكُ بمنهجهِ ونهجهِ صبراً على ذلك كلّه، فأسأل الله تعالى أنْ يجعلَ ما بُذل فيها من جهدٍ خالصـًا لوجههِ ووفاءً لأميرِ المؤمنين عليه السلام وآخرُ دعوانا أن الحمُد للهِ ربِّ العالمين.

حاكم حبيب عزر الكريطي
كربلاء المقدسة صفر ١٤٤١هـ

# الفصل الأول

## وصف القـــــرآن
## وبـيان علومـه

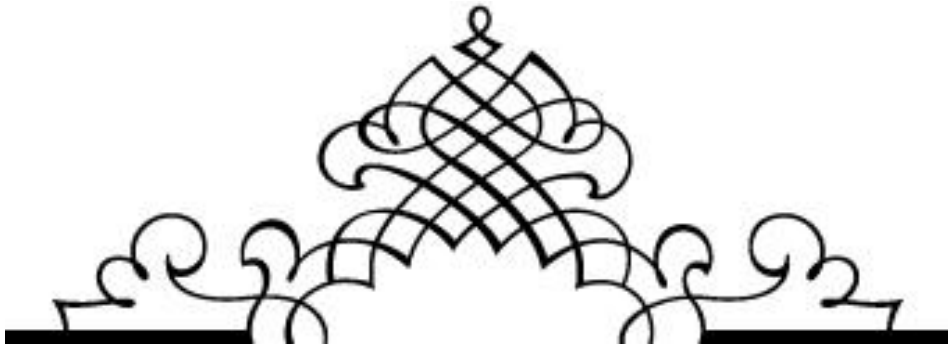

# وصف القرآن وبيان علومه

عاش الإمام علي عليه السلام مجاورة النبي صلى الله عليه وآله في غار حراء شهراً من كل عام ، إذ كان يرافقه في تفرغه للعبادة في هذا المكان قبل نزول القرآن الكريم ، وحينما نزل القرآن نشأ عليه السلام حافظاً ما ينزل من آياته ، فأتمّ حفظه بعد أن أتمَّ الله تعالى نزوله . ومن هنا توطّدت صلته عليه السلام بالقرآن ، فصار ترجماناً له وصورة أخرى منه ، فهو بحق ( قرآن ناطق) كما وصف نفسه عليه السلام .

واستناداً إلى هذا فإنّ ذكر ( القرآن ) بأسمائه وصفاته في نهج البلاغة يأتي من خلال إدراك تام لمضامينه ، فإذا ذكره عليه السلام ذكره بدلالات عميقة يكشف السياق عن مُراده فيها.

ولو قُدّر للعلماء العرب العودة إلى ما ذكره الإمام عليه السلام من أسماء القرآن في أحاديثه وخطبه وحكمه ورسائله . لما وقع بينهم أي خلاف معرفي بشأن أسماء القرآن وصفاته . ولعلموا تماماً أنّ ذكر أيّ اسم لنص الوحي يرتبط بفضاءٍ دلاليّ ، يُفضي إليه السياق الذي يرد فيه . ومن هنا ، فإنّ التفاتتنا هنا لا تنصرف إلّا إلى أسماء القرآن وصفاته والدلالات

المرتبطة بها على وفق ورودها في نهج البلاغة ، ثم موازنة ذلك بما ورد في القرآن الكريم ، ليتبين لنا ، ما أمكننا ذلك ، الاستعمال العلوي لتلك الأسماء والصفات.

وسيتكفل هذا الفصل بالنظر فيما قدمناه بشأن ( أسماء القرآن ) ، لنقف من خلاله على التفريق بين الأسماء والصفات ، وثمة فرق كبير بين الاسم مجرداً ، وبين الاسم متعيّناً يكشف عن دلالة اضافية لمعناه .

وهذا هو منهج الإمام عليه السلام في إشاراته إلى القرآن وصفاته ، إذ يؤكد على الموقف التربوي أو التشريعي الذي يريد بيانه ، ومن هنا سيكشف لنا البحث الاستعمال الدقيق لأيّ اسم من أسماء القرآن أو أيّة صفة من صفاته ، بتفريقٍ معرفيٍ بين الاثنين ، من دون أن تتداخل الدلالات فيما بينها ، بحيث يتجسد ما قاله عليه السلام من أنّه (( القرآن الناطق )) بحق .

## أسماء القرآن :ـ

شاء الله سبحانه وتعالى أنْ يُسمّي ما أنزله على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرآناً . وقد تكرر ورود هذا الاسم المبارك في آيات كثيرة تربو على الستين[1] ، ولكنّ العلماء العرب ورغبة منهم في توقير الكتاب العزيز ، فضّلوا أن يطلقوا

(١) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٥٣٩-٥٤٠ .

عليه أسماء كثيرة مستمدة من القرآن نفسه ، وقد زادت هذه الأسماء عن التسعين اسمـًا عند بعضهم[١] ، وهي في الحقيقة صفات اقترنت باسم القرآن ، فمثالاً لا حصراً عدّوا ( المجيد ) اسمـًا ، وهي صفة له في قوله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾[٢]، وعدّوا ( الحكيم ) اسمـًا له ـ أيضـًا ، وهي صفة له في قوله تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[٣]، وهكذا .

بيد إنّ ما يستحق الوقوف عنده حقـًا ، إنّ بعض الروايات تحدثتْ عن أنّ الصحابة اختلفوا في تسمية القرآن بعد جمعه ، فقال بعضهم ((سمّوه انجيلاً فكرهوا ، وقال بعضهم : سمّوه سفراً فكرهوه من يهود ، فقال ابن مسعود : رأيت بالحبشة كتابـًا يدعونه المصحف فسمّوه به))[٤]، ولا أدري كيف يختلف الصحابة على اسم القرآن ، والله تعالى سمّاه بهذا الاسم في القرآن نفسه ، فضلاً عن أنّ الجذر ( صحف ) ومشتقاته استعمله العرب قبل نزول القرآن ، مثل ( صحيفة المتلمّس)[٥] ، والمصحف سُمّيَ مُصحفـًا (( لأنَّه أصحف أي جُعل جامعـًا للصحف المكتوبة ))[٦].

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٧٣، الاتقان في علوم القرآن ١/ ١٧٨ .

(٢) البروج: ٢١.

(٣) يس: ١-٢.

(٤) الاتقان ١/ ١٧٨ .

(٥) ينظر : مجمع الأمثال ١/ ٣٩٩ .

(٦) لسان العرب ( صحف ) .

وقد سمّى الإمام علي عليه السلام القرآن باسمه في مواضع كثيرة من نهج البلاغة ، وسنقف فيما يأتي على بعض تلك المواضع ، لنستقرئ من خلالها الدلالات التي يريدها عليه السلام من استعمال هذا الاسم المبارك .

ورد اسم (القرآن) في قول له عليه السلام يشير فيه إلى الخوارج: ((...وهذا القرآن إنما هو خطّ مستورٌ بين الدفتين ))[١] .

وهذا التوصيف كافٍ لبيان أن المراد بـ ( القرآن ) الكتاب الملموس ، والإمام هنا لم يذكر صفة من صفاته . وإنما ذكره باسمه وحاله بين الدفتين . وما من شك أنّه عليه السلام ، أمضى للمسلمين أنّ القرآن المتداول هو المنزل من السماء من دون زيادة أو نقصان ، في هذه الجزئية من قوله[٢] . ولو كان فيه أيُّ لحنٍ أو خطأ ـ لا قدّر الله ـ لما ترك ذلك . ولا يمكن أن يفوّضه إلى غيره وهو المؤتمنُ على حفظهِ .

إنّ الاستناد إلى قول الإمام عليه السلام هذا كافٍ للردّ باطمئنان على كل الأقوال والتخرّصات التي تشير إلى وجود زيادة أو نقصان أو لحن في القرآن ، ولو وقع أمرٌ من هذا من قبلُ ، لذهب بعد مجيء الإمام عليه السلام إلى الخلافة الرسمية ، وحديثه عن القرآن المحفوظ بين الدفتين ولو أُعترض

(١) نهج البلاغة ٢/ ٥ .

(٢) ثمة دلالة رئيسة في هذا القول سنعرض لها في موضع لاحق من البحث .

على هذا وقيل أنّ الامام عليه السلام جمع القرآن الكريم على ما أنزله الله تعالى، فهنا نقول : (( صحّ عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّهم أمروا بقراءة ما بين الدفتين ، وأنْ لا يتعداه إلى زيادة فيه أو نقصان منه حتى يقوم القائم عليه السلام فيقرأ للناس القرآن على ما أنزله الله تعالى وجمعه أمير المؤمنين ))[١] .

إذاً نخلص من هذا كلّه إلى أنّ الإمام عليه السلام أراد بوصفه هذا في جملة ما أراد أن يوحّد المسلمين على هذا القرآن المجموع بين الدفتين ، وأن لا يتفرّقوا بدعوى ضالة قد تُبعدهم عن كتاب الله تعالى ، فكان ذكره لـ ( بين الدفتين ) قيداً للمُراد بالقرآن في زمانه . وتبصيراً للمسلم بوجوب عرض ما يحفظونه من القرآن على هذا القرآن المحفوظ بين الدفتين . لأنّه المرخّص به من الإمام عليه السلام .

ويسمّى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام القرآنَ باسمهِ في موضع آخر في نهج البلاغة فيقول: ((واعلموا أنَّ هذا القرآن هو الناصحُ الذي لا يغشُّ...))[٢].

إنّ استعمال الإمام عليه السلام لاسم الإشارة هنا مرة أخرى . مع ذكر القرآن فيه إشارة إلى المشاهَد المحسوسِ الذي يراه الإنسان بعينه على وفق وظيفة ( هذا ) النحوية في الاستعمال المطّرد في اللغة[٣] .

---

(١) المسائل السروية ٨١ ، وينظر أيضاً الانتصار ٢٦ ، بحار الأنوار ٨٩/ ٧٤ .

(٢) نهج البلاغة ٢/ ٩١.

(٣) ينظر : شرح الرضي على الكافية ٢/ ٣٠، ٣٣ ، معاني النحو ١/ ٩٥ .

واستناداً إلى ما تقدم من استعمال الإمام عليه السلام للفظة ( القرآن ) للدلالة على ما نزل من الله تعالى على النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بأكمله نقول : إنّ هذا الاسم لم يكن متداولاً في لغة العرب ، وإن كان جذره ( قرأ ) وما يشتق منه مألوفـًا . وقد شاء الله أنْ يشتق هذا الاسم للكتاب المنزّل ليكون علمـًا له لوحده ، وقد التفتْ الجاحظ من قبل إلى هذا فقال عن العرب ((فالّذي أعارهم هذه النعمة أحق بالاشتقاق وأوجب طاعة ، وكما أنّ له أنْ يبتدأ الأسماء ، فكذلك له أنْ يبتدأها مما أحبّ ، قد سمّى كتابه المنزل قرآنـًا ، وهذا الاسم لم يكن حتى كان))[1] .

وعود إلى نصوص الإمام عليه السلام التي سمّى فيها القرآن باسمه تُظهر أنّه عليه السلام أراد به القرآن بكل ما يحمل من دلالات وعلوم ومعارف ... الخ.

**٢- الكتاب :**

استعمل الإمام عليه السلام لفظة ( الكتاب ) اسماً للقرآن الكريم . وليس صفة له . وقد ورد ( الكتاب ) اسمـًا للقرآن في آيات كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقـًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ...﴾[2] ، فالكتاب الذي أنزله الله تعالى إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ هو

(١) الحيوان ١/ ٢٣٢ .

(٢) المائدة: ٢٨.

القرآن . ومن هنا تكون هذه الآية دليلاً على أنّ اسم ( الكتاب ) اسمـًا له ، ولكن قد يُعترض ويقال إنَّ لفظة ( الكتاب ) الثانية في الآية تدل على الكتب السماوية الأخرى كالتوراة والانجيل وغيرها[١] ، فكيف يُسوَّغ هذا؟ هنا نجيب قائلين : إنَّ لفظة ( الكتاب ) اسم للقرآن أينما ورد ، إلّا اذا صرفها السياق إلى غيره من الكتب السماوية ، فهنا تُفهم الدلالة على وفق ما ينتجه السياق .

استعمل الإمام عليه السلام اسم ( الكتاب ) أيضـًا بهذا الوصف في قوله ((وإنّ الكتاب لمعي ما فارقته منذ صحبته))[٢] . والكتاب هنا ، لا يعني الكتاب المقترن بالكتابة ، لأنّ القرآن معه عليه السلام محفوظ في صدره ، فسمّاه الكتاب بهذه الدلالة ، وليس بدلالة أنَّه صار كتابـًا بعد تدوينه ، لأنّ مآله بعد التنزيل إلى التدوين على النحو الذي يذهب إليه بعض الباحثين[٣] .

بيد أنّ ثمة أمراً باهراً يستحق أن نشير اليه في استعمال الإمام علي عليه السلام لاسم الكتاب ، يتمثل في أنه عليه السلام يستعمل هذا الاسم ، حينما يتحدث عن الأوامر التي يأمر بها الله تعالى أو النواهي التي ينهى عنها ،

---

(١) ينظر : التبيان ٢/ ٢٩٠ ، الميزان ٣/ ٩ .

(٢) نهج البلاغة ١/ ٢٣٦ .

(٣) ينظر : تاريخ القرآن ٧٧ وما بعدها .

وكأنّ في الكتاب تقييداً لذلك كله لا يخفى على من يريده ، وما لمحناه في القولين السابقين ينبئ عن هذه الدلالة . وثمة أمثلة أخرى تُظهر ـ أيضـاً ـ ما أشرنا إليه ، فقد قال لسائل سأله أن يصف الله تعالى حتى كأنّه يراه عيانـاً ، فغضب عليه السلام وقال له كلامـاً طويلاً في خطبة الأشباح، نجتزأ منه محل الشاهد (( ... فانظر أيها السائل ، فما دلّك عليه القرآن من صفته فأتم به ، واستضئ بنور هدايته ، وما كلّفك الشيطان علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه ، ولا في سنة النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وأئمة الهدى أثره ، فكل علمه إلى الله سبحانه ))[1] .

نلاحظ هنا أنَّ استعمال اسم ( القرآن ) جاء في سياق الحديث عن صفات الله تعالى ـ كما أثبتناه قبل قليل ـ ، أمّا اسم ( الكتاب ) ، فجاء في سياق الإشارة إلى ما كلّف الشيطان العبد به كما لم يكن فرضه في الكتاب، وبناء على هذا نقول : إنَّ الصفات الإلهيّة وما يتّصل بها تندرج في إطار المعنى القرآني العام ، وما فرضه الله تعالى على عباده يندرج في إطار معنى ( الكتاب ) العام . ومن هنا تنكشف لنا دقة الإمام عليه السلام في استعمال اسمي القرآن والكتاب في خطبه وأحاديثه .

---

(١) نهج البلاغة ١/ ١٦٢ .

بيد أنَّ ما قلناه لا يمنع من استعمال الاسمين بدلالة أحدهما على الآخر، ولكنّ خصوصية الاستعمال الذي أشرنا إليه، هي من خصوصيات نهج أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه .

## صفات القرآن الكريم :-

أما صفات القرآن ، وهي ما عُدّت أسماء له في كثير من كتابات القدامى والمحدثين ـ كما أشرنا ـ، فاستعمل الإمام عليه السلام منها لفظة (الذكر) في خطبتين من خطبه ، الأولى جاءت في قوله : (( إن من عزائم الله في الذكر الحكيم التي عليها يُثيب ويعاقب ولها يرضى ويسخط ))[١] ، والثانية في قوله (( ... واعلموا علماً يقيناً انّ الله لم يجعل للعبد وإن عظمت حيلته واشتدت طلبته وقويت مكيدته أكثر مما سُمّي له في الذكر الحكيم ))[٢] .

ومن أجل التّثبّت مما قلناه بشأن معنى لفظة ( الذكر ) بوصفها صفة وليست اسماً ، نتلمس بعض دلالالتها من المعجم . جاء في لسان العرب تحت الجذر ( ذكر ) المعاني الآتية[٣] :-

---

(١) نهج البلاغة ٢/ ٤٢ .

(٢) م . ن ٤/ ٦٦ .

(٣) يُنظر : لسان العرب (ذكر) .

١- الذكر :- الحفظ للشيء تذكره والذكر أيضـاً : الشيء يجري على اللسان .

٢- الذكر : الصلاة لله والدعاء إليه والثناء عليه .

٣- الذكر : الشرف والفخر .

٤-الذكر : الصلاة ، والذكر قراءة القرآن والذكر : التسبيح ، والذكر : الدعاء ، والذكر الشكر ، والذكر : الطاعة .

إن القراءة المتأنية لهذه المعاني ، تكشف لنا ـ من جملة ما تكشفه ـ ما يأتي :- المعاني في [١] و [٢] ، ترتبط بما يقوم به العبد من ضروب العبادة التي يتقرب بها إلى الله تعالى ، وحفظ ذلك وكثرة جريانه على اللسان [المعنى رقم ١]، يصبح ( الذكر ) صفة لصاحبه وليس اسمـاً . وهكذا تحقق الدلالة المشار إليها . وهذا كلّه يحقِّقُ شرفـاً للإنسان ، وفخراً ، [المعنى رقم ٤] . وبهذا تلتقي المعاني اللغوية ، وتتضافر فيما بينها ، لتُعطي الدلالات التي تحقّقها الصفة أكثر مما يحقّقها الاسم ، لأنَّ الاسم يكون علامة على المسمّى ، أما الصفة فتجسد ما يحيط بالاسم من صفات وهكذا ، و يتحقّق هذا كله في جعل الذكر صفة للقرآن وليس اسمـاً له ، وقد التفت ابن منظور إلى هذا ، فقال عن القرآن واصفـاً إيّاه

بهذه الصفة : ((وقوله تعالى: ﴿ص وَالْقرآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[١] أيْ ذي الشرف... وفي صفة القرآن : الذكر الحكيم أي الشرف المحكم العاري من الاختلاف ))[٢] .

ولكنّ أغلب المفسرين لم يلتفتوا إلى هذه الدلالات التي تكشف عن المعنى القرآني في هذه الآية استناداً إلى المعطيات اللغوية واقتصروا على القول إنَّ المراد من الذكر ذكر الله تعالى بتوحيده [٣] ، وهذا ما تستوعبه المعاني اللغوية ولكنّها لا تقتصر عليه كما لاحظنا ذلك .

واستناداً إلى ما تقدم تستقرّ لفظة ( الذكر ) صفة للقرآن الكريم ، كما جعلها الإمام عليه السلام كذلك ، ولا تكون اسمـًا له ، كما ذهب إلى ذلك السيد محمد باقر الصدر[٤] .

أما الصفات الأخرى ، فلم ترد في نهج البلاغة ، لأنّ كلام الإمام عليه السلام وجه آخر من القرآن الكريم وما فيه من صفات فهي مستقاة من صفات القرآن الكريم ، فهو بحق القرآن الناطق كما وصف نفسه [٥] .

---

(١) ص: ١.

(٢) لسان العرب : ( ذكر ) .

(٣) ينظر : مثالاً لا حصراً مجمع البيان ٨/ ٣٤٢، تفسير القرطبي ١٥/ ١٤٤ ، الميزان ١٧/ ١٨١.

(٤) ينظر : بحوث في علوم القرآن ٢١-٢٣ .

(٥) ينظر : ينابيع المودة ١/ ٢١٤ .

## المسلم والقرآن :-

اقترن ذكر القرآن بذكر المسلمين في أحاديث الإمام عليه السلام ، لأنّ الله تعالى أنزل القرآن لهدايتهم لينالوا ـ بعد التمسك به ـ سعادة الدنيا والآخرة. ومن هنا حرص عليه السلام على تنبيه المسلمين إلى أهمية التمسّك بالقرآن ، كي يكونوا من أهل التقوى الذين وصف حال الواحد منهم مع القرآن بقوله : (( قد أمكن الكتاب من زمامه ، فهو قائده وامامه ، يحلُّ حيث حلّ وينزل حيث كان منزله ))[١] . فالتقيُّ اذاً هو من أمكن الكتاب من زمامه ، وهذا الوصف ينبئ ابتداء أنْ ليس من السهل أنْ يمكّن الإنسان أحداً منه ، ولكن التقيّ هو الذي يمكّن القرآن من زمامه ، فما دلالةُ الزمام في اللغة؟. جاء في لسان العرب تحت الجذر ( زمم ) المعنى الآتي [٢] :-

١- الزّمام: خيطٌ يشدُّ في خشاش الناقة ثم يُشدّ في طرفه المقود ، فيجعل الناقة طوعه ، تدور معه حيث دار .

فالإنسان التقي على وفق هذا المعنى يدور مع القرآن ، ويذهب معه حيثما يذهب . كما إن الناقة طوع زمامها .

---

(١) نهج البلاغة ١/ ١٥٣ .

(٢) ينظر : لسان العرب ( زمم ) .

إن هذا التشكيل الجمالي والفعلي لعلاقة المسلم بالقرآن ، آتٍ من تحريك الإمام عليه السلام لمعنى ( الزّمام ) . إذ وضعه في سياق يُغري المسلم بالتدبّر والتفكّر في معناه ، الذي يضمن له سلامة دينه من العطب ، ويلزمه بالتمسك بالقرآن . فيكون له قائداً . وهذه الإشارة الثانية في قول الإمام عليه السلام التي تتعاضد مع دلالة ( الزّمام ) ، إذ إنّ الزّمام يكون بيد القائد ـ وهذا هو القرآن ـ والمنقاد هو المسلم التقي ، والانقياد في اللغة تعني ((الخضوع ، تقول : قدته فانقاد واستقاد لي ، إذا أعطاك مقادته))[١]. فمن علامات التقوى اذاً الانقياد للقرآن وهو التسليم والخضوع بإرادة المنقاد، ولا يخضع الإنسان ولا يسلّم أمره خاضعـًا إلّا إذا آمن أنّ من يقوده يقودُه إلى النجاة .

ويبقى من قوله عليه السلام ((وإمامه)). وهنا ننظر في المعجم لنرى ما دلالات هذه المفردة. جاء في لسان العرب تحت الجذر (أمم) المعاني الآتية[٢] :-

١- الإمام : خشبة البناء يُسوّى عليها .

٢- الإمام : الخيط الذي يمد على البناء ليُبنى عليه ، ويُسوّى عليه ساف البناء .

---

(١) لسان العرب ( قود ) .

(٢) يُنظر : م .ن (أمم) .

٣- إمام الجند : قائدهم .

٤- الإمام : الطريق .

٥- الإمام : الذي يقتدى به ، وما أؤتم به من رئيس أو غيره .

٦- إمام كلّ شيء : قيِّمُه والمصلح له .

إنّ هذه المعاني للجذر ( أمم ) تعطينا إطاراً معرفيـًا كليّـًا ، وهو إطار تتفرع منه المعاني الجزئية المشار إليها . لذا لم تبتعد عن بعضها ، بل ظلّت مندرجة فيه . وتتضافر فيما بينها لتعطينا المعنى المراد من قول الإمام عليه السلام .

فالمعنيان الأول والثاني يتضمنان معنى الاستواء والاستقامة ، والمثال الذي يُحتذى ، وعلى وفق هذا الاستواء يُسوّى الاعوجاج ، كما يُسوّى ساف البناء على الخيط المستقيم ، فالقرآن اذاً هو المعيار الذي ينظر الإنسان من خلاله إلى سلوكه وفكره ، ليعدّل منه ما لا يستقيم مع القرآن ، بوصفه المثال الذي يحتذى[١] .

أما بقية المعاني الأربعة لـ ( أمم ) وهي ( القدوة ، الطريق ، القيادة ، الهداية ) . فيقودنا جمعها مع المعنيين السابقين ، إلى القول إنَّ القرآن

(١) ينظر : أهل البيت في نهج البلاغة / قراءة تأويلية ٢٧ .

الكريم: طريق ومنهج يتمسك به المسلم فيضعه أمامه مثالاً يُقتدى به، كخيط البناء، ويحرص على تنظيم حياته في ضوء هديه، كما يحرص البنّاء على تنظيم بنائه في ضوء هدي خيط البناء (الإمام) الذي به يستقيمُ بناؤه .

وثمة ضميمة أخرى ، تُحتّم علينا الوقوف عندها ، لاستكمال أغلب الدلالات التي أراد الإمام عليه السلام أن يستنبطها المسلم من قوله عن ( إمامة القرآن ) للمسلمين ، وهي ( أي الضميمة ) . الالتفات إلى دلالة لفظة (الإمام) في الاستعمال القرآني ؛ لأنّها الأصل الذي يريدُ الإمام عليه السلام الإشارة إليه .

ومن النظر في الآيات القرآنية التي وردتْ فيها مشتقاتٌ من الجذر (أمم) ، يمكن أن نصل إلى ما نريد كشفه من مطاوي وصف الإمام عليه السلام للقرآن . والآيات هي [١] :-

١- ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[٢] .

---

(١) هناك آيات لها دلالات أخرى ، ولكنّا أخذنا موضع الحاجة في البحث .

(٢) الإسراء: ٧١.

٢- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[١] .

٣- ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

تكشف لنا الآيات المباركات عن اتفاق دلالي بين استعمال الجذر (أمم) فيها وبين دلالته في المعجم ـ كما مرّ بنا ـ من حيث الدلالة على الطريق والقدوة والهداية والقيادة في الإطار العام ، مع بيان يشير إلى أنّ (الإمام) متبوع . وهذا كما تحقق في الآيات يتحقق أصلاً في خيط البناء الذي يكون متبوعـًا أيضـًا .

إذاً سيكون القرآن امامـًا يُدعى أهله به في يوم القيامة[٣] ، كما سمّى الله تعالى التوراة امامـًا ورحمة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

(١) هود: ١٧.

(٢) الأحقاف: ١٢.

(٣) زاد المسير ٥/ ٤٧ .

وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

وفي ضوء هذه الدلالات القرآنية ، يكون القرآن اماماً لمن يأتم به وقائداً لمن يقتدي به ، ومن هنا تتبيّن مداليل قول الإمام عليه السلام في ذكره لإمامة القرآن .

ويبقى من قوله عليه السلام آنف الذكر ((يحلّ حيث حلّ ثقله ، وينزل حيث كان منزله)). وهذا الكلام تابع دلالياً إلى ما سبق من وصف لإمامة القرآن وقيادته، إذ إنّ من يقتدي بقائد يحلّ حيث حلّ ثقل قائده، وينزل حيث يكون منزل قائده، لأن خضوعه لهذه القيادة يُحتّم عليه أنْ يكون على هذا النوع من الاتّباع الناتج عن ثقة بأهلية القائد وحنكته وقدرته، والإمام عليه السلام هنا يكنّي عن أتباع القرآن بما كان مألوفاً عند العرب في حياتهم في الحلّ والترحال. فإنّ إقامة المسلم مع القرآن تعني التمسك بهديه وعدم الانتقال عنه، لأن في ذلك الهلاك، فهو البيت الذي ((لا تُهدم أركانه))[٢].

لعلَّ بنا حاجة الآن إلى أنْ نشير إلى أمر يتلجلج في الصدر بشأن إشارة الإمام عليه السلام إلى المكان الذي يحل فيه ثقل القرآن والمنزل الذي

---

(١) هود: ١٧.

(٢) نهج البلاغة ١/ ١٧٧ .

ينزله، فنقول:- إن حديث الثقلين يحضر أمامنا هنا، وهو قول النبي ـ ﷺ ـ: (( إني تركت فيكم ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ))[١] ، فثقل القرآن حلّ في أهل البيت عليهم السلام وعلي عليه السلام سيدهم بعد النبي ـ ﷺ ـ ، ومن هنا تُعد هذه الإشارة دعوة من الإمام عليه السلام إلى المسلمين عامة وإلى من أخذته الدنيا إلى حضيرتها خاصة ، بالعودة إلى الثقلين القرآن والعترة الطاهرة، ليستوطنوا الموطن الذي يستوطنه أهل البيت عليهم السلام لأنّهم يحملون معهم الثقل الأكبر ، القرآن الكريم . ولننظر بتأنٍ إلى ما يقوله ابن أبي الحديد بشأن الحديث وما أراده النبي ﷺ منه ، يقول : (( فكأنّه ﷺ لما شارف الانتقال إلى جوار ربه تعالى ، جعل نفسه كالمسافر الذي ينتقل من منزل إلى منزل ، وجعل الكتاب والعترة كمتاعه وحشمه ، لأنهما أخصّ الأشياء به ))[٢] . وهذا الفهم لحديث الثقلين من لدن ابن أبي الحديد ، يُغرينا بالتمسك بقولنا الذي وجهنا به قول الإمام عليه السلام في وصف القرآن .

---

(١) ينظر عن كل ما يتعلق بالحديث ، من حيث صيغته وضبط أسانيده وطرق وصوله والمصادر التي ورد فيها في فضائل الخمسة من الصحاح الستة ٢/ ٥ وما بعدها .

(٢) شرح نهج البلاغة ٦/ ٣٧٢ .

ولعلّ هذا الفهم لقول الإمام عليه السلام يقودنا إلى النظر في قول آخر أشد وضوحاً لبيان ما نحن بصدده ، يقول عليه السلام مخاطباً أصحابه : (( بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن ، وردوهم ورود الهيم العطاش ))[١] .

وهنا نعود إلى ابن أبي الحديد مرة أخرى، إذ رأى في قول الإمام عليه السلام هذا، ما يأتي ((فأنزلوهم منازل القرآن تحته سر عظيم، وذلك انه أمر المكلفين بأن يجروا العترة في اجلالها والانقياد لها، والطاعة لأوامرها مجرى القرآن))[٢] .

وهذا التوحد بين القرآن والعترة يظهر لنا ـ وليس ثمة ما يوجّب الحذر ـ أنّ ما أراده الإمام عليه السلام من وجوب التمسك بالقرآن ، يتضمن تلقائياً وجوب التمسك بالعترة لأنّهم عليهم السلام والقرآن الثقلان اللذان أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتمسك بهما .

## وصف القرآن للقرآن :ـ

وصف القرآن الكريم نفسه في آيات كثيرة ، وأوصافه تُظهر ما أراد الله تعالى إظهاره من بعض صفاته ، بما تحمل من دلالات تؤكد حمل القرآن الكريم لمظاهر شاء الله تعالى أنْ تكون عناوين بارزة له .

---

(١) نهج البلاغة ١/ ١٥٤ .

(٢) شرح نهج البلاغة ٦/ ٣٧٦ .

وأراد الإمام عليه السلام أن يوجّه المسلمين إلى بعض الدلالات التي تحملها الأوصاف التي وصف بها القرآن ، إذ لم يأتِ الوصف لبيان عظمة القرآن فقط ، وإنما جاء لبسط مداليل جديدة ، ربما يجهلها أكثر المسلمين ، خاصة بعد ما أصابهم من تباعد وتناحر ، إذ ادعى كل طرف أنه أولى بالقرآن من غيره ، وجاءت أوصاف الإمام عليه السلام لتضع أقدام من ابتعد عن الإسلام على الطريق الصحيح إنْ أراد ذلك ، بعد أنْ صار الاختلاف في القضية الواحدة أمراً مألوفاً . إذ أنَّ القاضي يحكم بقضية ، وترد نفسها على قاضٍ ثانٍ فيحكم فيها بخلاف قول صاحبه ، ثم يجتمع القضاة عند إمامهم فيصوّب لهم أحكامهم ، وإلههم واحد ونبيّهم واحد وكتابهم واحد[1] .

إنَّ هذا الاختلاف الذي بسطه الإمام عليه السلام صادر من عدم إدراك المسلمين لمعاني القرآن. وعدم الرواية عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ، وهذا تشنيع منه عليه السلام لمن يحكم برأيه وعقله ، ولكي يقطع السبيل على من يريد أنْ يدعي أيَّ ادّعاء يُبيح لنفسه من خلاله التقوّل على القرآن ، ذكر عليه السلام من صفات القرآن ما يؤيد ذلك ومنها :-

(١) شرح نهج البلاغة ١/ ٢٨٨ .

**١- القرآن تبيان لكل شيء :**

إنَّ وقوع الاختلاف في الأحكام ناشئ ـ كما ألمحنا ـ إلى البشر ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لم ينزل دينـًا ناقصـًا، حتى يأتي من يحكم بما لم ينزل الله، بعذرٍ يُعفي نفسه بوساطته من الزلل ، لأنَّ القرآن جاء تبيانـًا لكل شيء، يقول الإمام عليه السلام عن هذه القضية ((... أم أنزل الله سبحانه دينـًا ناقصـًا فاستعان بهم على اتمامه ... أم أنزل الله سبحانه دينـًا تامـًا فقصّر الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ عن تبليغه وأدائه))[١] ، إنَّ هذه الموازنة المعرفية التي أجراها الإمام عليه السلام ، تجعل القول بالرأي أمر فيه نظر، ومن هنا جاء بيانه عليه السلام لصفات القرآن إذ قال: ((والله سبحانه يقول ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ وفيه تبيان لكل شيء ، وذكر أنَّ الكتاب يصدق بعضه بعضـًا ، وإنّه لا اختلاف فيه فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفـًا كَثِيراً﴾[٢].

إنَّ هذه الشواهد التي أوردها الإمام عليه السلام في كلامه تؤكد ، أنَّ ما يقع من اختلاف بين المسلمين مردّه إلى المسلمين أنفسهم ، فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة جاءا بدقائق الأمور التي تستقيم من خلالها حياة

(١) نهج البلاغة ١/ ٥٥ .

(٢) النساء: ٨٢.

الناس . فلا يصح أن يقع الاختلاف ما دام القرآن تبياناً لكل شيء ، وتعاضده السنة النبوية ، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله (( إن الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كلّ شيء ، والله ما ترك شيئاً يحتاج إليه العباد ، فلا يستطيع عبد يقول لو كان هذا أنزل في القرآن ))[١] .

وهذا يجعل المسلم بأمان ما دام متمسكاً بالقرآن . بيد انّ التمسّك بالقرآن يحتاج إلى معرفة ما جاء فيه ، وهذا قد لا يتاح إلّا لمن حفظ السنة ، فكأن الإمام عليه السلام يدعو أصحابه للتدقيق في هذا الوصف للقرآن ، ويقول لهم ، إنّ علم القرآن عنده ، فلا ينبغي أن يضل الناس وهو موجود بين ظهرانيهم . واستناداً إلى هذا يكون تبيان كل شيء الوارد في القرآن عند أهل البيت عليهم السلام ، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال إنّي لأعلمُ ما في السماوات وما في الأرض وأعلم ما في الجنة وأعلم ما في النار وأعلم ما يكون ثم مكث هُنيهةً فرأى أن ذلك كبر على من سمعه منه ، فقال علمت ذلك من كتاب الله عز وجل إنَّ الله يقول : فيه تبيان كلّ شيء[٢] .

---

(١) التفسير الصافي ٣/ ١٥١ .

(٢) ينظر : بصائر الدرجات ١٤٨ .

فتبيان كلّ شيء أمر مخزون عند أهله ـ أهل البيت ـ ، وإلّا كيف نقرّ بأن في القرآن تبياناً لكل شيء ولا نرى مصاديقهُ ؟ ، فمصاديقُهُ إذاً عند أهله المطهرين الذين ذكرهم الله تعالى في آية التطهير وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١] .

**٢- ظاهر القرآن أنيق :-**

يشير الإمام عليه السلام إلى ظاهر القرآن بقوله : ((وإنَّ القرآنَ ظاهرُه أنيقٌ))[٢] ، وهذا الوصف نفسه ذكره النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ للقرآن في حديث له مع المقداد بن الأسود[٣] ، فكيف يوجّه هذا القول ؟ .

إنَّ بسط القول في هذه الجملة العلوية يستدعي أنْ نقف على معنى (الأنيق) في المعجم لكي نتبيّن مراد الإمام عليه السلام بتروٍّ وأناةٍ . جاء في لسان العرب تحت الجذر ( أنق ) المعاني الآتية[٤] :-

١ - الأنق : الإعجاب بالشيء .

٢ - أنقت الشيء : أحببته .

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) نهج البلاغة ١/ ٦٥ .

(٣) ينظر: الكافي ٢/ ٥٩٩ ، وسائل الشيعة ٦/ ١٧١ .

(٤) ينظر : لسان العرب ( أنق ) .

٣- الأنق : حسن المنظر وإعجابه إياك .

٤- الأنق : الفرح والسرور .

٥- شيء أنيق : حسن معجب .

٦- تأنق فلان في الروضة : إذا وقع فيها معجباً بها .

الذي نلحظه ابتداءً ، إنّ الإعجاب السمة الأظهر في معنى هذا الجذر، والإعجابُ آتٍ من صفات المعجَب به الموجودة في ذاته ، من حيث حسن المنظر ، وهذا المنظر الحسن ببعث في النفس الفرح والسرور ، والنظر إلى القرآن يحقق هذا المعنى ، وهنا يمكن أن نعيد صياغة ما قلناه على النحو الآتي :-

إنَّ حسن منظر القرآن الكريم ومحبته تقودان إلى الإعجاب به ، وهذا الإعجاب مردّه إلى ما يشعر به المسلم وهو ينظر في القرآن ، فيبعث في نفسه الفرح والطُمأنينة ، هذا الكلام في الإطار العام للمعنى المراد في قول الإمام عليه السلام . ولكن يبقى أمر آخر ، وهو من أين يأتي الإعجاب بظاهر القرآن الكريم ؟ .

ليس من شكٍّ انّ استحسان منظر القرآن الكريم يعود إلى التنظيم الجمالي الذي يُعبر به عن المضامين والأفكار التي وردت فيه ، وهو تنظيم يستند إلى القيم الإسلامية والقيم العربية التي رضيها الإسلام ،

ومن هنا كان إعجاب النبي ـ ﷺ ـ بما قاله عمرو بن الأهتم والزِّبرقان بن بدر في حضرته ، فقال قولته المشهورة (( إنّ من البيان لسحرا ومن الشعر لحكمة ))[١] ، ومن هنا أيضـًا نفهم قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابـًا مُّتَشَابِهـًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[٢].

والقرآن بحسب الآية مستحسن ( أحسن الحديث ) ، والحسن ((عبارة عن كل منهج مرغوب فيه وذلك ثلاثة أضرب ، مستحسن من جهة العقل، ومستحسن من جهة الهوى ومستحسن من جهة الحس))[٣]، وما من شك إنَّ الضربين الثاني والثالث يرتبطان بالحسّ ، وهو الذي يُشعر بجمال القرآن من الوهلة الأولى على طريقة العرب في استحسانهم لغتهم قبل نزول القرآن وبعده ، لأنّ الضرب الأول الاستحسان من جهة العقل يمتزج بهذين الضربين تمامـًا في تلك الحقبة ، ولكن بعد أنْ تغيّرتْ أحوال استقبال العرب والمسلمين للغتهم ، صار المستحسن من جهة العقل ، ضرب خاص يقود إليه الضربان الآخران ولكن بعد تدبّرٍ وتمثّلٍ وأناةٍ وتفكيرٍ .

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٤/ ٣٧٩ .

(٢) الزمر: ٣٣.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن ٢٣٥ .

واستناداً إلى ما تقدم صار الظاهر الأنيق الذي يريده الإمام عليه السلام هو هذا المرتبط بالحسّ والنفس ، إذ تتجسد فيه الأناقة التي تقود إلى الإعجاب ، وهذا الاعجاب الدائم بالقرآن يقود حتماً إلى محبته محبة تامة وبذا يتحقق المعنى الثاني من معاني الجذر ( أنق ) .

بقي أنْ نشير إلى أنّ ما قلناه بشأن ( ظاهرِ القرآن الأنيق ) قد يتحقق لمجرد قراءة القرآن أو سماعه عند أهل اللغة التي نزل بها في الحقبة الأولى من الإسلام ، لأنَّهم يستحسنون مواطن الجمال في لغتهم إحساساً وجدانياً فُطروا عليه .

هذا فضلاً عن أنَّ السّمات التي يحملها النّص ، تجعل من يسمعه يقع تحت تأثيره الذي وضعه الله تعالى فيه منذ الوهلة الأولى لسماعه ولو لم يكن ممن يدركون مواطن الجمال فيه، فقد رُوي أنَّ ((ماسرجويه بكى من قراءة أبي الخوخ، فقيل له: كيف بكيتَ من كتاب الله ولا تصدّق به؟ قال: إنَّما أبكاني الشَّجا))[1].

لا شك أنّ وجهاً من وجوهِ الاناقة المشار إليها في قول الإمام عليه السلام ، تجسّدت فيما سمعه ماسرجويه من القرآن ، فرّق وبكى تأثراً ، وهذا كلّه ـ أيضاً ـ يمثل وجهاً من وجوه أحسن الحديث التي ورد في الآية الكريمة السابقة ، وهو ما أراده الإمام عليه السلام في ظاهر القرآن الأنيق .

---

(١) الحيوان ٤/ ٣٥٣ .

## باطن القرآن عميق :-

نحتاج هنا - أيضاً - إلى العودة إلى لسان العرب لمعرفة دلالات الجذر (عمق) اللغوية والاصطلاحية . جاء في لسان العرب [١] :-

١- العمق : البعد إلى أسفل ، وقيل هو قعر البئر والفجّ والوادي .

٢- أعماق الأرض : نواحيها .

٣- رجل عُمقي الكلام : لكلامه غور .

٤- تعمّق في الأمر :- تنوّق فيه ، ومعنى تنوّق : تأنق فيه وجاد وبالغ.

إن القراءة المتأنية لهذه المعاني ، تكشف لنا عن اشتراكها في معنى عام ، وهو بُعد الغور ، والمعنى الاصطلاحي الذي اقترن بالقرآن في قول الإمام عليه السلام ، يتميز بالوفاء لهذه الدلالة اللغوية ، إذ إنّ المراد به على وفق هذا التوجيه المعرفي ، بُعد الغور ، فباطن القرآن غوره بعيد ، ونواحيه كذلك ( أعماق الأرض نواحيها ) .

إنَّ ما يميّز قول الإمام عليه السلام السابق ، هو أنّ العلاقة بين الظاهر الأنيق والباطن العميق لا تقوم على انفصالهما ، فهذا لا يصح ؛ لأنّ الوصول

(١) ينظر: لسان العرب ( عمق ) .

إلى الباطن يكون من خلال استثمار الظاهر[١] ، والظاهر هو لغة القرآن بكل ما تحيط به من معارف ، فالوصول اذاً إلى حقائق الوجود التي يبسطها القرآن ، إنما تكون من خلال لغته المعجزة ـ بمعنى من خلال ظاهره الأنيق ـ .

وثمة إشارة أخيرة هنا ، وهي إنَّ باطن القرآن يحمل في ذاته بعداً عن الظاهر الواضح . جاء في لسان العرب (( وبطن الأرض وباطنها ، ما غمض منها واطمأن ، والبطن من الأرض : الغامض الداخل ))[٢] ، فإضافة الإمام عليه السلام لباطن القرآن عمقـًا ، يعني والله أعلم ، إنّ من باطن القرآن ما يستطيع أنْ يصل إليه ذوو المعرفة ، ولكنّ العميق من هذا الباطن لا يقدر على الوصول إليه إلّا من وهبه الله تعالى مقدرة ، ميّزه بها من غيره ، والوصول إلى ذلك كلّه مقترن بأهل البيت عليهم السلام ، لأنّهم يرون ما لا نراه ، فعندهم كلّ ظاهر له باطنٌ حتمـًا. يقول الإمام عليه السلام ((...واعلم أنَّ لكلّ ظاهر باطنـًا على مثاله))[٣].

(١) ينظر: المعنى القرآني بين التفسير والتأويل ٢٨٨ وما بعدها، ففيها تفصيل نافع جداً في هذا الاطار.

(٢) لسان العرب ( بطن ) .

(٣) نهج البلاغة ٢/ ٤٤ .

## القرآن أحسن الحديث[١]:-

يأمر الإمام عليه السلام أصحابه بتعلم القرآن بقوله (( وتعلّموا القرآن فانّه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب ))[٢] . وهذا التوجيه العلوي ، يكشف لنا عن صفة من صفات القرآن، إذ إنّ أمره بتعلم القرآن، لا يعني قراءة القرآن فقط ، وإنما تدبر آياته لمعرفة ما جاء فيها من علوم ، إنه أحسن الحديث ، الذي ختم الله تعالى به رسالته . وأحسن الحديث هنا ، هو اقتباس من قوله تعالى : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[٣].

فالمراد بأحسن الحديث القرآن ، كما في قول الإمام عليه السلام ولكنّه عليه السلام أراد بذكر هذا الوصف ما جاء في الآية محيطًا بهذه العبارة ، لارتباط أجزاء الآية ببعضها ارتباطًا سياقيًّا واضحًا ، ومعنى الآية حتمًا لا يكمن في هذا الجزء فقط ، وإنما يكمن في نصّها كلّه .

---

(١) مرّ قبل قليل حديث قريب في ظاهر القرآن الأنيق ، ولكننا هنا نحونا نحواً آخر .

(٢) نهج البلاغة ١/ ٢١٦ .

(٣) الزمر: ٢٣.

فالقرآن اذاً أحسن الحديث ، وهو متشابهٌ ، أيْ أنَّ أجزاءه تتشابه مع بعضها ، وهذا غير التشابه الذي في المتشابه المقابل للمحكم ، لأن ذكر التشابه هنا صفة لجميع القرآن . والتشابه بهذا الادراك ، يؤكد مرة أخرى أنَّ ( أحسن الحديث ) صفة للقرآن كلّه . ثم تأتي الصفة الثالثة للآيات وهي (مثاني)، ومثاني ((جمع مثنية بمعنى المعطوف لانعطاف بعض آياته على بعض ورجوعه إليها بتبيّن بعضها ببعض وتفسير بعضها لبعض من غير اختلاف))[١] ، وهكذا تتوحد هذه الدلالات في هذه الآية لتجعل صفة (أحسن الحديث) مدار الآية الكريمة ومدار ما أراده الإمام عليه السلام بهذا التوصيف.

وثمة إشارة أخرى وردت عن الإمام عليه السلام ، تدلّنا تماماً على أنَّ الحقَّ أحسن الحديث ، يقول : (( إنَّ الحقَّ أحسن الحديث والصّادح به مجاهدٌ))[٢] والحقّ هو القرآن بدليل قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ

(١) الميزان ١٧/ ٢٥٦ .

(٢) أمالي المفيد ٥ ، أمالي الطوسي ٦٢٦ ، وسائل الشيعة ١٨/ ٩٨ .

فَاسِقُونَ﴾[١]، وما نزل من الحق هو القرآن النازل من عنده تعالى ، ومن الحق بيان لما نزل[٢] .

وقول الإمام عليه السلام هذا يأخذ بأيدينا إلى حديث نبوي جاء فيه (( إنّ أحسن الحديث كتاب الله ))[٣] ، ومن هنا تتضافر هذه الإشارة لتجعل توجيه الإمام عليه السلام ، للمسلمين بتعلّم القرآن أمراً ، يُراد منه التمسّك بالكتاب الكريم ، بعد أن رأى عليه السلام اختلاف الناس فيما بينهم وبعدهم عنه ، وعادوا إلى ما كانوا يتفاخرون به في العصر الجاهلي ، بعد أن فعلت العصبية القبلية فعلها في النفوس وقد ظهر أثر ذلك واضحاً في مواطن كثيرة من نهج البلاغة ، وفيها يظهر برم الإمام عليه السلام مما آل إليه حال الناس في الكوفة خاصة وفي الأمصار الإسلامية الأخرى عامة .

## القرآن ربيع القلوب :ـ

ويبقى من قول الإمام السابق المقترن بهذه الصفة القرآنية قوله (وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب)، وفي هذا الجزء من كلامه عليه السلام تخصيص أكثر للتعلم الذي أمر به في الجملة السابقة، فالتفقّه يعني: العلم بالشيء

(١) الحديد: ١٦.

(٢) ينظر : الميزان ١٩/ ١٦١ .

(٣) أمالي الطوسي ٢٣٧ .

والفهم له ((وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم))[١] .

وهنا نقول: إنَّه عليه السلام جعل تعلم القرآن على ضربين: ضرب عام وهو المأمور به أولاً ، وضرب خاص وهو التفقّه في القرآن ، ثم يؤكد أهمية التفقّه هذا ، لأن القرآن ربيع القلوب.

وفي هذا المقطع يستحضر الإمام عليه السلام حديث الدعاء الذي يقول فيه المصطفى: (( اللهم اجعل القرآن ربيع قلبي ))[٢] ، وما دعا به النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ صار حقيقة ، لَفَتَ الإمام عليه السلام أنظار المسلمين إليها ، بعد أنْ أمرهم بالتفقّهِ . والمراد بربيع القلوب هنا ، يفسره لنا ابن منظور في تعليقه على الحديث النبوي المشار إليه ، فيقول (( جعله ربيعـًا له لأنّ الإنسان يرتاح قلبه في الربيع من الأزمان ويميل إليه ))[٣] .

وفي ظني إنَّ في قول الإمام عليه السلام هذا معاني أخر تُعطينا إياها دلالة الجذر ( ربع) في المعجم ، فمن معانيها :

١ – الربيع : الجدول .

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢٣٧ .

(٢) مجمع البحرين ٢/ ١٢٤ .

(٣) لسان العرب ( ربع ) .

٢- الربيع : النهر .

٣- الربيع : السعيد .

٤- الربيع : المطر الذي يكون في الربيع .

٥- أربع القوم : دخلوا في الربيع ... صاروا إلى الريف والماء .

فهذه الدلالات التي تقدمها مفردة ( الربيع ) ، كلها تتصل بما يهب الحياة للإنسان، إذ يكّون الماء بؤرتها الرئيسة، والماء جعل الله تعالى منه كل شيء حي في قوله تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...﴾[1]. واستناداً إلى هذا يكون القرآن حياة لقلب المسلم الذي يقبل على تعلّمه والتفقّه فيه .

ويبقى من المعاني أعلاه المعنى الثالث وهو ( السعيد ) ، فيكون التفقّه في القرآن سعادة للقلب ، وبُعداً عن النحوسة والشقاوة ، فعلى المسلمِ أن يتفقّه في القرآن ، ليتحقق له ما يريد من ذلك في الدنيا والآخرة .

وثمة أمرٌ آخر نختم به حديثنا عن هذه الصفة القرآنية ، وله ارتباط وثيق بما بسطنا فيه القول قبل قليل ، وهو إنَّ الإمام عليه السلام جعل تعلّم القرآن واجبًا على المسلم ـ كما مرّ ـ ، وجعل تعليمه للأبناء في محيط

(١) الأنبياء: ٣٠.

الوجوب نفسه ، يقول عليه السلام (( ... وحقُّ الولد على الوالد أنْ يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلّمه القرآن ))[١] .

لقد جعل الإمام عليه السلام هنا تعليم القرآن للأبناء من جملة عناوين التأديب والتربية على الأخلاق الكريمة . وهذه لا تتأتى إلّا بتعلم القرآن الكريم لأنه ينبوع المعارف التي تُمكّنُ من يتمسك بها من الاستقامة والسير على طريق الهدى الذي يريده الله تعالى لعباده .

بقي أن نشير إلى أنّ الوالد الذي يعلّم ابنه القرآن ، يجب أن يكون هو عالمـًا به ، فإن لم يكن كذلك ، فسيبدأ بنفسه أولاً قبل ابنه ثم يتحول إليه ، وهكذا تؤدي وصية الإمام عليه السلام هنا ما أراده منها من شدَّ المسلمين إلى القرآن في حياتهم في كل حين .

**القرآن نور** :

ويلتفت الإمام عليه السلام إلى صفة أخرى من صفات القرآن الكريم ، بقوله : (( ... ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تُطفأ مصابيحه ، وسراجـًا لا يخبو توقّده ... وشعاعـًا لا يُظلم ضوؤه ))[٢] .

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩/ ٣٦٥ .

(٢) شرح نهج البلاغة ٢/ ١٧٧ .

إنّ وصف القرآن بالنور، من أوصاف القرآن للقرآن، إذ تكررت هذه الصفة في بعض الآيات القرآنية الكريمة مثل قوله تعالى: ﴿... جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾(١) (٢)، وقوله تعالى: ﴿... وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾(٤).

فالقرآن نور يهتدي به الناس مما قد يقعون فيه من ظلمات الجهل وانحراف عن الطريق المستقيم، كما يهتدون بالنور المحسوس في ظلمة الليل.

وهذا النور نور دائم لا تُطفأ مصابيحه ، إذ إنّ من شأن صورة النور المحسوسة أن يعتريها بعض الانقطاع ، مثل انطفاء المصباح الباعث له . والقرآن نوره دائم ، فكلُّ حينٍ يأتي من يهتدي بنوره ثم يذهب ويأتي الآخر إلى قيام الساعة ، ومن هنا صار نوره ثابتاً دائماً ، فاستعار الإمام عليه السلام المصابيح التي لا تنطفأ للإشارة إلى ذلك الدوام . وهنا لا بد من القول إنّ وصف الإمام عليه السلام هذا يدخل بالإمتاع الجمالي الذي يُفضي إلى وصول الفكرة إلى المتلقي بهذا الجمال من دون أن تفقد شيئاً من دلالتها المعرفية ، بل أنّ هذا الاطار يزيدها رسوخاً في ذات المتلقي ، لأنّ المجاز

(١) المائدة: ١٥.

(٢) هناك من قال انّ المقصود بالنور في هذه الآية النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ، ينظر الميزان ٥/ ٢٤٤ ، شرح احقاق الحق ٣١/ ٢٤ .

(٣) الأعراف: ١٥٧.

(٤) النساء: ١٧.

في بعض وجوهه يحمل توكيداً واتساعـاً في المعنى يقول ابن جني (( وإنَّما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه ، فإن عدم هذه الأوصاف كان الحقيقة البتة ))[١] .

أما قوله عليه السلام (( وسراجـاً لا يخبو توقّده )) ، فهو صورة أخرى لنور القرآن ، والسراج هو : (( المصباح الزاهر الذي يُسرج بالليل ))[٢] ويُستضاء به ، إذ يتبدد بوجوده الظلام ، وهذا من الأوصاف القرآنية للقرآن أيضـاً ، إذ فسّر( السِّراج ) في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيـاً إلى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجـاً مُّنِيراً﴾[٣]، بالكتاب البيّن والمعنى (( أرسلناك شاهداً وذا سراج منير أي وذا كتاب منير بيّن ))[٤] .

ويمكن أنْ يكون المراد بالسّراج في قول الإمام عليه السلام الشمس لأنه من معانيها[٥]. كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجـاً وَهَّاجـاً﴾[٦]، فالقرآن يكون مثل الشمس في النور والظهور ، ونور هذه الشمس لا يخبو أبداً .

---

(١) الخصائص ٢/ ٤٤٤ .

(٢) لسان العرب ( سرج ) .

(٣) الاحزاب: ٤٦ .

(٤) نفسه ، بيد أنَّ أغلب المفسرين ذهبوا إلى أنَّ السِّراج في الآية نعت للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(٥) لسان العرب (سرج) .

(٦) النبأ: ١٣ .

فالقرآن إذاً سراج لا يسكن لهبُهُ ولا يُطفأ ولا يخمدُ ، وإنَّما هو خالد يمّد المسلمين بنور الهداية فيكون مصباحـًا لهم في الظلمات .

أمّا الوصف الثالث لنور القرآن فذكره الإمام بقوله المعطوف على الوصفين السابقين: (( وشعاعـًا لا يُظلم ضَوؤُه ))[١] . وهنا تُشكّل صفة ديمومة نور القرآن ركيزة رئيسة في هذا الوصف يتعاضد مع الوصفين السابقين ؛ لأنَّ أشعّة الشمس لا يُظلم ضوؤها أبداً . والقرآنُ لا ينقطع اهتداءُ الناس به في الأزمان كلّها ، فهم يستضيئون بنوره في كلِّ حين.

## القرآن فرقان :ـ

وصف الإمام عليه السلام القرآن بأنه فرقان بقوله عنه : (( ... وفرقانـًا لا يُخمد برهانه ))[٢] ، فما المراد بالفرقان هنا ؟ .

إنّ العودة إلى الاستعمال الاجتماعي للفظة ( الفرقان ) تقربنا من دلالة الاستعمال القرآني لها ، جاء في المعجم المعاني الآتية[٣] :-

١ - الفُرقان والفُرق : إناء يكتال به ، والفرقان : قدحان مفترقان .

---

(١) نهج البلاغة ٢/ ١٧٧ .

(٢) م . ن ٢/ ١٧٧ .

(٣) ينظر : لسان العرب (فرق) .

٢- الفرقان : الصبح ومنه قولهم قد سطع الفرقان .

٣- الفرقان : أبلغ من الفرق ، لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل .

إنَّ الجامع لهذه المعاني ، هو أنَّ ( الفرقان ) صفة لكل ما يفرّق بين أمرين بالتساوي دون زيادة أو نقصان . فالإناء الذي يُكتال به يكون وسيلة بيد المكتال ليعطي كلّا حقه بعدل ومساواة . فإذا نقص من حق أحد الطرفين أو الاطراف شيء ، انخدش الحق ، فالإناء الذي يُكتال به ، والذي يُعوّل عليه في إحقاق الحق ، سُمّي فرقانـًا لأنه يفصل بين الحقّ والباطل .

وفي المعنى الثاني وصف الصبح بأنَّه ( فرقان ) لأنه يفرّق بين الليل والنهار ، إذ يمكن أن نصرفَ الليلَ بدلالة مجازية إلى الباطل ونصرف النهارَ بدلالةٍ مجازيةٍ إلى الحق . فيكون الصبح فرقانـًا بينهما .

وقوله عليه السلام (( لا يخمد برهانُهُ )) توكيد على ثبات تفريق القرآن بين الحق والباطل ، فهو لا يقتصر على زمن دون زمن ، وإنما ثابت دائم مستمر ، لا يصابُ برهانه بفتور ، وهذه الإشارة تجعل الفرقان صفة وليست اسمـًا تمامـًا كما سيرد في صفحات لاحقة .

نخلص مما سبق إلى أنّ الإمام عليه السلام جعلَ الفرقان صفة للقرآن الكريم وليست اسمـًا له على ما ذهب إليه بعض الباحثين[١] . وقد أشار القرآن إلى أنّ الفرقان صفة للكتب السماوية التي فرّقت بين الحق والباطل ، فالتوراة فرقان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢]، والقرآن فرقان في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾[٣].

واستناداً إلى هذا فيكون الفرقان ((كل ما فُرّق به بين الحقّ والباطل))[٤] .

بيد أنّ اتصاف القرآن بهذه الصفة وملازمتها له أبداً ، جعلها تنتقل من الوصف إلى الذات ، فصارتْ تدلّ على القرآن من دون أنْ تتخلى عما تحمله من صفات التفريق بين الحقّ والباطل لأنَّها كامنة فيها . واستناداً إلى هذا صار بالإمكان التوفيق بين قولي من قال إنَّ الفرقان اسمٌ ومن قال إنَّها صفة من دون إشكالٍ معرفي تبسطه المسميات .

---

(١) ينظر: بحوث في علوم القرآن الكريم ٢١-٢٣، المعنى القرآني بين التفسير والتأويل ١٩٥-١٩٦.

(٢) الأنبياء: ٤٨.

(٣) آل عمران: ٤.

(٤) لسان العرب ( فرق ) .

## علوم القرآن الكريم :ـ

كان المسلمون يتدبّرون ما ينزل من القرآن على النبي ـ ﷺ ويفهمون معانيه في الغالب ؛ لأنّهم أهل اللغة التي نزل بها ، وإذا أشكل عليهم منه شيئـًا سألوا النبيَّ ـ ﷺ ـ ، فيكشف لهم ما يغرب عنهم من المعاني في الحدود التي يريدها الله تعالى ويريدها هو ﷺ ، ولما ابتعد المسلمون عن عصر النبوة ، وآل أمرُ الخلافة الرسمية إلى الإمام عليه السلام تعهّد بالكشف عمّا يندُّ معناهُ عن المسلمين من القرآن الكريم الذي جمعه من قبلُ ، وراح عليه السلام يوجّه المسلمين إلى التمسّك بالقرآن ، ويرسّخ في نفوسهم قيمة ذلك ، ويدعوهم إلى تمثّله في حياتهم ، لأنّه ـ أي القرآن ـ جاء لهديهم، ولإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومن هنا لفت عليه السلام أنظار المسلمين إلى بعض علوم القرآن على وفق ما يحتاجون إليه من أجل الوصول إلى المعنى القرآني . وهذه العلوم تشكّل لبّ المعرفة القرآنيّة ؛ لأنَّها كافيةٌ لتبصير المسلمين من أجل الوقوف على الدلالات القرآنية والتمسّك بها .

ذكر الإمامُ عليه السلام علومَ القرآن في قوله الآتي ، وهو يذكر النبي ﷺ وما تركه للمسلمين من بعده ، فقال (( كتابُ ربّكم فيكم ، مبيّنا حلاله وحرامه، وفرائضهُ وفضائله ، وناسخه ومنسوخه ورخصه وعزائمه

وخاصه وعامه ، وعِبَره وأمثاله ، ومرسله ومحدوده ، ومحكمه ومتشابهه ، مفسراً جمله ، مبيّنـًا غوامضه ))[١] .

يشير الإمام عليه السلام ، هنا إلى أنّ النبيَّ صلى الله عليه وآله خلَّف كتاب الله ، وقد بيّن للمسلمين ما فيه من علومٍ ومعارفَ ، وهذا البيان النبوي محفوظ عند أهله وهم أهل البيت عليهم السلام ، لأنَّ الإمامّ عليه السلام ركز القول على ما خلفه النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ في المسلمين ، وكأنه بذكره هذا يدفعهم إلى استحضار ( حديث الثقلين ) ، فحينما يذكرُ القرآنَ ، يأتي ذكر أهل البيت عليهم السلام تلقائيـًا لارتباطهم بالقرآن ، فضلاً عن أنّ إشارته عليه السلام لا يمكن أن تُؤوَلَ بغير هذا. لننظر إلى ما قاله ممهِداً لقولهِ موضعِ البحث (( ... وخلّف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها ، إذ لم يتركوها هملاً بغير طريق واضح ولا علم قائم ))[٢] . وهذا القول جليّ في بيان المراد .

---

(١) نهج البلاغة ١/ ٢٥ . وعلى الرغم من وضوح مراد الإمام عليه السلام ، فلم يُشر من كتب في علوم القرآن إلى ما وضعه عليه السلام من أسس لهذه العلوم ، إلّا ما نجده في كتاب (( مباحث في علوم القرآن )) ١١٩-١٢٢ ، إذ أشار الشيخ صبحي الصالح إشارة موجزة مقتضبة إلى انّ الإمام عليه السلام كان من الممهدين ـ مع غيره لعلوم القرآن من دون الإشارة إلى هذه العلوم ـ كما فصّلها ـ الإمام في قوله السابق . واكتفى بذكر (( علم إعراب القرآن )) الذي علّمه الإمام عليه السلام لأبي الأسود الدؤلي(ت٦٩هـ).

(٢) نهج البلاغة ١/ ٢٥ .

والآن نعود إلى حديثه عليه السلام عن علوم القرآن ، فنقول إنّ العلوم التي أشير إليها في القول السابق هي :-

**١- علم الحلال والحرام :-**

يشكّل هذا العلم ركنـًا رئيسـًا من أركان معرفة القرآن ، لأنَّه ـ أي هذا العلم ـ معنيّ بشدّ المسلمين إلى القرآن ، ليتبيّنوا من خلاله ما أمروا به وما نُهوا عنه لتستقيم حياتهم على الوجه الذي يريده الله تعالى ممهداً للحياة الآخرة . وفي ظنّي أنَّ هذه الإشارة ، تُعدُّ الأولى التي ذكرت معرفة (الحلال والحرام) بوصفها علمـًا من علوم القرآن . وهذا ما يُعرف اليوم بعلم الفقه وعلم أصول الفقه أيضـًا . وهذا العلم يُعَدُ ركيزة رئيسة للعلوم الأخرى ، التي وضعت في الأصل لبيان جزئياته التي تقوم عليها الحياة بشطريها الدنيوي والأخروي ـ كما أشرنا ـ . ومن هنا جاء تقديمه في قول الإمام عليه السلام لغاية معرفية ، تلفت نظر المسلمين إلى أهميته في إدراك المعنى القرآني الذي يتعبّد المسلم بأوجه من دلالاته . وعود على قول الإمام عليه السلام ((كتاب ربكم فيكم))، جعل من خلاله المسلمين وعاء للقرآن يحفظونه ويتدارسونه ويستنبطون منه أحكام ما يريدون ، ولعل في

استعمال حرف الجر ( في ) وما يؤديه من فائدة ظرفية[١] ، يبرّز ما نقوله بشأن قول الإمام عليه السلام .

واستناداً إلى ما تقدم صار علم ( الحلال والحرام ) ، علماً قائماً بذاته مستقلاً عن غيره ، ومستنداً إلى غيره في آنٍ معاً .

وثمة إشارة أخيرة نذكرها هنا ، وهي إن هذا المصطلح أوّل إشارة إلى على المراد من علم ( الفقه ) . لأن علم الفقه يعني لغة (( فهماً في الدين ))[٢] استناداً إلى قوله تعالى: ﴿... لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ...﴾ [٣]، ومن هنا يفترق العلمان ، وإن التقيا في جوانب أخرى .

**٢- علم الفرائض والفضائل :**

تعني فرائض الله في اللغة (( حدوده التي أمر بها ونهى عنها ))[٤] ، والفضائل جمع فضيلة وتعني (( الدرجة الرفيعة في الفضل ))[٥] ومن جمع هذين المعنيين ، يكون هذا العلم مختصاً بمعرفة حدود ما أمر الله

---

(١) ينظر معاني النحو ٣/ ٥٥ .

(٢) لسان العرب ( فقه ) .

(٣) التوبة: ١٢٢.

(٤) ينظر م . ن ( فرض ) .

(٥) م ، ن ( فضل ) .

تعالى به وما نهى عنه ، ومعرفة الدرجات الرفيعة في فضل القرآن الكريم بكل ما فيه من علوم ومعارف ، ومن هنا يكون هذا العلم أعمّ من العلم الأول ؛ لأنّه لا يكتفي بمعرفة الفرائض ؛ بل يقرن معرفتها بالفضائل المشار إليها ، فيتوسع ليستوعب العالم كلّه ، لأنّ القرآن جاء تبيانـًا لكل شيء ، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١]، ما يأتي : ((عني به الناس وجعل كل واحد منهم عالمـًا ، وقال : العالم عالمان ، الكبير وهو الفلك بما فيه ، والصغير وهو الإنسان لأنه على هيئة العالم الكبير وفيه كل ما فيه))[٢] . واستناداً إلى هذا كلّه ، صار هذا العالم أوسع علوم القرآن وأدقها ، لأنّه معني بمعرفة العالمين عالم الإنسان وعالم المخلوقات كلها[٣] . وهذه هي الدرجة الرفيعة في الفضل التي بسطها المعنى اللغوي قبل قليل .

---

(١) الفاتحة: ٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز ٤/ ٩٥ .

(٣) ينظر المعنى القرآني ٣٢٤-٣٢٥ .

### ٣- علم الناسخ والمنسوخ :-

على الرغم من كثرة ما كتب عن الناسخ والمنسوخ ، فإنَّنا سنعنى هنا فقط بما أراده الإمام عليه السلام بهذا العلم ، وعلى وفق الدلالة اللغوية أولاً ، جاء في لسان العرب [١] :-

١- النسخ : تبديل الشيء من الشيء وهو غيره .

٢- نسخ الآية بالآية : إزالة مثل حكمها .

٣- النسخ : نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو .

٤- النسخ أنْ تعمل بالآية ثم تنزل آيةٌ أخرى فتعمل بها وتترك الأخرى.

إنّ قراءة أولى لهذه المعاني ، تظهر لنا انّ الجامع لها ، تبديل الشيء بآخر أو نقله من مكانه ، وهذا هو لب ( الناسخ المنسوخ ) ، كما تظهره اللغة والاصطلاح معـًا . وهذا ما أراده الإمام علي عليه السلام في بيانه لهذا العلم تمامـًا . إذْ فصّل القول في دلالة هذا كله ، وهو عليه السلام يستشرف المستقبل لما سيقع بين المسلمين من خلاف بشأن هذه الجزئية ، ولو تمسك المسلمون بقوله عليه السلام هذا لما وقعوا فيما وقعوا فيه من خلاف حول عِلمٍ أراده الله تعالى معينـًا لهم في تدبّر أوامره ونواهيه ، ولكي يتمّ الإمام عليه السلام

(١) لسان العرب ( نسخ ) .

تفاصيل هذا العلم ، أتّم توصيفه للناسخ والمنسوخ ، بقوله (( ... وبين مثبت في الكتاب فرضه ، ومعلوم في السنة نسخه ))[١] .

وقول الإمام عليه السلام هذا لا يُبقي مسوغاً لاختلاف المسلمين في هذا الموضوع إذ قرَّر أنَّ السُّنةَ تنسخ القرآنَ ، لأنَّ القرآنَ والسُّنة متعاضدان متوافقان، فهما الثَّقلان اللَّذان لا يفترقان، ولكنّ بعض علماء المسلمين قال بغير ذلك، كالشافعي مثلاً، ولكنّ الزركشي ردّ عليه بقوله: ((...حذاق الأمة على الجواز ، وذلك موجود في حديث ((لا وصية لوارث))[٢]، ولعلّ الزركشي بهذا الكلام القاطع كان ينظر إلى قول الإمام عليه السلام .

ويشير الإمام عليه السلام إلى نسخ السُّنة بالقرآنِ في قوله السابق: (...وواجب في السُّنة أخذه ومرخّص في الكتاب تركُهُ) . وهذا الضرب من النسخ أخذ به أغلبُ المسلمين ، إذ تضافرتْ الأدلّة على جوازهِ ولم يعترض عليه أحدٌ في حدود ما اطلعنا عليه[٣] .

### ٤- علم المحكم والمتشابه :-

وهذا العلم هو الذي تشير إليه الآية السابقة في سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ

(١) نهج البلاغة ١/ ٢٦ .

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٣٢ ، والحديث في من لا يحضره الفقيه ٤/ ١٩٤.

(٣) ينظر: مباحث في علوم القرآن ٢٦١ .

مُتَشَابِهَاتٌ...﴾[١]، وقد ذكر الإمام عليه السلام هذا العلم بهذا الجزء من قوله السابق (( ومحكمه ومتشابهه ، مفسراً جمله ومبيناً غوامضه ))[٢] ، وواضح من قوله عليه السلام هذا أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسّر للمسلمين جمل القرآن وبين لهم غوامضه ، وما من شك إنَّ الغوامض هنا تعني الآيات المتشابهات ، لأنَّ الغموض آتٍ ممّا يرد فيها من دلالات تحتاج إلى تأويل حتى يُفهم المراد منها ، ومن جهة أخرى فإن ( غوامض ) جمع لـ (غامضة) ، ولأن سياق الحديث عن آيات القرآن ، صار من المقبول تماماً ألّا ينصرفَ الذُهنُ إلّا إلى الآياتِ المتشابهة هنا .

وعودٌ على قولِ الإمام عليه السلام، فإنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بيّن للمسلمين تلك الغوامض من الآيات. وهذا يعني فيما يعنيه، أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم بيّنها لهم بما جعلها قريبة من مداركهم، وهذا يكون من طريقين، الأول: ردّ المتشابه إلى المحكم وتفسيره به ، لأنَّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً . والثاني : إلى السنة النبوية المحفوظة عند أهل البيت عليهم السلام ، وهكذا يتعاضد الثقلان في بيان ما يشكل على المسلمين من إدراكه من متشابه القرآن الكريم، الذي أودع علمه فيه وعند الراسخين بالعلم على وفق دلالة آية آل عمران المشار إليها قبل قليل[٣] .

(١) آل عمران: ٧.

(٢) نهج البلاغة ١/ ٢٦ .

(٣) ينظر: أهل البيت في نهج البلاغة / قراءة تأويلية ٣٢ وما بعدها .

# خاتمة الفصل

لقد كشف البحث فيما مرّ ، أنّ الإمام عليه السلام ، لفت أنظار المسلمين إلى كثير من ثوابت القرآن الكريم ، على وفق ما جاء فيه ـ أي القرآن ـ وعلى وفق ما يراه هو عليه السلام بوصفه ( القرآن الناطق ) ، فتحدث عن أسمائه وصفاته وعلومه ومعارفه بإيجاز يكفي لتبصير المسلمين بذلك كله ، وكأنه عليه السلام كان يستشرف ما سيقع فيه المسلمون من الاختلاف والفرقة والتناحر ، بسبب تأويلهم للقرآن على وفق عقائدهم التي يؤمنون بها ، وليس على وفق ما يريده الله تعالى ، ولو أخذوا علوم القرآن ومعارفه من علي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام لما وقعوا فيما وقعوا فيه ، لأن الله تعالى شاء أنْ تكون علوم القرآن مركوزة فيه ، ومحفوظة عند أهلِ البيتِ عليهم السلام ، وما حديث الثقلين إلّا دعوة للمسلمين إلى هذا كلّه .

# الفصل الثاني

## صفاتُ القضاة
## وأُسس اختيارهم
## في نهج البلاغة

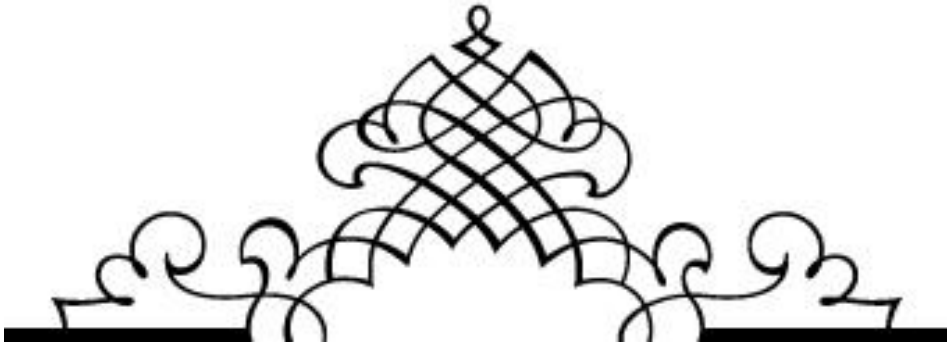

# صفاتُ القضاة
# وأُسس اختيارهم في نهج البلاغة

أقام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام دولة العدل الإلهي مدة خلافته ، على الرغم من كثرة الحروب التي فرضها مناوؤه عليه ، لأنّهم يفقدون ما يتمنّونه حتما إذا عاشوا كغيرهم في تلك الدولة . ولما كان العدلُ هو الأسُّ المكين الذي أقام عليه دولته ، فقد اهتم عليه السلام باختيار القضاة ، لأنّهم هم الذين يُطبّقون العدلَ الذي يُريده عليه السلام . ومن هنا تكرّر ذكرُ هذين الصنفين في نهج البلاغة ، وعلى الرغم من اختياره عليه السلام لهؤلاء بنفسه فإنّه عليه السلام كان يوصي من يختاره بوصايا ، يستنبط منها الصفات التي يُريدها فيمن يختار ، وهو عليه السلام بهذا يضع بعضاً من الأُسس التي ينهضُ عليها بناء الدولة من جهة ، ومن جهة أخرى يقطع على المتربّصين طريقِ الاعتراض على من يختاره للعملِ قاضياً.

لقد وضع الإمامُ عليه السلام أُسس اختيار هؤلاء وحدَّ صفاتهم في الكتب التي كان يبعثها لمن يختارهُ للقضاء ، أو لمن يبعثه والياً ويَكِلُ إليه اختيار القضاة لعمله ، وهكذا يضعُ أمام المسلمين عامةً ما يريدُهُ في القاضي من

صفات ، وبهذا يُهيّء لهم الأمان لأنّ من يتولّى الفصلَ بينهم مأمون في عدالته على وفقِ طاقةِ الإنسان ، ويدفع أهل الخصوماتِ إلى الانتباه إلى ما ينتظرهم من العدل عند القاضي ، وبذا يتحققُ ابتداءً الهدف التربوي الذي يسعى الإمام عليه السلام إلى تحقيقه والذي يتمثّل في تنبيه المسلمين إلى الصّرامة التي تنتظرُ من يريد أنْ يُجافي الحقّ في نزاعه مع الآخرين .

وقد ذكر الإمام عليه السلام من الصفات ما يُجسّدُ الروحَ الاسلاميّةَ الحقّةَ ، وقيم العرف الاجتماعي التي أقرّها الإسلام ، وتلك الصفات إذا اجتمعتْ في شخصٍ سيكون على قدر كبيرٍ من الهيبةِ التي تترك آثارها على المتنازعين ، إذْ يرون أنّ من يقفون أمامه للفصلِ بينهم ، يمتلك القدرة التي تُعينه على الإمساكِ بالحقّ وتعرية الباطلِ .

وقد اعتمدنا في قراءة الصفات منهجًا تأويليّاً يقوم على التقاط الألفاظ المركزية في النصوص ، والعودة إلى المعجم العربي للوقوف على دلالاتها ، وأخذ المعاني التي يقبلها السياق ، دون الوقوف على المعنى الظاهر ، وبهذا تنفتح دلالات النصوص على نحوٍ يظهرُ غزارة المعاني التي تحتملها الصفة الواحدة ، من دون أن تشكّل هذه القراءة عبئاً على النصوص، أو تحميلها مالا تحتملُ ـ كما وعدنا بذلك أكثر من المرّة.

وهذه القراءة تجسّدُ ما نعتقدُ به من أنّ الإمام عليه السلام ينتقي من

المفردات ما يرى فيه القدرة على تجسيد ما يريده من معاني الصفات التي يريد أن يتزيّن بها القاضي أو الوالي ، وهذا شأنه عليه السلام في استعمال اللغة في خطبه وكتبه وحِكَمِهِ الواردةِ في نهجِ البلاغةِ ، وفي غيرهِ من مصادرِ المسلمين .

## أسس اختيار القضاة :

يضع الإمام عليه السلام الأسسَ التي يُستندُ إليها في اختيار القضاة الذين يرادُ لهم أنْ يتصدّوا للحكمِ بين العباد، ويفصلوا فيما يقعُ بينهم من خصوماتٍ من أجلِ حمايةِ المجتمعِ من التّشتّتِ والفرقةِ والتناحرِ والتجافي ، فيقول في عهده لمالك الأشتر حينما ولّاهُ مصر : (( ... ثمَّ اخترْ للحكمِ بين الناسِ أفضلَ رعيّتكَ في نفسكَ . ))[1].

يُعطي الإمامُ عليه السلام للوالي ( الحاكم ) حقَّ اختيارِ القاضي بنفسه ، ولم يشأ أنْ يختاره هو عليه السلام وهو خليفةُ المسلمين ، بل أرادَ أنْ يبني دولةَ عدلٍ تقوم على مشاركةِ الآخرين من ذوي الشأنِ في بنائها ، ومنهم الولاةُ ، فأعطاهم هذا الأمرَ وجعلَهُ حقّاً لهم .

ويضعُ عليه السلام الأسَّ الأوّلَ للاختيارِ، وهو أنْ يكونَ المختارُ أفضلَ

(١) نهج البلاغة ٣/ ٩٤ .

الرعيةِ في نفسِ الوالي . وهذه الأفضليةُ لا علاقة لها بمودة الوالي لشخصٍ دون آخر ، وإنّما هي الأفضليّةُ التي تقومُ على العلمِ والخبرةِ والقدرةِ على استنباطِ الأحكامِ من القرآنِ والسُنّةِ ، وهذا ما يتوسّمُه الوالي في أفرادِ رعيته ، واستنادا إلى هذا يكون القاضي حاكمـًا ومُفتيـًا في آنٍ معا ، ومن هنا فإنّنا لا نرى فرقـًا بين الأمرين على وفقِ هذه الإشارةِ العلويةِ ، كما ذهب إلى ذلك أحد العلماء حينما قال: ((على أنّه لم يعلمْ كون هذا حكمـًا شرعيـًا، أو حكمـًا ولائيـًا نافذَ المفعول إلى الآن، إذا الموقفُ يناسبُ أيضا كونه من تعاليمه عليه السلام ، بما هو رئيس الحكومة لمالك الأشتر بما هو منصوب من قبله على مصر))[١].

ثمّ يذكرُ الإمامُ عليه السلام الصفاتِ التي يريدُها فيمن يتولّى القضاء من المسلمين وهي على النحو الآتي:

## القدرة على تصريف الأُمور:

يُوجبُ الإمامُ عليه السلام أنْ يكونَ القاضي : (( ممّن لا تضيقُ به الأُمورُ، ولا تُمحكهُ الخصومُ ))[٢].

فالصفةُ الأولى تتمثلُ في قدرةِ القاضي على تصريفِ الأُمورِ التي

(١) القضاء في الفقه الإسلامي ٦٧ .

(٢) نهج البلاغة ٣/ ٩٤ .

تُعرض عليه ، ولو كانتْ ملتبسةً ببعضها ، إذْ يمتلك من الحنكةِ وحسنِ التدبيرِ ما يقوى بهِ على تخليص الملتبس. واللافت للنظرِ هنا أنّ الإمامَ عليه السلام جعل الأمورَ نفسَها تضيقُ بالقاضي نفسِه بأُسلوبٍ مجازيٍّ أسبغ على التعبيرِ بُعداً جماليّا ، لنا أنْ نتصوّرهُ في أنَّ الأمور تضيقُ إذا رأتْ القاضيَ غيرَ قادرٍ على حلِّ ما يُشكلُ منها ، وهي تمتلك القدرةَ على الاتّساعِ ، فمن معاني الضيق : (( ما يكون في الذي يتّسعُ ويضيق))[١] . وهذا الاستعمالُ البلاغيُّ لإسنادِ الضيقِ إلى الأمورِ ، يعني فيما يعنيه ، أنّ على القاضيَ أنْ يمتلكَ من القدرةِ المعرفيّةِ ما يمكّنهُ من إيجادِ مخرجٍ لكلِّ ما يعرضُ له من دونِ أنْ يضيقَ صدرهُ بما يُواجهُهُ .

## لا تُمحِكه الخصوم :

أمّا الصفةُ الثانيةُ فهي : (لا تُمحِكهُ الخصوم) ، ومن أجلِ الوقوفِ على ما يريدُهُ الإمامُ بهذه الصّفةِ ، نعودُ إلى دلالةِ الجذر(محك) في المعجم . جاء في لسانِ العربِ المعاني الآتيةِ [٢] :

١ـ محك : المَحْكُ المُشارَّة والمُنازعة في الكلام .

---

(١) ينظر : لسان العرب ( ضيق) .

(٢) ينظر : لسان العرب ( محك ) .

٢ـ المَحْكُ : التمادي في اللَّجاجَة عند المُساوَمة والغَضب ونحو ذلك.

٣ـ الجواد المَحِكُ : الذي يَلِجُّ في عَدْوِه وسيره .

٤ـ تَماحك البَيِّعان والخَصْمان : تَلاجَّا قال الفرزدق :

يا ابنَ المَراغَةِ والهِجاءُ إذا التَقَتْ أعناقُــه وتَماحَــك الخَصْــمانِ

٥ـ رجل مَحِكٌ ومُماحِك ومَحْكانُ : إذا كان لَجُوجاً عَسِرَ الخُلقِ ، وفي حديثِ الإمامُ عليّ عليه السلام لا تَضِيق به الأُمورُ ولا تُمْحِكُهُ الخُصومُ .

٦ـ رجلٌ مُمْتحِكٌ ورجلٌ مُسْتَلْحِكٌ ومُتَلاحِكٌ في الغضبِ ، وقد أَمْحَكَ وأَلْكَدَ يكون ذلك في الغضبِ وفي البُخْلِ.

إنَّ نظرةً أولى على هذه المعاني تُظهرُ لنا أنَّ اللّجاجةَ والمنازعةَ وعُسرَ الخُلُقِ هي الإطار الذي يجمعُ المعاني الجزئيّةَ الواردة تحت الجذر (محك) ، ولمّا كان عملُ القاضي يقتضي الاستماع لحججِ المتخاصمين وهم يقفون أمامه ، وكلُّ واحدٍ منهم يسعى إلى جرجرةِ الحقَّ إلى جانبِهِ ، فقد يقود هذا إلى تبرّمِ القاضي وضيقِه وتفلّتِ الصّبرِ منه وهنا يفقد القاضي صفةً رئيسةً من الصفاتِ التي يوجبُها الإمامُ عليه السلام فيه .

أمّا المعاني الجزئية المشارِ إليها فتُعطينا التصوّر الآتي لاستعمالِ الإمامِ عليه السلام لـ ( تُمحِكُهُ الخُصُوم) :

يُعطينا المعنى الأوّلُ ما يقعُ فيه المتخاصمان أمام القاضي من اللّجاجةِ التي تقودُ إلى الغضبِ ( المعنى ٢) ، تحت تأثيرِ الخصومةِ ، التي تجرفهما إلى المساومةِ واللّجاجةِ ، كما يلجُ الجوادُ في عدوهِ وسيرهِ (المعنى ٣) ، واختيارُ صفةِ الجواد هنا تتماهى مع حالةِ المتخاصمَين أمام القاضي ، فكأنّهما في سباقٍ من أجلِ السبقِ في الحصولِ على ميلِ القاضي لأحدِهما .

أمّا المعنى الرابعُ :( تماحك البيّعان والخصمان)، فيومئ هذا المعنى إلى أنَّ المتخاصمَينِ كأنّهما بائعان يقفان أمام القاضي ، وكلٌّ واحدٍ منهما يسعى إلى الغلبةِ في بيعِ بضاعتهِ إلى القاضي ، فيستعمل ما بوسعه من اللّجاجةِ من أجلِ تحقيقِ ذلك . ولا يخفى ما في هذه العبارة من تجسيدٍ لتصويرِ سلوكِ الباعةِ وهو يتمثّلُ في ما يأتي به المتخاصمانِ أمام القاضي .

والمعنى الخامسُ ( عُسر الخلق) ، وفيه نقولُ : إنّ هذه الصفةَ قد لا تكونُ ملازمةً لمن يحضرُ أمام القاضي من المتخاصمَين ، ولكنّها قد تتسرّبُ إلى من لا تكونُ ملازمةً له ، تحت تأثير النزاع المحتدم مع خصمه ، فتكون صفةً له في موطنِ النزاعِ هذا في مجلسِ القاضي .

ويبقى المعنى السادس (البُخل) ، وهنا نقولُ : إنَّ أحدَ المتخاصمَينِ يُدرك أنّه على غيرِ الحقِّ ، وهو يُواجهُ خصمهُ أمام القاضي ، فيكون بخيلاً في إعطاءِ الحقِّ لصاحبِهِ ، فيلجّ ويُنازع ويرفع صوتَهُ ، من أجل التعميّةِ على القاضي .

لقد رسم الإمامُ عليه السلام بهاتين الكلمتين هذه الصورةَ لما يمكنُ أنْ يقع في مجلس القضاء ، واستناداً إلى هذا، أراد عليه السلام أن يتجمّلَ القضاةُ بهذه الصفةِ ، وهي عدم الاستكانةِ لتأثيرِ ( المماحكة) التي يستجلبُها المتخاصمان ، وهما يحاولان التأثيرِ في القاضي وهو يتصدّى للحكم بينهما .

## لا يتمادى في الزلّة :

أما الصّفةُ الثالثةُ التي يريدها الإمامُ عليه السلام للقاضي فتأتي في قولهِ : ((ولا يتمادى في الزلّةِ))[1] . فما المراد بها ؟ .

إنّ الخطأ مما يقعُ من الإنسانِ ، فإذا وقع فيه وجبَ عليه أنْ يرجع بعد ظهور الحقِّ أمامه ، والإمامُ عليه السلام عدّ ما يقعُ فيه القاضي من اضطرابٍ في

(١) نهج البلاغة ٣/ ٩٤ .

الحكمِ زلّةً ، والزلّةُ تكون في القولِ والخطيئةِ والرأيِّ والدينِ[١]، وزللُ القاضي يكونُ في هذه الأوجهِ الأربعةِ التي تقولُ بها اللغة ، فحينما يقعُ في واحدٍ منها ، يكون قد زلّ عن الطريقِ القويمِ . فإذا زلّ في القول ، وقال حكمَهُ بلغةٍ تُشكلُ على المتخاصمينِ ، عُدَّ هذا زللاً منه ، يتحتّمُ عليه أنْ لا يتمادى فيه ، أيْ لا يستمرّ، يُقالُ : (( تمادى فلانٌ في غيّهِ إذا لجّ فيه ، وأطال مدى غيّه ، أيْ غايتهِ ))[٢] .

وقد تُعدُّ زلّةُ القاضي خطيئةً ، لأنّ الحكمَ بغيرِ الحقِّ ضربٌ من الجورِ والتعسّفِ والظلمِ ، وإنْ لم يكن مقصوداً ، وهنا يجبُ الرجوعُ إلى الحقِّ ، وليس في هذا ما يشين ، فثمّةَ حديثُ نبويٌّ عدّ التوبةَ عن الخطأ ضرباً من ضروبِ الفضيلةِ ، يقولُ ﷺ : (( كلُّ بني آدم خطّاء ، وخيرُ الخطَّائين التوّابون ))[٣]. والتوبةُ هي الرجوعُ من المعصيةِ إلى الطاعةِ ، وهنا تتحقّقُ الفضيلةُ المذكورةُ في الحديثِ .

واستناداً إلى ما تقدّمَ ـ أيضا ـ صارتْ زلّةُ القاضي في الحكمِ زلّةً في الدينِ ، وهنا صارتْ سرعةُ العودة إلى جادةِ الحقِّ واجبةً ، حتى لا يكون

---

(١) ينظر : لسان العرب ( زلل) .

(٢) يُنظر : م . ن (مدي) .

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٧٠ ، كنز العمّال ٤/ ٢١٥ .

متماديـاً فيما وقع فيه من زلل في هذه القضيّةَ أو تلك على ما أوصى به الإمامُ عليه السلام .

بقي من معاني (الزلّة) معنى آخر أرجأنا الحديث عنه ليكتملَ ما أردناهُ من المعاني السابقةِ ، والمعنى هو قولهم : زلّ : إذا زَلِقَ ، أيْ لا تثبُت قدمُهُ ، فيكون القضاءُ (زُحلوقةً) لا تثبتْ عليها الأقدامُ إلا بعد التثبّتِ والتأنّي، وهذا المعنى يتناغم مع ما أشار إليه الإمامُ عليه السلام . واستنادا إلى هذا المعنى صار لزامـاً على القاضي أنْ يتثبّتَ في أحكامه حتى لا تزّل قدمهُ فينحدر إلى مهاوي الخطيئةِ التي مرّ ذكرُها في المعاني السابقةِ .

## لا يُحجم من الرجوع إلى الحقّ :

والصّفةُ الرابعةُ من صفاتِ القاضي تردُ في قوله عليه السلام : (( ولا يَحصَرُ من الفيء إلى الحقِّ إذا عرفه ))[1] ، والوقوفُ على معاني المفرداتِ المركزيّةِ في النصّ يُعيننا على تلمّسِ بعضـاً ممّا يبسطهُ الإمامُ عليه السلام ، واللفظةُ المركزيّةُ الأولى هنا هي ( يُحصَرُ) ، ومن معانيها في المعجم العربي ما يأتي[2] :

(١) نهج البلاغة ٣/ ٩٤ .

(٢) ينظر : لسان العرب ( حصر) .

١ـ حَصِرَ صدرُهُ : ضاق ، والحَصَرُ : ضيّقُ الصدرِ .

٢ـ حَصَرَهُ يحصِرُهُ : ضيّقَ عليه وأحاطَ به .

٣ـ الحصيرُ والحصورُ : الممسكُ البخيلُ الضيّقُ .

٤ـ الحصورُ : الهيوبُ المحجمُ عن الشيء .

فالقاضي على وفقِ هذه المعاني لا يضيقُ صدرُهُ ، ولا يُحجمُ عن الرجوعِ إلى الحقِّ إذا تبيّن له أنّه جافاهُ في حكمهِ ، ولا يتهيّبُ من ذلك ، وإنّما يتقبّلُ أمرَ العودةِ إليه بصدرٍ رحبٍ ، واستبشارٍ ورضا . وهنا يكون كريما لأنّ العودةَ إلى الحقِّ مما يُحمدُ به الإنسانُ ، والكريمُ اسمٌ جامعٌ لكلّ ما يُحمدُ[١] ، وهنا يحضرُ معنى ( الممسك البخيل الضيّق) رقم (٣)، لمن يحصَرُ عن الرجوعِ إلى الحقِّ ، إلى ما يأمرُ به الله تعالى .

أمّا اللفظةُ المركزيّةُ الثانيةُ في النصّ فهي ( الفيء) ، ومن معانيها التي تأتلِفُ مع السّياقِ ما يأتي :

١ـ فاء إلى الأمرِ : رجع إليه .

٢ـ الفيء : ما كان شمسـًا فنسخه الظلُّ .

٣ـ الفيء : الغنيمة .

---

(١) ينظر : لسان العرب ( حصر) .

نخلصُ من النظرِ في قولِ الإمامِ عليه السلام على وفق المعاني السابقةِ إلى القولِ : إنّ القاضيَ إذا تبيّن له الحقُّ وعاد إليه بعد خروجه عن طريقه ، يكونُ كمن ترك الوقوفَ في الشمسِ ، ورجع ليستريح في الفيء أو الظلِّ ، ويكون ـ أيضا ـ كمن حصلَ على غنيمةٍ بعودتهِ إلى الحقِّ . واستناداً إلى ما تقدّم يظهرُ لنا الاستعمالُ الفريدُ لمفرداتِ اللغةِ، وكيف استثمرها الإمامُ عليه السلام ، بما يجعلها وسيلةً من وسائله عليه السلام في تربية المجتمعِ على نحوٍ جماليٍّ أخّاذٍ.

## لا تُشرف نفسه على طمع :

أما الصّفةُ الخامسةُ التي ينبغي أنْ يتزيّن بها القاضي ، فهي تتجلّى في قولِ الإمام عليه السلام : ((ولا تُشرفُ نفسُهُ على طمعٍ))[1]. والإمامُ عليه السلام انتقى لفظةَ (تشرف) وهي تعني الاطلاعَ من فوق، ليُظهرَ من خلالها منزلةَ القاضي العاليةَ المُشرفةَ على المنازلِ الأخرى ، فضلاً عمّا تتضمّنه من دلالةِ الشّرفِ والمجدِ التي يستلزمها علوُّ المنزلةِ وسموّها ، ويقابلُ هذه المنزلةَ منزلة (الطمع) ، التي تُعدُّ منقصةً لا يصحُّ أن يقترب منها الإنسانُ المسلمُ، فما بالُك بالقاضي المسلمِ المكلّفِ بالتفريق بين الحقِّ والباطلِ ؟ .

(١) نهج البلاغة ٣/ ٩٤ .

وعودٌ إلى معنى (تشرف) ، وهو تطّلعُ عليه من فوق ، يُظهرُ لنا بمفارقةٍ جميلةٍ البونُ الشاسعُ بين ارتفاعِ مرتبةِ القاضي ، وانحطاطِ مرتبةِ (الطمع) ، وقد ورد عن الإمام علي بن الحسينِ عليه السلام أنّ قطعَ ( الطمع) ضربٌ من ضروبِ الخير في قوله : (( رأيتُ الخيرَ كلّه قد اجتمع في قطعِ الطمعِ عمّا في أيدي الناسِ ))[١]، وورد عن الإمام الباقرِ عليه السلام أنّ ( الطمع) ضربٌ من ضروبِ الذلِّ في قوله : ((بئس العبدُ عبدٌ له طمعٌ يقودُه ، وبئس العبدُ عبدٌ له رغبةٌ تُذلّهُ))[٢].

والإمامُ عليه السلام لم يكشفْ في قولهِ السابقِ عن نوع الطمعِ الذي يمكنُ أنْ تُشرفَ عليه نفسُ القاضي ، ليجعل قولَه محيطا بأنواعِ الطمعِ كلّها ، الكرامةِ والجاهِ والمالِ والحظوةِ ، وكلّ ما يشغلُ نفسَهُ عن أيّ عرضٍ من أعراضِ الدنيا[٣].

وثمّة أمرٌ آخَرُ يُجسّدُهُ الفعلُ ( تشرفُ) أيضـًا ، وهو أنّ هذه الصفةَ قد تقودُ إلى انحرافِ القاضي عن سبيلِ الحقِّ لوقوعه تحت تأثير هواجسِ نفسهِ التي تُمسكُ بها رؤيتُهُ للطمعِ ولو من علوٍّ شاهق . وهو لم يقعْ بعدُ

(١) الكافي ٢/ ٣٢٠ .

(٢) نفسه .

(٣) ينظر : دراسات في نهج البلاغة ٦٣ .

فيما يطمعُ به . والإمامُ عليه السلام يُوصي ويُحذّرُ من خلال التركيز على هذه الصّفةِ . فصار ذكرُ الصّفةِ وسيلةً من وسائل تقويم سلوكِ القضاة .

بقي أمرٌ نرغب في الإشارةِ إليه وهو أنّ ابن أبي الحديد أضاف معنى آخر للإشراف وهو : الإشفاقُ والخوفُ[١] ، وعلى الرغم من أنّنا لم نعثر على هذين المعنيين فيما رجعنا إليه من المعاجم ، فإنّ السّياق قد لا يتناغم معهما ، لأنّ مرتبةَ القاضي مرتبةٌ تتطلّع إليها الرقاب ، وليس فيها ما يدعو إلى الإشفاق أو الخوف ، إلّا إذا كان ذلك من خشيةِ مجانبةِ الحقِّ ، وهذا أمرٌ محمودٌ ومرغوبٌ فيه ، ولكنّ ابن أبي الحديد لم يُرد هذا المعنى، وإنّما أراد المعنى السلبي للإشفاق والخوف .

## التأنّي في الحكم :

يقولُ الإمامُ عليه السلام عن هذه الصّفةِ : ((ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه وأوقفهم في الشّبهاتِ، وآخذهم بالحجج))[٢].

تُعدّ هذه الصّفةُ من الركائز الرئيسة التي يستندُ إليها القاضي قبل أن يحكمَ بين الخصمين ، حتى لا يقع في دائرةِ الكفرِ التي تُحيطُ بمن لا

(١) شرح نهج البلاغة ١٧/ ٥٩ .

(٢) نهج البلاغة ٣/ ٩٤ .

يحكم بما أنزلَ الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[١]، ومن هنا فإنَّ الفهمَ الأوّليَّ الذي يتشكّلُ في ذهنِ القاضي من سماعه حُججِ الخصومِ غير كافٍ ، وإنّما عليه أنْ يبذل جهده من أجلِ الوصولِ إلى أقصى فهمٍ . وهذا هو شأنُ العلماء الذين يتحرّون الدقّةَ والتثبتَ وتقليبَ المسألةِ على ما الوجوه المحتملةِ لها .يقول الشيخ محمد جواد مُغنية عن الأناة التي يُوصي بها الإمام عليه السلام : ((لا يعلن الحكم النهائي إلا بعد التحرَّي و الوقوف على جهات الدّعوى بأكملها ، و البحث عما يتصل بالحادثة حكمًا و موضوعًا . وهذه هي طريقة العلماء الذين يتحرّون الحقيقةَ ، فإنَّهم لا يتنبّؤون بشيء إلا بعد الاستقراء التام ، و الملاحظات الدقيقة والوثوق بما يقولون))[٢] .

أمّا قوله عليه السلام ( وأوقفهم عند الشُّبهةِ )[٣] ، فيعني أنّ على القاضي أنْ يكون أكثرَ الرعيةِ تأنّيا ووقوفًا وتثبّتًا عند المشكلات من الأمور ، حتى يصلَ إلى دليلٍ يبني حكمَهُ عليه ، وهذا هو المراد بالوقوفِ ، فهو وقوفَ أناةٍ وليس وقوفَ تركٍ للحكم فيما يُشكلُ من الشّبهات . وقد أبدى الإمام عليه السلام عجبه من الفرق المتخاصمة بقوله : ((فَيَا عَجَبًا! وَ مَا لِيَ لاَ

(١) المائدة: ٤٤.

(٢) في ظلال نهج البلاغة١/ ١٦١.

(٣) كلمة ( أوقفهم ) هنا تعود على الرعية التي مرّ ذكرها في بداية البحث .

أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اخْتِلاَفِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا ! لاَ يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ، وَلاَ يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ، وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِغَيْب ، وَلاَ يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَ يَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ))[1].

فالعملُ في الشّبهات على وفقِ قول الإمامِ عليه السلام هو من الأخطاء التي يرتكبها من يعملُ ذلك ، ومن هنا صار لزاماً على القاضي أن يُطيلَ الوقوفَ عند الشبهاتِ قبل أنْ يحكم فيما يعرضُ له منها .

ويبقى من هذه الصّفةِ قولُهُ عليه السلام (وآخذهم بالحُججِ) ، وهذا يعني أنّ القاضي يجبُ أنْ يكون أكثَر النّاسِ أخذاً بالحججِ من المتخاصمَينِ ، لأنّه يحكمُ على وفقِ ما يتجمّعُ عنده من أدلّةٍ وحججٍ وبراهينَ ، من دون أنْ يتعجّلَ في ذلك ـ كما قيّدته الصّفةُ السابقةُ ـ . هذا فضلاً عن أنّ الفقهاء ((لديهم قواعد و أصولا شرعية مقررة ، و هي كثيرة بكثرة الموارد ، منها قاعدة درء الحدود بالشبهات))[2].

---

(١) نهج البلاغة ١/ ١٥٦ . ونشيرُ هنا إلى أنّ الشيخ التُستري ربط بين قول الإمام عليه السلام وبين (المتشابهات) الواردة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾**آل عمران٧** . ينظر : بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ١٩/ ١٤٤ .

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٧٧ .

## عدم التبرّم بمراجعة الخصم :

وهذه الصّفةُ وردت في قول الإمام عليه السلام الآتي : (( وأقلّهم تبرّماً بمراجعةِ الخصمِ ))[١].

إنّ وصيّة الإمام عليه السلام هذه تستدعي أنْ يكون القاضيُ صبوراً على الاستماع لحجج الخصوم ومراجعتهم فيما يقولونَ ليأخذَ مما يسمعهُ وسائلَ الوقوف على حقيقةِ الأمرِ الذي بين يديه ، ولا يبرم ، والبرمُ : السأمُ والمللُ والضجُر[٢] . وما منْ شكٍّ أنّ كثرةَ الاستماع إلى ما يقولهُ الخصومُ تبعثُ في النفسِ شُمأزيزةً وقَرَفاً وضِيقاً ، وقد يخضعُ القاضي لهذه المؤثّراتِ فيبرم بما يسمعُ ، وهنا قد يتسرّبُ الوهنُ إلى قدرته على انتقاءِ الحكمِ المناسب لهذه القضيةِ أو تلك . فيخرج عن طريقِ الحقِّ الذي يُريدهُ الله تعالى ، ويقعُ عقلُه أسيرا لهواه . فلا يُنصف المظلومُ من الظالمِ ، وهنا يكون واحداً من القاضيين اللذين يكونا في النارِ في قولِ الإمامِ عليه السلام : (( القضاةُ ثلاثةٌ واحدٌ في الجنّةِ و اثنان في النار : رجل جار متعمّدا فذلك في النار ، و رجل أخطأ في القضاءِ فذلك في النّارِ، و رجل عمل بالحقّ فذلك في الجنّة))[٣] .

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ٩٤ . وأقلّهم يعني : أقلّ الرعيّة .

(٢) ينظر : لسان العرب ( برم) .

(٣) دعائم الاسلام ٢/ ٥٣١ .

## الصبر على تكشّف الأمور :

قال الإمام عليه السلام عن هذه الصفة: (( وأصبرهم على تكشّف الأمور)). والصبرُ محمودٌ لذاته كما هو معلومٌ عند المسلمين ، ولكنّ الإمام عليه السلام خصّ من يُكلّف بالقضاء بهذه الصّفةِ ، فكأنّ الصبرَ بوجهِهِ العامِ ممّا يتحلّى به القاضي في الأصل ، فتكونُ هذه الصّفةُ صفّةً إضافيّةً لصبرِهِ ، لأنّ الأمورَ التي تُعرضُ أمامه لا يتكشّف وجهها الحقيقي جملةً واحدةً في الغالب ، وإنّما قد يتكشّفُ رويداً رويداً ، بعد أخذٍ وردٍّ ومماحكاتٍ ، ثمّ تقليب ذلك كلّه على الوجوه كلّها ، وهذا يستدعي صبراً وأناةً ورويّةً وتمهّلاً بغية تخليص الحقِّ من الباطل ، ومن هنا تظهرُ لنا أهميةُ الصبرِ المأمورِ به ليكون صفةً ملازمةً لمن يكونُ قاضيا.

وفي هذا المضمونِ نفسِهِ حذّر الإمامُ عليه السلام من تسربِّ الملل إلى نفسِ القاضي ، لأنّ في هذا مُجافاةٌ للصبر، يقول عليه السلام في وصيّةٍ له إلى قاضيه على الأهوازِ : (( وإياك والملالة فإنّها من السُّخفِ والنذالةِ ))[1]. فقلةُ الصبرِ تأتي من رقّةِ العقلِ أو ضعفه ، وهذا لا يُناسبُ مقام الفصلِ بين الناسِ .

(١) دعائم الإسلام :٢/ ٥٣٤ .

**الصرامة عند اتّضاح الحكم** :

أشار الإمامُ عليه السلام إلى هذه الصّفةِ بقوله : (( وأصرمهم عند اتّضاح الحكم ))[١] .

تأتي هذه الصّفةُ بعد أنْ يتبيّن للقاضي كلّ ما يتعلّق بالقضيةِ المبسوطةِ أمامه ، أي بعد أنْ يعزمُ على الحكمِ فيها ، ولا بأس أنْ نقف على المعاني التي يقدّمها لنا الجذر (صرم) لنقف على دلالة ما يريدُهُ الإمامُ عليه السلام بهذه الصّفةِ . جاء في لسان العرب[٢]:

١ـ رجلٌ صارمٌ : ماضٍ في كلّ أمرٍ .

٢ـ رجلٌ صارمٌ : جلْدٌ ماضٍ شُجاعٌ .

٣ـ الصريمةُ : العزيمةُ على الشيءِ وقطعُ الأمرِ.

٤ـ الصَّريمةُ : إحْكامُك أَمْراً وعَزْمُكَ عليه.

٥ـ الصَّرامَةُ : المُسْتَبِدُّ برأْيه المُنْقَطِعُ عن المُشاورة .

٦ـ الصريمُ : الصبحُ لانقطاعه عن الليلِ .

ومن مزاوجةِ هذه المعاني ببعضها، تتّضحُ لنا هذه الصّفةُ على النحو الآتي:

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ٩٤ .

(٢) يُنظر : لسان العرب (صرم) .

يجبُ أنْ يكونَ القاضيُ ماضيـًا في كلِّ أمرٍ يُعرضُ أمامه ، جلداً شُجاعـًا ، مستبدّا برأيه (بحكمه) ، منقطعـًا عن مشاورةِ غيرهِ ، لأنّه تثبّتَ من الأمرِ الذي أمامه ، حتى بان له كالصبحِ الذي انقطع عن الليلِ ، واستناداً إلى هذا يأتي حكمُهُ قاطعـًا لا تردّدَ فيه ، لأنّ التردّدَ في هذا الموطنِ يُضعفُ قوةَ الحقِّ التي يُريدها القاضي لحكمه .

لقد أعطتنا مفردةُ (الصّرامةِ) في هذه الصّفةِ أُفُقـًا معرفيّـًا ثرّاً ظهر في المعاني الستّةِ التي أمدّنا بها الاستعمالُ الاجتماعيُّ لها ، وهذه المعاني أسبغتْ في الوقتِ نفسه على اللفظةِ حيويّةً وحركيّةً جعلتنا نتنقّلُ خلف المعاني التي تؤدّيها من دون أنْ يشكّل ذلك عبئـًا علينا ، وإنّما منحنا متعةً فنيّةً اقترنتْ بالمتعةِ المعرفيّةِ التي نحنُ بصددها من هذه الصّفةِ التي وضعها الإمامُ عليه السلام للقاضي بين الناسِ .

بقي أنْ نشيرَ إلى أمرِ تسرّبَ من المعنى الخامس (المستبدّ برأيه المنقطعُ عن المشاورة) ،وهو أنَّ هذا المعنى قد يحملُ في ظاهره صفةً غير مرغوبٍ فيها ( الانقطاع عن مشاورة الغير) ، وهنا نقول : إنّ الحديثَ عن هذه الصّفةِ لا يأتي منقطعـًا عن غيرها من الصفاتِ ، وإنّما تكتملُ كلّها بإمساكِ بعضها ببعضٍ ، فيكون استبدادُ القاضي برأيه مُغنيـًا عن آراء الآخرين بعد أنْ جمع الصفاتِ التي قدّمها الجذر (صرم) ، ومن هنا يكونُ

الاستبدادُ عدلاً في هذه الجزئيّةِ ، ولو أراد القاضي أنْ يُشاورَ غيره لما انتهى إلى حكمٍ بالقضيّة لأنَّ غيره في الغالبِ لا يمتلكُ من الصفاتِ ما يمتلكهُ هو .

وهذا الذي قدّمناهُ بشأنِ دلالةِ هذه المعاني ، يكون حاضراً عند القاضي ، بعد أنْ يتضحَ له الحكمُ في القضيّةِ ، وهنا تكونُ الصرامةُ بالمعاني كلّها هي المستندُ الذي يشدُّ أزر القاضي وهو يحكم بما اتّضح له.

## عدم التأثّر بالإطراءُ أو الإغراء:

وردتْ هذه الصّفةِ في قولِ الإمامِ عليه السلام : (( لا يزدهيه إطراءٌ ولا يستميلهُ إغراء ))[١].

نعودُ هنا إلى المعجمِ للوقوفِ على معاني الصّفةِ (لا يزدهيه إغراء) ، ونأخذ أوّلا معاني ( يزدهيه) ، فيعطينا جذرها ( زها) المعاني الآتيةَ[٢]:

١ـ الزَّهْوُ : الكِبْرُ والتِّيهُ والفَخْرُ والعَظَمَةُ .

٢ـ الزَّهْو : الظُّلْمُ .

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ٩٤ .

(٢) ينظر : لسان العرب (زها) .

٣ـ الزَّهْو: الاسْتِخْفافُ . وزَها فلانـًا كلامُك زَهْواً وازْدهاه فازْدَهَى اسْتَخَفَّه فخفّ. ومنه قولُهم فلان لا يُزْدَهَى بخَديعَة ، وازْدَهَيْت فلانـًا أَي تَهاوَنْت به ، وازْدَهَى فلان فلانـًا إذا اسْتَخَفَّه ، ورجلٌ مُزْدَهٍ : أَخَذَتْه خِفَّةٌ من الزَّهْوِ أَو غيره . وازْدَهاهُ على الأَمْرِ أَجْبَرَه

٤ـ زَها السَّرابُ الشيءَ يَزْهاهُ رَفَعَه ، والسّرابُ يَزْهى القُور والحُمُول كأَنه يَرْفَعُها .

٥ـ وزَهَت الريحُ النباتَ تَزْهاهُ : هَزَّتْه غِبَّ النَّدَى ، وزَهَتْه : ساقَتْه ، والريحُ تَزْهَى النباتَ إذا هَزَّتْه بعد غِبِّ المَطَر .

أما معنى (الإطراء) ، فنقفُ على المعاني الآتية تحت الجذر (طرا) في لسان العرب[١] :

١ـ وأَطْرَى الرجلَ : أَحسَن الثناء عليه .

٢ـ أَطْرَى فلان فُلانـًا : إذا مَدَحَه بما ليس فيه .

٣ـ وأَطْرَى : إذا زاد في الثناء ، والإطراءُ مُجاوَزَةُ الحَدِّ في المَدْحِ والكَذِبُ فيه .

ومن موالفةِ معاني الجذرين المذكورين تظهرُ لنا صورةُ الصّفةِ التي أراد الإمام عليه السلام بيانها وهي على النحو الآتي :

---

(١) يُنظر : م . ن (طرا) .

إنّ حسنَ الثناءِ أو مجاوزةَ الحدِّ في المديح أو الكذب فيه ، لا يصحّ أنْ تؤثّرَ هذه الأقوالُ الثلاثةُ في من يتوخّى الحقَّ ، ولا يمكن أنْ يقع تحت تأثيرها ، فالمعنى الأوّلَ وإنْ كان صحيحاً ، فلا يُخرج القاضي عن توازنه واعتدالهِ . أما المعنيان الثاني والثالثُ ، فهما مما لا يُرتضى لما فيهما من الكذب ، حتى وإنْ كانا في سبيل المبالغةِ والغلوّ التي يقبلها اللسان العربي في غير هذا الموضع . فإذا قُدّر للقاضي أنْ يُحسنَ الثناءَ عليه أحدٌ ، أو يمدحهُ بما ليس فيه كَذِباً ، فعليه أنْ يتماسكَ ولا يزدهيه ذلك ، ومن زحزحة معاني ( زها) إلى هذا الموضع وموالفتها مع ما قلناهُ ، نقول : إنّ على القاضي أنْ لا يأخذهُ الكِبْرُ والتِّيهُ والفَخْرُ والعَظَمَةُ بما يسمعُ من الإطراء ، ولا يستخفّه ذلك ، فيرفعه فيبدو كالأشياء التي يرفعها السرابُ وما هو برافعها بحقٍّ ، والسَّراب في اللغة : الذي يجري على وجه الأرض، يرفعُ الأشياء ويزهاها[١].

بيد أنّ ثمّةَ معنى من المعاني السابقةِ أرجأنا الإشارةَ إليه ، وهو معنى (الظلم) ، وهذا من أكثرِ المعاني التصاقاً بعملِ القضاةِ ، فإذا استخفّ الإطراءُ القاضيَ انحرف إلى مواطنِ الزللِ عن سبيلِ الحقِّ ووقع في دائرةِ الظلمِ التي ترتبطُ بغضبِ الله تعالى .

---

(١) ينظر : نهج البلاغة (سرب) .

لقد انتقى الإمامُ عليه السلام اللفظتينِ السَّابقتينِ ليُعطينا هذا الحشدَ من المعاني الفرعيةِ التي تجتمعُ مع بعضها لتبرّز الصّفةِ التي أرادها بنمطٍ من التعبيرِ الأخّاذ .

أما قوله عليه السلام ( ولا يستميلُهُ إغراء) فهو مرتبطٌ بما أظهرناه فيما مرّ من كلامنا قبل قليل ، إذْ إنّ المعاني السابقةِ من (ازدهاء الإطراء للقاضي) قد تستميلُهُ إلى جهتها ، وتلتصقُ به بفعلِ الكلام المؤثّر الذي نُظِمتْ فيه ، والإغراءُ هنا مأخوذٌ من قولهم : (( غَرِيَ هذا الحديث في صَدْري ... يَغْرى ... كأَنه أُلْصِقَ بالغِراءِ وغَرِيَ بالشيء يَغْرى غَراً وغَراءً أُولِعَ به))[1]، ومن هنا فإنّ تلك المعاني المشارَ إليها ،لا يخضعُ لها القاضي ، ولا تستميلهُ ، بل تزيده تمسّكا وثباتا

## وصايا الإمام عليه السلام للقضاة :

كان من شأنِ الإمام عليه السلام أنْ يكتب لمن يُرسله قاضياً كتاباً ، يحمّله جملةً من الوصايا التي يحتاجها الإنسانُ المسلم عامةً والقاضي خاصّةً لارتباطها بعمله الذي يتصدّى فيه للفصلِ بين المتخاصمين . وهذه الوصايا تتحوّلُ إلى صفاتٍ يتزيّن بها القاضي أثناء عمله ، فالصفاتُ الأولى التي مرَّ

(١) لسان العرب ( غرا) .

ذكرُها تكون ركيزةً لاختيار القاضي أوّل مرّةٍ ، وهذه الوصايا ستصبحُ صفاتٍ بعد أنْ يُروّضَ القاضي نفسه عليها . وأغلبُ هذه الوصايا جاءتْ في كتابٍ أرسله الإمام عليه السلام إلى (رفاعة) لما استقضاه على (الأهواز) ومنها :

## ترك الطمع :

نهى الإمامُ عليه السلام عن هذه الصفةِ في وصيتهِ لقاضيه المذكورِ ، بقوله : (( ذر المطامع ))[١] . والطمعُ من الصفات التي كان الإمامُ عليه السلام يُحذّرُ منها أصحابَه لما لها من تأثيرٍ على خضوعِ الإنسانِ المسلمِ لهوى النفسِ ، فما بالُك بالقاضي الذي يتبوأُ مقعداً يفصل فيه بين الحقِّ والباطلِ !؟ ، إذْ لا يمكنُ أنْ يتحقّقَ العدلُ على يديه إذا كان للطمع مكانٌ في نفسه .

وقد بيّن الإمامُ عليه السلام صورة الطمعِ في قولٍ آخرَ له ، حينما وصفه بقوله : (( شعبُ الطَّمع أربع: الفرحُ، والمرحُ، واللجاجةُ، والتكاثرُ، فالفرحُ مكروهٌ عند الله عزَّ وجلَّ، والمرحُ خيلاء، واللجاجةُ بلاء لمن اضطرته إلى حبائل الآثام، والتكاثرُ لهوٌ وشغلٌ واستبدالُ الذي هو أدنى بالذي هو خير ))[٢].

---

(١) دعائم الإسلام ٢/ ٥٣٤ .

(٢) كتاب سليم بن قيس ٤٧٣ .

ولعلّ أوّلَ ما ينبغي الإشارةُ إليه هو أنَّ الإمام عليه السلام يريد بالمطامع هذه المعاني الأربعة التي يجبُ أنْ يتجنبها الإنسان المسلمُ عامةً والقاضي خاصّةً ، وقد بيّن سبب ترك الطمع فيها ، فالفرحُ مكروهٌ عند الله تعالى ، لأنّه غالبـًا ما يكون مرتبطـًا بشؤون الدنيا . جاء في لسان العرب عن معنى الفرح ما يأتي :

الفرحُ: هو انشراحُ الصدرِ بلذّةٍ عاجلةٍ ، وذلك في اللّذات الدنيويّة[١]، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٢]، ومن هنا أيضـًا تأتي الكراهةُ التي أشار إليها الإمامُ عليه السلام . أما بقيّةُ المعاني التي خصّ الإمامُ عليه السلام ارتباطها بالطمع ، فهي كالفرح المشار إليه مما يشغل المسلم بشؤون الدنيا ويُبعدهُ عن التفكرِ بالآخرةِ ، وهي الخيلاءُ واللجاجةُ واستبدال الدنيا بالآخرة[٣]، فهي أيضا مما يقدحُ بسيرةِ القاضي ، ويُخرجهُ

(١) ينظر : تاج العروس ( فرح) .

(٢) القصص: ٧٦ .

(٣) في هذا إشارة إلى قوله تعالى مخاطبـًا بني إسرائيل : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ **البقرة**: ٦١ .

عمّا مطلوبٌ منه التحلّي به على وفقِ هذا الجزءِ من وصيّةِ الإمام للقضاةِ عليه السلام .

بقي أنْ نشيرَ إلى أنّ التكاثَر الذي أشار إليه الإمامُ عليه السلام والّذي يشكّلُ ركنا رئيسـًا من أركان الطمع ، غالبـًا ما يتجسّدُ في جمعِ الأموال ، ولكي يُميتُ الإمامُ عليه السلام هذه الصفةَ في نفوسِ القضاةِ ، أمر الولاةَ بالإفساح لهم في العطاء ، كما أمر الأشتر النخعي واليه على مصر بذلك بقوله : (( وافسحْ له في البذلِ ما يزيلُ عِلّته ))[1] ، ليموت أو ينقطعَ داعي الطمعِ من نفسهِ ، فيجلس للقضاء بين الناسِ ، وهو حاضرُ الذهنِ ، ليس في ذهنه شيء يفكّرُ به من شأنِ الثروة والمال، وإنّما يكونُ تفكيرهُ منقطعـًا إلى ما بين يديه من حججِ المتخاصمين.

واستناداً إلى ما تقدّم ، فهذا الضربُ من الطمعِ منهيٌّ عنه ، ولا يصحّ من القضاةِ خاصّةً أولاً ولا من غيرهم عامّةً[2].

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ٩٥ .

(٢) ثمة ضربٌ ممدوح من الطمع ، وهو الطمع في رضا الله تعالى، والطمع في دخول الجنّةِ وغيره. ينظر تفصيل ذلك في : ميزان الحكمة ٢/ ٢٤٢٢ ،

## مخالفة الهوى :

وهذه الوصيةُ هي قوله عليه السلام (( وخالف الهوى))[١] . ومخالفةُ الهوى ركيزةٌ رئيسةٌ من ركائزِ قوامِ الدينِ للمسلمين عامةً ، يقولُ الإمامُ عليه السلام في موطنٍ آخرَ عن هذه الصّفةِ: ((نظامُ الدينِ مخالفةُ الهوى))[٢] . والمسلمُ الثابتُ على دينه يتمسّكُ بمخالفةِ هواهُ لأنّ ذلك كفيلٌ بسيره على منهجِ الحقّ ، فإنْ أطاع هواهُ قادهُ إلى مواطنِ الزللِ . أما القاضي فيتحتّمُ عليه مخالفةُ هواه مرتين ، مرةً بوصفهِ واحداً من المسلمين ليكون من الثابتين على دينهم ، ومرةً لأنّه يقضي بين الناس، وقد يكون هواهُ إلى أحد المتخاصمينَ ، وهنا قد يجورُ في حكمه بسببِ اتّباعِ هواه . ونرجّح هنا أنّ مرادَ الإمامِ عليه السلام من وصيّته للقضاةِ بمخالفةِ الهوى يتجسّدُ في هذا الوجه تماما ، ولعلّ في حادثةِ تأنيبه لشريح القاضي عندما لم يساوِ بينه وبين خصمه اليهودي في قضيةِ الدرعِ خير شاهدٍ على ما نرجّحه هنا ، لأنّ شريحاً كان هواه مع الإمام عليه السلام ، فلم يرض منه الإمام ميله إليه ، وعدّ ذلك مثلبةً في قضائه . لأنّ اتّباعَ الهوى يصدُّ عن الحقِّ كما يقولُ عليه السلام في موطنٍ آخرِ[٣].

---

(١) دعائم الإسلام ٢/ ٥٣٤ .

(٢) مستدرك الوسائل ١٢/ ١١٦ .

(٣) شرح نهج البلاغة ١٦/ ٢٩٦ .

## تزيين العلم بالسّمتِ الصالح:

جاءتْ هذه الوصيةُ في قوله عليه السلام : ((وزيّن العلمَ بسَمْتٍ صالحٍ))[١].

إنّ نظرةً أولى على هذا القولِ تُظهرُ لنا أنّ القاضي يمتلكُ علماً كافياً ليفصلَ بوساطته بين المتخاصمين ، لذا كانتْ الوصيّةُ منصبّةً على تزيين العلم الموجود عند القاضي بالسمتِ الصالح ، فما المراد بالسَّمتِ هنا ؟ . نعود إلى المعجم العربي للاستعانةِ بما يُقدّمهُ لنا من معانٍ تتوافقُ مع السياق تحت الجذرِ (سمت )[٢] ومن تلك المعاني ما يأتي :

١ـ السمتُ : السَّمْتُ حُسْنُ النَّحْو في مَذْهَبِ الدِّينِ .

٢ـ السمتُ : يقالُ : إنه لحَسَنُ السَّمْت أَي حَسَنُ القَصْدِ والمَذْهَب في دينه ودنْياه.

٣ـ السَّمْتُ : اتِّباعُ الحَقِّ والهَدْيِ وحُسْنُ الجِوارِ وقِلةُ الأَذِيَّةِ .

٤ـ التَّسْمِيتُ : ذِكْرُ الله على الشيءِ وقيل التَسْمِيتُ ذكر الله عز وجل على كل حال .

٥ـ السَّمْتُ : السَّيْرُ على الطَّريق بالظَّنّ وقيل هو السَّيْرُ بالحَدْس والظن على غير طريق.

---

(١) دعائم الإسلام ٢/ ٥٣٤ .

(٢) ينظر : لسان العرب ( سمت) .

يُظهرُ لنا النظرُ في هذه المعاني أنّ القاضيَ حسنُ القصدِ في دينه وما يذهبُ إليه في شؤونِه وفي شؤونِ دنياه ، وهذا ما يجعله متّبعاَ للحقِّ . وهذه الصفات تجعلُ العدلَ غرضـاً يسعى إلى تحقيقه قبل أنْ يكون قاضيـاً ، فإذا كان قاضيـاً تمسّك بهذه الصفاتِ بقوةِ المحبِّ لها .

ولا بأس من الإشارةِ إلى أنّ معنى ( حسن الجوار وقلّةَ الأذيّةِ ) الوارد في [٣] ، يُعطينا صفةً اجتماعيّةً يريدها الإنسان المسلمُ لنفسه ، لأنّها تُظهرُ امتزاجه بمجتمعه وائتلافهُ معه فيحصلُ على رضا الله تعالى الذي أوصى بحسن الجوار وكفّ الأذى[١] ، وهذه الصّفةُ تتجلّى فيها الروحُ السمحةُ التي يُريدها الإسلامُ للمسلمِ ، ويتجلّى فيها وجهٌ اجتماعيٌّ مرغوبٌ فيه يحتّمهُ العقلُ . وهاتان الصفتان سيكون عمل القاضي ميدانـاً آخرَ لتجسيدهما ، فقد يحكمُ القاضي بمعاقبةِ أحد المتخاصمين ، وبوجود هاتين الصفتين ستكون رأفةُ القاضي حاضرةً في هذا الموطن ، لأنّ العقوبة فُرضتْ للإصلاحِ .

---

(١) جاء في الحديث الشريف عن المؤمن : (( .... وعزّهُ كفّ الأذى عن الناس )) ، ينظر : الخصال ١/ ٧ . وجاء في حديثٍ أخرَ عن حسن الجوار : (( ليس من المؤمنين من لم يأمنُ جارهُ بوائقهُ )) . ينظر : الكافي ١/ ٩ ، والأحاديث كثيرة في هاتين الصفتين.

ويبقى من معاني (السَّمت) المعنى الرابعُ وهو ( السير على الطريق بالظنِّ ) ، وهذه الخصلةُ تُعين القاضي على كشفِ وجهِ الحقِّ فيما يُعرض أمامه ، فكَأَنَّهُ مبصرٌ لما غَابَ عَنهُ ، فيعلم بتقديره وظنّه وحدسه حَتَّى كَأَنَّهُ يرى بعينيه ما بعد عنْهُ ، أو خفي عليه ، وهذه الصفةُ تتسقُ تماما مع المقوّمات التي يستندُ إليها القاضي في عمله . وتهيّء له فرصةَ وضع يده على الحكم الذي يُناسبُ القضيّة التي ينظرُ فيها باحثا عن الحقّ .

لقد تبيّن لنا بحقّ دقّة مفردةِ ( السَّمت ) التي انتقاها الإمامُ عليه السلام ، إذ امتزجتْ دلالتُها الاجتماعيةُ مع صفةِ العلمِ التي يتزيّنُ بها القاضي قبل أنْ يُصبحَ قاضيا ، لتتكوّن بذلك شخصيّتُه التي ستنهضُ بمهمّةِ القضاءِ بين الناسِ . واستناداً إلى هذا ندرك الآن لماذا عُدّ ( السمتُ الصالحُ ) جزءا من خمسة وعشرين جزءاً من النبوّةِ [١] .

## عدم المشاورة في الحكم :

وهذه الوصيّةُ جاءتْ في قوله عليه السلام : (( ... ولا تُشاورُ في الفُتيا ، فإنّما المشورةُ في الحربِ ومصالحِ العاجلِ ، والدينُ ليس هو بالرأيِّ ، إنّما هو الاتّباع))[٢].

(١) ينظر : مجمع البحرين ٢/ ٤١٣ .

(٢) دعائم الإسلام ٥/ ٣٧ .

أوصى الإمامُ هنا قاضيهِ بعدم التشاور مع غيره فيما يتّصل بالأحكامِ التي يفصلُ بها بين المتخاصمين ، حتى لا يستند إلى ما جاء في الشريعةِ من تأكيدٍ على التشاورِ والمشورةِ ، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١] ، وكما استشار رسولُ الله ﷺ أصحابه في وقعة بدر الكبرى ، وفي شأن الأسرى يومئذٍ[٢]، وما جاء من ذكرٍ للمشورةِ هنا يخصُّ ضروباً من شؤونِ الحياةِ ، ذكر منها الإمامُ عليه السلام المشورةَ في الحربِ ، ومصالحَ المسلمين العاجلةَ التي لا تمسُّ ثوابتَ الشريعةِ ، فالدين ليس رأياً يقوله المشاوِرُ ، إنّما هو اتّباعٌ لما جاء في القرآن الكريم من أحكامٍ ، وكذلك ما جاء من سيرة النبي ﷺ التي حفظها أهلُ البيتِ عليهم السلام . وما من شيءٍ إلا وله وجود في الكتاب والسُّنّةِ . يقول الإمامُ جعفرُ بنُ محمّد الصادق عليه السلام حينما سُئل عمّا يقضي به القاضي : (( قال : بالكتاب، قيل: فما لم يكن في الكتاب ؟ قال : بالسُّنة ؟ ، قيل : فما لم يكن في الكتاب ولا في السُّنةِ ؟ ، قال: ليس شيءٌ من دينِ اللهِ إلا وهو في الكتاب والسُّنة ، قد أكمل الله الدين ، قال الله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ الآية . ثم قال عليه السلام : يوفّقُ اللهُ ويسدّدُ لذلك من يشاءُ من خلقه وليس كما تظنون))[٣]

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) ينظر : إمتاع الأسماع ١/ ٩٧ .

(٣) دعائم الإسلام ٢/ ٥٣٥ .

واستنادا إلى هذا فلا مسوّغ للمشاورة في أحكامِ الله تعالى ، وإنّما قد تصحُّ المشاورةُ مع أهلِ العقلِ والتجربةِ ، من دون أنْ يكون المشاوِرُ خاضعـًا في حكمه إلى آرائهم ، يقول الشيخ الطوسي : (( فإنْ اشتبه عليه بعضُ الأحكامِ ذاكرَ أهلَ العلمِ لينبّهوهُ على دليله، فإذا علم صحته حكم به وإلّا فلا ))[1] . وهذا وإنْ حصل فيحصل في بعضِ الأحوالِ ، لأنّ القاضي يجب أنْ يكون عالمـًا بما وليّه كما ظهر لنا ذلك في الصفاتِ السابقةِ .

لقد جعل الإمامُ عليه السلام هذه الوصايا سبيلاً خطّه للقضاةِ ليسيروا عليه ، وستكون المحطّاتُ المشارُ إليها صفاتٍ إضافيّةً للقاضي ، إذْ أنّ التمسّكُ بها سيجعلُها من مكوّناتِ شخصيّةِ القاضي ، وعندها سيتمثّلها الناسُ ليتحلَّوا بها ، لأنّ مرتبةَ القاضي محلّ نظرٍ ومراقبةٍ منهم ، بوصفها المرتبةَ التي يحمي صاحبُها حدودَ الشريعةِ ومعالمِ الدينِ .

## الاهتمام بأحوال القضاة والنظر في عملهم:

إنَّ المهمّةَ الكبيرةَ التي ينهضُ بها القاضي في إقامةِ العدلِ تحتّمُ أن يتهيأ له من مطالب الدنيا الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ ما يُبعدهُ عن النظرِ إلى

(١) المبسوط ٨/ ٩٦ .

ما في أيدي الناس ، ومن هنا جاء اهتمامُ الإمامُ عليه السلام بأحوال القضاةِ وأوصى عامله على مصر بمراقبةِ هذا الأمرِ ، ليكون ما يوصي به عوناً لهم على حبسِ أنفسهم عن شؤون الدنيا من أجلِ العدل الذي كُلّفوا بإقامته وحمايته . ومن مظاهر اهتمام الإمامِ عليه السلام ووصاياه بهذه القضيّةِ ما نُجملُ القولَ فيه فيما يأتي :

الأمر الأول الذي أشار إليه الإمامُ عليه السلام هو منعه أنْ يكونَ رزقُ القاضي على الناسِ الذين يقضي بينهم ، وإنّما جعل عطاءه من بيت المالِ حتى لا يخضع لتأثير أصحابِ المالِ ، يقولُ عليه السلام : (( لا بدّ من قاضٍ ومن رزقٍ للقاضي ))[1]. وهذه الوصيّةُ تُلجمُ من يريد أنْ يقولَ أنَّ عملَ القاضي منحصرٌ بين متخاصمَين ، ولا يخصُّ المسلمين كلّهم في الظاهرِ حتى يكون عطاءهُ من بيتِ المالِ ، لأنَّ عملَ القاضي إقامةٌ للعدلِ الذي يريدهُ اللهُ تعالى لعبادهِ ، ومن هنا صار هذا العملُ يخصُّ المسلمين كلّهم .

ويلتفتُ الإمامُ عليه السلام إلى قضيّةٍ أخرى تخصّ عطاءَ القضاةِ وأرزاقهم، فيقول يوصي عامله بذلك: (( وافسحْ له في البذلِ ما يزيلُ علّتَهُ، وتقلُّ معه حاجتُه إلى الناسِ))[2].

---

(١) دعائم الإسلام ٢/ ٥٣٨ .

(٢) نهج البلاغة ٣/ ٩٥ .

يوجّهُ الإمامُ عليه السلام عامله إلى أهميةِ البذلِ للقاضي والتوسعةِ عليه في العطاءِ ، حتى يكون عطاؤهُ كافياً لمعيشته من دون أن يحتاجَ إلى شيءٍ قد يخلُّ بحفظِ منزلتهِ التي هو فيها، فيشغل نفسه بالبحثِ عمّا يسدُّ حاجاته . والملاحظُ أنَّ الإمامَ عليه السلام ، قال ( ما يُزيل علّته ) ليظهرَ هولَ الانشغال بأمور أخرى غير القضاء ، فالعلةُ في اللغة تعني ما يأتي :

١ـ العلّةُ: الحَدَث يَشْغَل صاحبَه عن حاجته ، كأَنَّ تلك العِلَّة صارت شُغْلاً ثانياً مَنَعَه عن شُغْله الأَول.

٢ـ العلّةُ : المرض .

وعلى وفقِ هذه المعاني ، تكونُ زيادةُ العطاءِ للقاضي ، عوناً له على عدمِ الانشغالِ بأيّ أمرٍ سوى ما هو فيهِ من القضاءِ بين الناسِ ، لأنّ انشغالهُ بتدبيرِ شؤونِ حياتهِ يكون شُغلاً شاغلاً له يمنعهُ من شغله الأوّل وهو القضاء ، وقد يصلُ إلى حدِّ المرضِ ، فيكون علّةً له . وبهذا يخلقُ لنا المعنى اللغويُّ لـ(العلّة) فضاءً دلاليّاً أراد الإمامُ عليه السلام من خلاله أنْ يبعدَ القاضي عن كلّ ما من شأنه التأثير على قدرته على الفصلِ بين الحقّ والباطلِ .

وإذا تحقّقَ هذا الذي أوصى به الإمامُ عليه السلام ، يتحقّق الجزء الثاني من قوله عليه السلام ، وهو قلّةُ حاجةِ القاضي إلى الناسِ ، مما يُبعدهُ عن الخضوعِ

لتأثيرِ الحاجةِ المشارِ إليها ، فلا يعبأ بعد هذا بما يمكن أن يميلَ بهِ عن سبيلِ الحقِّ الذي ينشده .

ويُضيفُ الإمامُ عليه السلام أمراً آخرَ يُمتّنُ به منزلةَ القاضي بقوله : ((وأعطهِ من المنزلةِ لديك ما لا يطمعُ فيه غيرهُ من خاصّتك))[١] .

يُذكّرُ الإمامُ عليه السلام من خلالِ هذا القولِ بقضيّةٍ اجتماعيّةٍ لها قدرٌ من الاعتبارِ في ذلك العصرِ ، وهي القربُ من ذوي السلطانِ ، ويُوصي بوجوبِ إعطاءِ القاضي منزلة يتفرّدُ بها ، لا تُدانيها منزلةٌ لأيٍّ من خاصةِ الوالي ، ليأمن على نفسه من وشايةِ الخاصّةِ به ، ويكون مهاباً منهم ، وعندها تهابُهُ العامةُ فلا يجرؤ أحدٌ عليه ، خشيةً من سلطةِ الوالي الذي خصّه بهذه المنزلةِ .

ولا بأس من الإشارة إلى أنّ الإمامَ عليه السلام ، أراد أنْ يُبشّعَ صورةَ الوشاةِ الذين قد تحملُهم الخشيةُ على قربهم من السلطانِ، على تقبيحِ صورةِ القاضي عنده ، فعبّر عن فعلهم هذا بالاغتيالِ (ليأمن بذلك اغتيال الرجالِ له عندك) ، فما الذي تؤدّيهُ لفظةُ (الاغتيال) ؟ . إنّ العودةَ إلى جذرِ اللفظةِ في المعجمِ يضعُ أمامنا المعاني الآتية[٢] :

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ٩٥.

(٢) ينظر : لسان العرب ( غول) .

١ـ غالهُ الشيءُ غولاً واغتاله : أهلكه وأخذهُ من حيثُ لم يدرِ .

٢ـ غاله يغوله : إذا اغتاله ، وكلُّ ما أهلك الإنسانُ فهو غول .

٣ـ الغولُ : كلُّ شيءٍ ذهب بالعقلِ .

٤ـ أتى غولاً غائلةً : أي أمراً منكراً داهيـًا .

٥ـ التغوّلُ : التلوّنُ .

إنَّ هذه الحمولةَ من المعاني التي أعطانا إيّاها الجذر(غول) ، تُظهر بشاعةَ ما يمكن أنْ يقومَ به خاصّة السلطانِ إذا ما أرادوا تبشيعَ صورةِ القاضي ، فهم يمكنُ أنْ يهلكوهُ دون أنْ يدري بما يفعلون على وفقِ المعاني رقم[١] و[٢] ، والإهلاك هنا يعني فقدان القاضي للمرتبة التي يتبوأُ عليها ، وهذا الفقدانُ يكونُ بمنزلةِ الداهيةِ التي تُهلكهُ على وفقِ المعنى رقم[٤] .

ويبقى من المعاني السابقةِ المعنى رقم [٣] ، الذي يشيرُ إلى ذهابِ العقلِ ، وذهابُ العقلِ هنا قد يومئ إلى أنّ تغوّلَ الخاصّةِ على القاضي قد يدفعهُ إلى فقدان عقله مجازاً ، لأنّه سيلجأ إلى مدافعةِ هؤلاء ، وهذا ما سيُجبرهُ على الخروجِ عن السّمتِ الصالحِ الذي مرّ ذكرهُ وهو يحاولُ ردَّ كيدَ الخصوم ، وبهذا يتحقّقُ اغتياله .

ومن هنا تظهرُ لنا الحمولةُ الضخمةُ من المعاني التي أراد الإمامُ عليه السلام إبرازها ، وهي معانٍ تتناغم مع السياق تماماً ، وتؤدّي ما لا تؤدّيه عباراتٌ طويلةٌ عند غير الإمامِ عليه السلام ، على وفقِ الرؤيةِ التأويليّةِ التي نظرنا من خلالها إلى النّصِّ .

واستناداً إلى ما تقدّم وعندما تجتمعُ للقاضي دكّةُ القضاءِ مع القرب المشارِ إليه من صاحب السلطان ، يكون قد تحقّقَ له من المنزلةِ ما لا تكون لأحدٍ غيره ، وبذا تستقرُّ نفسُهُ ، ولا يبحثُ عن أيِّ أمرٍ آخرَ فيشغله عن التدبّر في خصوماتِ الناسِ ، ولعلّ ما تتحقّقَ له من منزلةٍ يُغريهِ ببذلِ كلّ مجهودهِ من أجلِ أنْ لا يشوب عملَه ما يكدّرهُ ، فيفقد ما هو فيه من مرتبةٍ اجتماعيّةٍ ، كان عملُهُ بالقضاءِ سبباً للحصولِ عليها .

ولأهميّةِ الأمورِ التي ذكرها الإمامُ عليه السلام في قوله السابقِ ، شدّدَ على النظرِ فيها ومراقبتها ، فقال لعامله : ((فانظرْ في ذلك نظراً بليغاً ، فإنَّ هذا الدينَ كان أسيراً في أيدي الأشرارِ يُعملُ فيهِ بالهوى ، وتُطلبُ به الدنيا))[1].

يطلبُ الإمامُ عليه السلام هنا أنْ تُراقبَ الأمورُ التي ذكرها مراقبةً بليغةً ، ويبذلُ الوالي جهدَهُ في ذلك ، لأنَّ الناسَ اعتادتْ على نمطٍ من القضاءِ

(١) نهج البلاغة٣/ ٩٥ .

قبل تولّيه أمور المسلمين ، يقومُ على الهوى وتحقيقِ المصالحِ ،لأنّ الدينَ من قبلُ كان أسيراً بيد الأشرار ، ولا يخفى ما في الجزءِ من قوله عليه السلام من ألمٍ على ما كان عليه القضاءُ في السنين السابقةِ لحكمه عليه السلام ، فالقضاء هو وجهُ تطبيقِ الدينِ على الأرضِ ، ولما كان القضاةُ أشراراً والدينُ أسيرا بأيديهم ، عزفوا عن جهةِ العدلِ وجعلوا الدنيا أكبرَ همّهم .يقولُ ابنُ أبي الحديد المعتزلي معلّقاً على قولِ الإمامِ عليه السلام هذا : ((هذه إشارةٌ إلى قضاةِ عثمان وحكّامهُ ، وأنّهم لم يكونوا يقضون بالحقِّ عنده بل بالهوى لطلبِ الدنيا))[١].

وقد ذكر الإمامُ عليه السلام هذه الحالة التي يواجهُها هو عليه السلام وقضاتُه بقولٍ آخرِ أكثر بياناً لما يُواجههُ عليه السلام بسبب فعلٍ من سبقه حيث يقول : (( قد عملتِ الولاةُ قبلي أعمالا خالفوا فيها رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدين لخلافه ، ناقضين لعهدهِ ، مغيِّرين لسنَّته ، ولو حملتُ الناسَ على تركها وحوّلتُها إلى مواضعها وإلى ما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لتفرّقَ عني جندي حتى أبقى وحدي أو قليلٌ من شيعتي الذين عرفوا فضلي ، وفرضَ إمامتي من كتابِ الله عزّ وجلّ ، وسنةَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله ))[٢]، ومن هنا تتضحُ لنا الحالُ التي كانَ الإمامُ عليه السلام يعملُ على إصلاحها من خلال الاهتمام بالقضاةِ وشؤونهم .

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٧/ ٥٩ .

(٢) الكافي ٨/ ٨٣ .

وعلى الرغم من تشديدِ الإمامِ عليه السلام على اختيارِ القضاةِ على وفقِ ما رأينا ، فإنّه لم يتركْ الأمرَ عند هذا الحدِّ ، وإنّما شدّد على عاملهِ بمراقبةِ قضاء القضاةِ بقوله : ((ثم أكثر تعاهدَ قضائهِ))[1] ، والمراد بـ (تعاهد) هنا: إحداث العهد بما يقضي به القاضي بين الناس ، وهذا التعاهدُ وهذه المراقبةُ لعملِ القاضي، تدفعهُ إلى توخّي الدقّة فيما يُصدِرُ من أحكامٍ ، والتدبّر فيما الخصوماتِ ، والتأنيّ في قبول الأقوال ، ليصلَ إلى حكمٍ لا يُلامُ عليه ، وربّما قد تلين شدّتُه لو شعر بقلّةِ التعاهدِ لعملهِ من واليه .

## اختلاف القضاة في الأحكامِ :

تُعدُّ هذه القضيّةُ من القضايا الكبرى التي أولاها الإمامُ عليه السلام اهتماما كبيراً، لأنّها تتّصلُ بإقامة العدلِ والتفريقِ بين الحقِّ والباطلِ ، وفي هذا حياةٌ للمسلمين والإسلامُ على السواءِ ، والاختلاف في الفُتيا بين القضاةِ ينمُّ عن اختلاطِ الحقِّ بالباطلِ عندهم ، ومن هنا يكونون غيرَ قادرين على الفصل بين الناسِ في خصوماتهم ، ولذا شدّد عليه السلام على ذلك وهو يصفُ ما آلَ إليه أمرُ القضاةِ في الحقبِ السابقةِ ـ كما مرّ بنا بعضٌ منه في موضعٍ سابقٍ ـ . يقولُ عليه السلام : ((تردُ على أحدهم القضيةُ في حكمٍ من الأحكامِ

(١) نهج البلاغة ٣/ ٩٥ .

فيحكم فيها برأيهِ ، ثم تردُ تلك القضيّةُ بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه))[١].

يشيرُ الإمامُ عليه السلام هنا إلى أنَّ الاختلافَ في الأحكامِ في القضيّةِ الواحدةِ نابعٌ من الحكمِ بالرأي ، والاختلاف هنا هو التضادُ بعينه ، لأنّ القاضي الثاني يحكمُ في القضيةِ نفسها بخلاف ما حكم القاضي الأوّل ، فلم يكن الاختلافُ في الحكمِ جزئيّاً حتى يُسوّغَ . وهذا الاختلاف المطلقُ آتٍ من الحكم بالرأي ، وهو أمرٌ منهيٌّ عنه ، فقد ورد عن الإمامِ جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام أنّه قال : (( نهى النبيُّ صلى الله عليه وآله عن الحكمِ بالرأي والقياس ))[٢]، لأنّ الحكمَ ينبغي أن يوضعَ على ما في كتابِ اللهِ وسنّةِ نبيّهِ حتى يتحققَ العدلُ الذي أمر اللهُ تعالى به في قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[٣]. ومن هنا قال الإمام عليه السلام في موطنٍ آخرَ عن وقوع الاختلاف: ((فإن ذلك ضياعٌ للعدلِ وعورةٌ في الدينِ وسببٌ للفُرقة ، وإنّما تختلفُ القضاةُ لاكتفاءِ كلِّ امرئ منهم برأيه دون الإمام))[٤].

---

(١) نهج البلاغة : ١/ ٥٣ .

(٢) مستدرك الوسائل ١٧/ ٢٥٤ .

(٣) النساء: ٥٨.

(٤) دعائمُ الإسلام ١/ ٣٦٠ .

واستناداً إلى ما تقدّم صار أمراً لازمـًا عودةُ القاضيَيْنِ المختلفَيْنِ في الحكمِ في القضيّةِ الواحدةِ إلى الإمام الّذي استقضاهم ، يقولُ عليه السلام : ((... ثمّ يجتمعُ القضاةُ بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيُصوّب آراءهم جميعـًا ، وإلههم واحدٌ ونبيّهم واحدٌ وكتابهم واحدٌ ))[١].

إنَّ الاختلاف في الأحكامِ بين القضاةِ في القضيّةِ الواحدةِ يُنذرُ ببُعدهم عمّا يأمرُ به الله تعالى ، فإذا وقع الاختلافُ واجتمع القضاةُ المختلفون عند من استقضاهم ، صوّبَ آراءهم جميعـًا، وهذا يعني أنّهم قضوا بخلافِ ما أمر به اللهُ تعالى ، على الرغمِ من أنّ مصادرَ التشريعِ التي يستقون منها أحكامَهم واحدةٌ ، فالإلهُ واحدٌ والنبيُّ واحدٌ والكتابُ واحدٌ، وليس ثمّة ما يقود إلى الاختلافِ المذكورِ إلا الحكمُ بالرأي .

ثمّ يُظهرُ الإمامُ عليه السلام بشاعةَ ما يحكمُ به القضاةُ بسيلٍ من الاستفهاماتِ الإنكاريةِ التي لا تدعُ حجّةً بيدِ من يريدُ أنْ يحتجّ لاختلافِ الفُتيا ، يقولُ عليه السلام متمّـًا قولَهُ السابقَ : (( أفأمرهم اللهُ تعالى بالاختلافِ فأطاعوه. أم نهاهم عنه فعَصَوه. أم أنزلَ اللهُ دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه. أم كانوا شركاء له. فلهم أن يقولوا وعليه أنْ يرضى أم أنزل الله سبحانه دينـًا تامـًا فقصر الرسول صلى الله عليه وآله عن تبليغه وأدائه))[٢].

---

(١) نهج البلاغة ١/ ٥٤ .

(٢) نهج البلاغة ٣/ ٥٥ .

إنّ استعمال الإمام عليه السلام للاستفهام الإنكاري[١] على هذا النحوِ المتتابعِ ، يضعُ أمامنا مقتَهُ الشّديدَ عمّا يقومُ به القضاةُ من الفصلِ بين الناسِ بآرائهم من دون أن يلتفتوا إلى ما يأمرُ به اللهُ تعالى من الاحتكامِ إلى القرآنِ والسنّةِ كما أشرنا ، يضعُ ذلك أمامنا من خلالِ قدرةِ الاستفهامِ الإنكاري على الجمعِ بين الإنكارِ للفعلِ والتعجّبِ منه والنهيِّ عنه والتوبيخ للقائمين به ، وهذا الضربُ من الاستفهام لا يحتاجُ إلى جواب ، لأنّه لم يقعْ ولا يقع في المستقبلِ ، لأنّه جاء مُخالفـًا لما ينبغي على القضاةِ القيام به . ولذا استعمله الإمامُ عليه السلام بهذا التكرار ليلفتَ نظرَ المتلقّي إلى هولِ خطأ الفعلِ الذي وقعَ القضاةُ فيه .

وثمّة رأيٌ للعلامةِ المجلسي في هذا الاختلافِ الذي نحنُ بصدده ، يظهرُ فيه بشاعةَ هذا الأمرِ وخطورتَه على العقيدةِ والدينِ ، وخدشَهُ للعدلِ الذي يُريدهُ اللهُ تعالى سيادتهُ بين العباد ، يقولُ فيه : ((فإنّ هذا إنّما يكونُ إمّا بإلهٍ آخرَ بعثهم أنبياءَ وأمرهم بعدمِ الرجوعِ إلى هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم المبعوث وأوصيائه ، أو بأنْ يكون اللهُ شرك بينهم و بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النبوّة ، أو بأنْ لا يكون اللهُ عزّ وجّل بيّن لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم جميعَ ما تحتاج إليه الأمةُ، أو بأنْ

(١) ينظر : أوضح المسالك ٢/ ٦٠، شرح الأشموني ٢/ ١٤٩ ، شرح التّصريح ١/ ٣٤٨، همع الهوامع ٣/ ٢٥٠.

بيّنهُ له لكن النبيَّ ﷺ قصّر في تبليغِ ذلك ولم يتركْ بين الأمّةِ أحداً يعلم جميع ذلك، وقد أشار عليه السلام إلى بطلان جميع تلك الصور))[١] .

ثمّ يتمُّ الإمامُ عليه السلام قوله السابق ، فيقول : (والله سبحانه يقول: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[٢]، فيه تبيانُ كلِّ شيء ، وذكر أنّ الكتابَ يُصدّقُ بعضه بعضا وأنّه لا اختلافَ فيه ، فقال سبحانه : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيراً﴾[٣]. وإنّ القرآنَ ظاهرُه أنيقٌ. وباطنُه عميقٌ . لا تفنى عجائبُهُ ولا تنقضي غرائبُهُ ولا تُكشفُ الظلماتُ إلا به))[٤].

يُجيبُ الإمامُ عليه السلام هنا مؤنّباً القضاة الذين اختلفوا في الأحكامِ ، بثوابت عقديّةٍ يعلمها المسلمون جميعاً ، فيذكر عليه السلام أنّ القرآن فيه تبيان لكلّ شيء ، بمعنى أنّ كلّ ما يحتاج إليه الإنسان المسلمُ في حياته موجودٌ في القرآن ، فالله تعالى يريدُ للإنسانِ أنْ يصل إلى حدِّ التكاملِ والرقيّ ، والمقصودُ بـ (كلّ شيء) كلّ ما يصلُ بالإنسانِ إلى التكاملِ ، فهو دعوةٌ

(١) بحار الأنوار٢/ ٢٨٤ .

(٢) الأنعام: ٣٨.

(٣) النساء: ٨٢.

(٤) نهج البلاغة ٣/ ٥٥ .

لبناء الإنسان[١]، والقاضي في مقدمةُ من يستحقَّ البناء على وفقِ الرؤيةِ القرآنيةِ لأنّ تطبيقَ العدلِ الذي يريدهُ اللهُ تعالى لعباده منوطٌ به . وكلّ ما يحتاجُ إليهِ للتفريقِ بين الحقِّ والباطلِ في خصوماتِ الناسِ موجودٌ في القرآنِ .

ثم يذكرُ الإمامُ أنّ القرآنَ يُفسّرُ بعضُهُ بعضـًا ، فالقضيّةُ التي لا يوجد لها بيانٌ في الآيةِ القريبةِ منها ، تجدُ لها بيانـًا في آيةٍ أخرى ، وهذه القاعدةُ المعرفيّةُ تيسّرُ للقاضي الفصلَ في الخصومات بين الناس من دون اختلاف ، وما يقعُ بين الفقهاءِ من اختلافٍ في الأحكامِ هو من عند أنفسهم، وليس من القرآن .

وقد يُقال إنّ بعضَ القضايا التي ينظرُ فيها القضاةُ قد لا يعرفون لها حلًّا من القرآن ، وهنا نقولُ : إنّ الله تعالى جعل السنّةَ النبويةَ الركن الثاني الذي يستندُ إليه العبادُ في شؤونِ دينهم ودنياهم ، وهي محفوظةٌ عند أهلِ البيتِ ، واللهُ تعالى أمر بالعودةِ إليهم فيما لا يعرفهُ المسلمُ فقال ـ جلّ شأنه ـ : ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[٢] ، وأهل الذكرِ في الآيةِ هم أهل البيتِ عليهم السلام ، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام : ((الكتاب :

(١) ينظر : الأمثل ٨/ ٢٩٢ . رسائل المرتضى ٢/ ٢٢٠ .

(٢) النحل: ٤٣.

الذكر وأهله آل محمد ﷺ ، أمر الله عز و جلّ بسؤالهم و لم يأمر بسؤال الجهّال))[١] .

ويبقى من قول الإمام عليه السلام السابق (وإنّ القرآنَ ظاهرُه أنيقٌ. وباطنُه عميقٌ. لا تفنى عجائبُهُ ولا تنقضي غرائبُهُ ولا تُكشفُ الظلماتُ إلا به)، وهذا القولُ متصلٌ باختلافِ القضاةِ في الأحكامِ ، فكيف نتأوّل ما يريدهُ الإمامُ عليه السلام ؟ .

إنّ الإجابة هنا تقتضي الوقوفَ على معاني (الأنيق) الواردة في النصّ ، ومن لسان العرب نستجلب المعاني الآتية التي تتلاءم مع السياق[٢] .

١ـ الأنقُ : الإعجابُ بالشيء ، وإنّهُ لأنيقٌ مؤنِقٌ : لكلّ شيء أعجبك حسنهُ .

٢ـ أنقتُ الشيء : أحببته .

٣ـ المنظر الأنيق : إذا كان حسنـًا معجبـًا .

إنَّ المعنى العام الذي يجمعُ هذه المعاني هو: الإعجابُ بالشيء ومحبّته لحسنه وجماله ، وبمقاربةِ هذه الصفاتِ لقول الإمامِ عليه السلام ، يكون ظاهرُ القرآنِ حسنـًا جميلاً معجِبـًا ، يُستلذُّ بقراءته ، ويُتمتّعُ بمحاسنه ،

(١) الكافي : ١/ ٢٩٥ ، ويُنظر : الميزان : ١٢/ ١٤٧ .

(٢) ينظر : لسان العرب ( أنق ) .

وهذا كلّه يكونُ سبباً للتدبّر في باطنه العميقِ ، لكي يُستنبطَ منه ما يُحتاجُ إليه. ويجبُ أنْ لا يقع اختلافٌ فيما يُستنبطُ من القرآن، ويكون الحكمُ في الواقعةِ الواحدةِ واحداً، فإنْ وقع الاختلافُ فهذا من القضاةِ وليس من القرآنِ.

واستناداً إلى ما تقدّم فلا يمكن أن يصح وقوع الاختلافِ بين القضاةِ في الأحكامِ ؛ لأنّ الله تعالى شاء أنْ ينظّمَ حياةَ الناسِ ، بما يكفلُ لهم العيشَ بسلامٍ وأمانٍ ، فإذا اختلفتْ الأحكامُ ، وقع الناسُ في دائرةِ الفوضى. وهذا ما لا يصحّ أنْ يقعَ في المجتمع الإسلامي كما بيّنهُ الإمامُ عليه السلام في قوله السابق [١].

ويصفُ الإمامُ عليه السلام هذا الضربَ من القضاةِ الذي يجهلون ما يأمر به الله تعالى ، فيصف من يكون من هؤلاء بقوله : ((جلس بين الناسِ قاضيا ضامنا لتخليصِ ما التبس على غيره ، إن خالف من سبقه ، لم يأمنْ منْ نقضِ حكمهِ من يأتي من بعده ، كفعله بمن كان قبله، وإنْ نزل به إحدى المبهماتِ ، هيأ لها حشوا رثّا من رأيهِ ، ثم قطع به ، فهو من لبس الشُّبهات في مثل نسج العنكبوت لا يدري أصاب أم أخطأ، إنْ أصاب خافَ أن يكونَ قد أخطأ، و إنْ أخطأ رجا أن يكون قد أصاب ، جاهل خباط جهلات ، غاش ركاب عشوات ، لم يعضّ على العلم بضرس قاطع))[٢].

---

(١) ينظر تفصيل أكثر عن هذه القضيّةِ في : شرح نهج البلاغة ١/ ٢٨٨ .

(٢) بحار الأنوار ٢/ ٢٨٥ .

وعلى الرغمِ من طولِ هذا النصّ الذي اقتبسناه من الإمامِ عليه السلام ، فإنّهُ يتضمّن تبشيعـاً لصورةِ من يقضي برأيهِ أو يردّ رأيَ قاضٍ قبله بالرأي نفسه . ويُلاحظُ انتقاء الإمامِ عليه السلام لـ (حشوا رثّـاً من رأيه ) للدلالةِ على أنْ لا فائدة مرجوّة ممن يقضي برأيه ، بل سيكونُ جاهلاً من الذين لم يعضّوا على العلم بضرسٍ قاطعٍ ، وهو يجلسُ بين الناسِ للقضاءِ بينه .

# خاتمة الفصل

يمكننا الآن أنْ نُجملَ النتائج الكبرى التي خلص إليها البحث ، أما النتائج الأخرى فقد تكفّلت صفحاتُ البحثِ بالكشف عنها ، وفيما يأتي أهم تللك النتائج :

١ـ وضع الإمامُ عليه السلام أولاً الأُسسَ التي يجب أنْ يُستندَ إليها في اختيارِ القضاةِ ، وقد ترسّختْ تلك الصفاةُ في النفوسِ حتى صارتْ صفاتٍ للقضاةِ ، وهي ـ كما أرادها ـ عليه السلام صالحة للأزمانِ كلّها ، بل تزدادُ الحاجةُ إليها كلّما مرّ الزمانُ ، لأنّها تشكّلُ الركائز التي يُستندُ إليها في تطبيقِ العدلِ الذي يُريدهُ الله تعالى لعباده .

٢ـ تجلّتْ في بسط صفاةِ القضاةِ الدقّةُ المعهودةُ في انتقاء الإمام عليه السلام للمفردات التي يُعبّرُ بها عن الصّفةِ ، فلم تُذكرْ صفةٌ وإلا وقيّدها الإمامُ بقيدٍ لغويٍّ يدفعُ الإنسانَ المسلمَ قبل القاضي إلى التفكير بالاقترابِ منها، إنٍ كانتْ حسنةً ، والابتعادِ عنها، إنْ كانتْ سيّئةٍ .

٣ـ إنّ ما ذكرهُ الإمامُ عليه السلام من صفاتٍ ، منها ما قد يصحُّ أنْ يكون مشتركًا بين القضاةِ وغيرهم ، ومنا ما هو خاصٌّ بالقضاةِ دون سواهم من

الناس ، لأنّها من وسائل القاضي في التفريقِ بين الحقِّ والباطلِ عند المتخاصمين .

٤ـ أوصى الإمامُ عليه السلام القضاةَ بوصايا ، ألزمهم التمسّكَ بها ، وهي ستتحوّلُ إلى صفاتٍ بعد أنْ يُروّضَ القاضي عليها نفسُهُ وهو يتصدّى لفضّ المنازعاتِ بين المسلمين .

٥ـ سعى الإمام عليه السلام إلى تحصين القضاةِ من كلّ ما يمكنُ أنْ يؤثّر على سيرهم في طريق العدل الذي يُريده الله تعالى لعباده وطبّقهُ في دولته، فأمر الولاةَ بالاهتمام بمكانتهم الاجتماعية ، ومراقبة شؤونِ عيشهم ، حتى لا يشغلهم شيءٌ من أمر الدنيا عن التمعّن والتدقيق فيما يُعرضُ عليهم من شؤون المتخاصمين .

٦ـ اهتمّ الإمامُ عليه السلام بمراقبةِ قضاءِ القضاةِ بنفسه ، وأمر الولاةَ والعمالَ بذلك ، حتى يضمن سلامةِ احقاقِ الحقِّ ، وإبطال الباطلِ ، ولئلّا يشعر القاضي بالأمنِ المطلق ، وهنا قد يقعُ تحت تأثير ذلك فيُصابُ بضربٍ من الفتور الذي قد يؤثّرُ على قضائه .

# الفصل الثالث

## أُسس اختيار الولاة والعمّال وصفاتهم

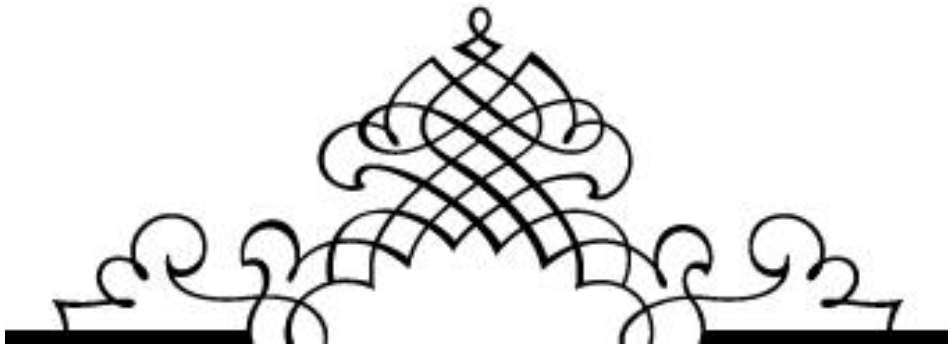

# أُسسُ اختيار الولاة والعمّال وصفاتهم

يُعدُّ اختيارُ العمالِ الذين يتولَّون إدارةِ شؤونِ الدولةِ ركيزةً رئيسةً لبسطِ العدلِ فيها وتصريف شؤونها على النحو الذي أمرَ به اللهُ تعالى، وأراد الإمامُ عليٌّ عليه السلام أنْ يسودَ العدلُ في دولتهِ فراح يوصي ولاته بما ينبغي عليهم القيام به من أجلِ تحقيق ذلك ، وقد تحقّقَ له ما أراد مدة خلافته الرسميةِ ، وفي هذا البحثِ سنعرضُ للأسسِ التي يجب على الوالي أن يضعها أمام ناظريه وهو يختارُ عماله . وقد جاءتْ أغلب هذه الأُسس في عهدهِ عليه السلام لمالك الأشتر حينما أرسلهُ واليـًا على مصر . وفيما يأتي بيان تأويليٌّ لتلك الأسسِ :

## الاختبار وترك المحاباة والأثرة :

يوصي الإمامُ عليه السلام بأن يكون استعمالُ العمالِ من طريق الاختبار حيث يقولُ : ((... ثمَّ انظرْ في أمورِ عمّالكَ فاستعملهم اختبارا ، ولا تولّهمْ محاباةً وأثرةً ))[١].

(١) نهج البلاغة ٣/ ٩٥ .

يضعُ الإمامُ عليه السلام أمامَ عاملهِ الأشتر الأساسَ الأوّلَ لاختيارِ العمّالِ وهو الاختبار المبنيّ على التجربةِ والمعاينةِ والمراقبةِ ، التي تُعطيه بياناً عن سيرةِ من يُريدُ تكليفَهُ ، بما يوفّرُ له الاطمئنانِ على مصالحِ المسلمين وحمايةِ حقوقهم ، وسلامتهم من الجورِ الذي قد يلحقُ بهم إذا كان لم يكن الاختيارُ صحيحاً . هذا فضلاً عن أنَّ الاختبارَ يُبْعدُ من هو أقلُّ رضا لله تعالى عن مزاحمةِ من هو أحقُّ منه في مكانه ، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله قولُهُ : (( من استعمل رجلاً من عصابةٍ وفيهم من هو أرضى للهِ منه فقد خانَ الله ورسولَه والمؤمنين ))[١]، والشرطُ الذي وضعهُ الإمامُ عليه السلام قمينٌ بتحقيقِ مضمونِ الحديثِ النَّبوي .

ثمَّ يوجبُ الإمامُ عليه السلام على عاملهِ أنْ لا يوّلي العمالَ محاباةً أو أثرةً ، فالمحاباةُ تعني : ما يُعطيه الرجلُ لصاحبهِ ويُكرمُهُ به[٢]، واستناداً إلى هذا المعنى تكون الولايةُ عطاءً يُعطيه الوالي لأصحابهِ من دون أنْ يكونوا أهلاً لما أُعطوا ، فكأنَّ المُعطي يولّيهم على الناسِ لميلهِ إليهم واختصاصهِ بهم بلا التفاتٍ إلى خصالٍ بهم تجعلهم يستحقونَ أنْ يُستعملوا على الناسِ لتدبيرِ شؤونهم .

---

(١) كنز العمال ٦/ ٢٥ .

(٢) يُنظر : لسان العرب (حبا) .

أما (الأثرَةُ) فتعني التفضيلَ على الآخرين ، وإنْ كان بينهم من هو أولى بالولايةِ منهم ، ولهذا جمع الإمامُ عليه السلام المحاباة والأثرةَ بما تتفرّعان إليه من معانٍ ليقطعَ بذلك أيَّ سبيلٍ لتسويغِ توليةِ من لا يستأهلُ ذلك . فإنْ لم يلتفتْ الوالي إلى هذينِ الشرطين وقع هو في الجورِ والظلمِ وخيانةِ الأمانةِ ، لأنّهما ـ أي المحاباة والأثرة ـ من شُعَبِ الجور والخيانةِ . فكيف نتأوّلُ هذا ؟ .

يُعطينا المعجمُ العربيُّ المعانيَ الآتيةَ للجذر (جور) :

١ . الجَورُ : نقيضُ العدل .

٢ . الجَورُ : ضدُّ القصدِ .

٣ . الجَورُ : تركُ القصدِ في السيرِ .

٤ . الجَورُ : من جار يجورُ إذا مال وضلَّ .

إنَّ المعنى العامَ الذي يحتضنُ هذه الدلالاتِ هو عدمُ السيرِ المستقيمِ في الحكمِ ، فالوالي الذي يُحابي أو يؤثرُ بعضَ الناسِ لرغبةٍ شخصيّةٍ ، مال في سيرهِ وضلَّ ، لأنّه تصرّفَ بدافعٍ يُنافي ما يُريدهُ الإمامُ عليه السلام من تطبيق العدلِ على وفقِ ما يأمرُ به اللهُ تعالى ، وبهذا يكونُ جائراً وظالمـًا .

بقيَ أنْ نشيرَ إلى أنَّ الواليَ الذي يختار عمّالَه على النحوِ المشارِ إليه يكون خائناً لأمانتهِ ؛ لأنّه لم يتمسّكَ بما عُهدَ إليه . ومن هنا نتبيّنُ دقّةَ استعمالِ الإمامِ عليه السلام للمفرداتِ اللغويّةِ ، إذْ قد يرى بعضهم بُعدَ المسافةِ الدلاليّةِ بين (المحاباة والأثرة) وبين الجورِ والخيانةِ ، ولكنَّ متابعةَ ما تؤدّيه الألفاظُ في السياقِ أظهرتْ لنا دقةَ هذا الاستعمالَ العلويَ .فكأنَّ للجَورِ والخيانةِ شُعَبٌ تتفرّقُ منهما ، وهذا ما رأيناهُ في بعضِ المعاني اللغويّةِ التي وقفنا عليها قبل قليلٍ للفظةِ (الجور) ، وكذلك ما يمكنُ أنْ نتلمّسهُ في معاني الجذر (خون)[١] ، بما يحمِلُ من دلالاتٍ لا يصحّ أنْ يتّصف بها المسلمُ ، وقد ورد في الحديثِ : ((المؤمنُ يُطبعُ على كلِّ خُلُق إلّا الخيانةِ والكذب))[٢].

## التجربةُ والحياءُ :

يلتفتُ الإمامُ عليه السلام إلى هذه الأسسِ فيقول مخاطباً الأشتر في كتابه : (( ...وتوخَّ منهم أهلَ التجربةِ والحياءِ من أهلِ البيوتاتِ الصالحةِ والقدمِ في الإسلام))[٣].

---

(١) يُنظر : لسان العرب (خون) .

(٢) كنز العمال ١/ ١٦٦ ، الدر المنثور ٣/ ٢٩٠ .

(٣) نهج البلاغة ٣/ ٦٥ .

أمرَ الإمامُ عليه السلام واليه بالتمسّكِ بهتين الركيزتين عند الاختيار ، واستعمل الفعلَ (توخَّ) في أمرهِ المذكورِ لما فيه من دلالةِ على الاستقامةِ وتحرّي الحقّ والصّواب ، وهذا يُظهرُ حُسنَ الاختيارِ وجمالهِ . ويتمثّلُ هذا كلّهُ في أهلِ التجربةِ والحياءِ عليه السلام ، فالتجربةُ تُكسبُ الإنسانَ معرفةً ودرايةً ونزاهةً وبعداً عن الطمعِ ؛ لأنَّ دلالَةَ أهلِ التجربةِ لا تعني من عمل بهذا العملِ من قبلُ فحسب ، بل من عمل ، وشُهدَ له بحسنِ التدبيرِ والإدارةِ والبعدِ عن الطمعِ .

ويأتي الحياءُ متمّماً للتجربةِ بوصفهِ القوّةَ المانعةَ للإنسان من ارتكابِ ما يشينُ ، وبالحياءِ ينقطعُ المسلمُ عن المعاصي ، وفي الحديث : (( الحياءُ شُعبةٌ من الإيمانِ))[1]، ومن هنا يكونُ الحياءُ قيداً للمسلمِ ـ وهنا للعاملِ ـ من نقلِ أقدامهِ إلى غيرِ الحقِّ .

ولأنَّ أهلَ التجاربِ كثيرون ، وأهلَ الحياءِ غير قليلين ، قيّدَ الإمامُ عليه السلام الاختيارَ من هؤلاءِ بأنْ يكونوا من أهلِ البيوتاتِ الصالحةِ والقدمِ في الإسلامِ . فالبيوتُ هي التي تتكفّلُ بالتربيةِ في تلك العصورِ ، والبيتُ الصالحُ في الغالبِ قمينٌ بصلاحِ أبنائهِ . يقول حبيب الله الخوئي في شرح هذه القضيةِ : ((أنّ كفيلَ تربيةِ الأفرادِ في ذلك العصرِ هي الأُسرةُ

(١) المجازات النبوية ١٠٦ .

والبيتُ ، و لم تكنْ هناك شهادةٌ على صلاحيّةِ الفردِ غيرِ النّظرِ في البيتِ و الأُسرةِ الّتي ربّى فيها ونشأ في ظلّها ، فقد وصف هؤلاءِ المربّين في البيوتِ الصالحةِ بأنّهم موصوفون بما يلزم للعاملِ من كرمِ الأخلاقِ ومصونيّة العرضِ وقلّةِ الطمعِ و النظرِ في عواقبِ الأُمورِ))[١].

أما القِدِمُ في الإسلامِ فيُعطي للمسلمِ ـ في الغالب ـ ثباتاً على طريقِ الهدايةِ، وقد كان من مواطن الفخرِ بين المسلمين في العصورِ الأولى[٢]. ومن هنا يكونُ مدارُ توليةِ الوالي الكفاءةُ والأمانةُ، كما قال اللهُ سبحانه وتعالى على لسانِ يوسف: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[٣].

ويُعطي الإمامُ عليه السلام مسوّغاتِ اختيارِ الولاةِ من الذين ذكرهم ، حتى لا يكون الكلامُ غيرَ مقيّدٍ بالدلالاتِ التي يُريدُها ، فيقول متمّماً قولَه السابق : ((فإنّهم أكرمُ أخلاقاً ، وأصحُّ أعراضاً ، وأقلُّ في المطامعِ إشرافاً ، وأبلغُ في عواقبِ الأمورِ نظراً))[٤] .

---

(١) منهاج البراعةِ ٥/ ٢٤٩ . ونظر عمر بن عبد العزيز إلى قولِ الإمامِ عليه السلام هذا حينما كتب إلى عامله أيوب بنِ شُرحبيل في فريضة الجند فقال ((أنْ اجعل ذلك في أهلِ البيوتات الصالحةِ)). ينظر : تاريخ مدينة دمشق ٤٥/ ٢١٢ .

(٢) كان الصحابي أبو ذر الغفاري يقول : لقد رأيتني ربعَ الإسلامِ . ينظر : المستدرك ٢/ ٣٤١ ، الغدير ٨/ ٢٠٨ .

(٣) يوسف: ٥٥.

(٤) نهج البلاغة ٣/ ٩٥ .

فالأخلاقُ الكريمةُ غالبًا ما تكونُ شريعةً لهؤلاءِ ، فهم يتخذونها سبيلاً من أجلِ بلوغِ ذروةِ الشرفِ الذي ورثوه من البيئةِ الصالحةِ التي تربّوا فيها . نعم قد يكون غيرُهم يمتلكُ أخلاقًا كريمةً ، ولكنَّ هؤلاءِ أكرمُ من غيرهم في الأحوالِ كلّها . وأمرُ الأخلاقِ له شأنٌ كبيرٌ عند العربِ والمسلمين ، ومن هنا مدح اللهُ تعالى النبيَّ بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(١) .

أما قولُهُ عليه السلام : فيدعونا للوقوفِ على المراد بالعرضِ هنا حتى نضع أيدينا على ما يُريدُ الإمامُ عليه السلام من هذه الصفةِ . جاء في لسانِ العربِ المعاني الآتيةُ التي تتلاءمُ مع سّياقِ القولِ السابق :

١ . العِرضُ : هو الجانبُ الذي يصونُهُ الإنسانُ من نفسهِ وحسبهِ ، ويُحامي عنه أنْ يُنتقصَ ويُثلبَ .

٢ . العِرضُ : الأسلافُ والآباءُ .

٣ . العِرضُ : الرائحةُ ما كانتْ .

٤ . العَرضُ : المتاعُ .

إنَّ هذه الجملةَ من المعاني التي قدّمها لنا الجذرُ (عرض) ، تُناسِبُ جميعُها الصفاتِ التي يتزينُ بها من أمر الإمامُ عليه السلام بتوليتهم ، فهم

(١) القلم: ٤.

يصونونَ أحسابهم الصالحةَ ، ويحامونها من الانتقاصِ والثَّلْبِ بسيرهم على الطريقِ المستقيمِ ، ويكونون بحقّ أصحَّ من غيرهم في هذه الصفاتِ ، وهذا كلّه يجعلُ رائحتَهم طيّبةً بين الناسِ ، أو أنَّ الناسَ لا يتنسَّمون منهم إلّا طيبَ رائحتِهم ، وهذا كلّه يتوافقُ مع الحُسنِ التي يتأطرُ به كلامُ الإمامُ عليه السلام في نهجِ البلاغةِ كما ألمحنا إلى ذلك في مقدِّمة الكتابِ .

والصّفةُ الأخرى التي ذكرها الإمامُ عليه السلام (وأقلُّ في المطامعِ إشرافـًا). وهنا جعل عليه السلام هؤلاءِ أقلَّ الناسِ إشرافـًا على ما يطمعُ فيه الإنسان ، والإشرافُ في اللغةِ يعني : أنْ يقفَ الإنسانُ على مرتفعٍ من الأرضِ ويُشرفُ على ما حوله[١] ، ومنْ يصفهم الإمامُ عليه السلام هم من ضربٍ من الناسِ لا ينظرون إلى الطمعِ من مكانٍ مشرفٍ ، وهؤلاءِ الموصوفون هم أقلُّ الذين يشرفون على الطمعِ أحيانـًا ولا يطمعون في واقعِ حالهم.

وتنتهي الصفاتُ الذي ذكرها الإمامُ عليه السلام في قولهِ السابقِ بوصف المذكورين بأنّهم: (أبلغُ في عواقبِ الأمورِ نظراً)، أيْ يُصيبون بظنّهم فيعرفون عواقبَ الأمورِ استناداً إلى التدبّرِ فيما يُواجِهُهُم من شؤونِ الدنيا. وقد كان من شأنِ العربِ في الجاهليةِ أنْ يمدحوا من يرى عواقب الأمورِ

(١) يُنظر : لسان العرب (شرف) .

قبل أنْ تقع[١] . ومدح أبو ذر شخصاً بقولهِ : (( واللهِ لهو بما يكونُ أعلمُ منّا بما كان ))[٢]، يريد أنّه يُصيب بظنّه فلا يُخطئ . واستناداً إلى هذا التوجيهِ فإنَّ هؤلاءِ الولاة لا يفجؤهم أمرٌ ، لأنّهم الأقدرُ على تلمّسِ النتائجِ قبل ظهورها .

وبعد أنْ بسطَ الإمامُ عليه السلام لواليهِ الصفاتِ التي يتحتّمُ عليهِ توخّيها في العمالِ ، شرع في بيانِ العواملِ التي تُساعدُ هؤلاءِ الولاة على التمسّكِ بالنهجِ الذي وضعه الإمامُ عليه السلام للسَّيرِ عليه ، فذكر ما يأتي : ((ثمَّ اسبغْ عليهمُ الأرزاقَ ، فإنَّ ذلك قوّةً لهم على استصلاحِ أنفسهم ))[٣].

يوجّه الإمامُ عليه السلام واليه بعدمِ التضييقِ على عمالهِ بالرزقِ ، فلو ضيّقَ عليهم الوالي في الرزق، ولم يرفّه عليهم في النّعمةِ ، كان حرمانُهم مدعاةً إلى أنْ تطمحَ أعينُهم إلى ما ائتمنوا عليه من مالٍ ،ويكون ذلك سبيلاً إلى الرغبةِ في الخيانةِ ، واختلاسِ شيءٍ من أموالِ المسلمين[٤] .

---

(١) جاء في البيان والتبيين ٣/ ٢٨٨: ((ويمدحون بإصابةِ الظنِّ ويذمّون بخطئِهِ، قال أوس بن حجر:

الألمعيُّ الذي يظنُّ لك الظّـ ـنَّ كأن قد رأى وقد سمعا ))

والبيت في ديوان أوس بن حجر ٥٧ .

(٢) يُنظر : تأويل مختلف الحديث ١٥٢ ،

(٣) نهج البلاغة ٣/ ٩٥ .

(٤) يُنظر : دراسات في نهج البلاغة ٧١ .

واستناداً إلى ما تقدّم يجدرُ بنا أنْ نعودَ إلى المعجمِ للوقوفِ على معاني المفردةِ المركزيةِ في قولِ الإمامِ عليه السلام وهي لفظة (أسبغ) ، لنتأوّل من خلالها هذا المقطعَ من أمرِ الإمامِ عليه السلام لواليه . ومن المعاني التي يرفدنا بها الجذر (سبغ) ما يأتي :

١. شيءٌ سابغٌ : كاملٌ وافٍ .

٢. أسبغَ : أكمل وأتمَّ ووسّعَ .

٣. السابغةُ : الدرعُ الواسعةُ .

٤. إنّهم لفي سَبْغةٍ من العيشِ : أيْ سَعَةٍ .

وواضحٌ من هذه المعاني ، أنَّ ما يُسبغهُ الوالي على عماله من أرزاقٍ ، يجب أنْ يكون سابغـًا كاملاً وافيـًا واسعـًا ، لأنَّ هذا سيكونُ مُعينـًا لهم على استصلاحِ أنفسهم ، إنْ سوَّلتْ لهم مرّةً الإشرافَ على الطَّمعِ ، إذْ تجدُ في هذه اللحظةِ ما يُغنيها .

ويبقى أمرٌ يمكنُ أنْ نتلمّسَهُ في المعاني السَّابقةِ ، وهو معنى الدَّرعِ ، فمن المعقولِ تمامـًا أنْ تكونَ هذهِ الأرزاقُ درعـًا للعمالِ تَقِيهُم من الانجِرافِ إلى الطَّمَعِ ، كما تقي المقاتلين من وقعِ السّيوفِ في ميادين القتالِ . وهذا ما يمتّنُ السّياقَ تمامـًا ويجعله متناغمـًا بحقٍّ مع مرادِ الإمامِ عليه السلام الذي يُرينا كيفَ ينتقي ألفاظهِ للتعبيرِ عن المعاني الدقيقةِ.

وما قدّمناه من تتبّعِ المعاني السابقةِ يجعلُ العمّالَ في غِنى ومأمنٍ من أنْ ينظروا إلى ما تحتَ أيديهم من أموالِ المسلمين إلّا من أجلِ وضعها في المواضعِ التي أمرَ اللهُ تعالى أنْ توضعَ فيها ، وفي هذا الإطارِ تأتي تتمّةُ قولِ الإمام عليه السلام : ((وغِنى لهم عن تناولِ ما تحتَ أيديهم))[١].

إنَّ ما أوصى الإمامُ عليه السلام بتقديمهِ للعمّال فيما مرَّ ، سيكون حجّةً بيد مالك الأشتر عليهم، إنْ فكّر أحدُهم بمخالفةِ أمرهِ. يقول عليه السلام : ((وحجّةً عليهم إنْ خالفوا أمرَكَ أو ثلموا أمانتَكَ))[٢].

وأغلبُ الظّنِّ أنَّ ثلمَ الأمانةِ هنا غير الخيانةِ ، فهو قد يعني أنَّ العاملَ قدْ يأخذُ مما تحتَ يديهِ بحجةِ العَوَزِ ، فيكون فعلُهُ هذا ثلماً للأمانةِ ؛ لأنَّ الحجةَ قائمةٌ عليه بما يصلُ إليه من الأرزاقِ التي مرَّ ذكرُها . وبعد هذا لا يبقى له مسوّغٌ قد يتكأ عليهِ إذا امتدّتْ يدُه إلى أموالِ المسلمون الذين نصّبوه حامياً لها وحارساً عليها ،وأميناً يؤدّيها إلى أهلها دون أنْ يُصيبها بسوءٍ من خيانةٍ قليلةٍ أو كثيرةٍ .

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ٩٦ .

(٢) المصدر نفسه.

## مراقبةُ أعمالِ الولاةِ :

يوصي الإمامُ عليه السلام واليه على مصر أنْ يهتمَّ بمراقبةِ عمّالهِ على الرّغمِ من الأسسِ التي وضعها لاختيارهم ـ كما مرَّ ـ ، فدقّةُ الاختيارِ غير كافيةٍ لضمانِ استمرارِ العاملِ على السَّيرِ على وفقِ ما يُريدهُ الله تعالى ، وما توجبُهُ إدارةُ الدولةِ ، ومن هنا وضع عليه السلام منهجَ مراقبةِ العمال فقال : ((ثمَّ تَفَقّدْ أعمالَهم ، وابعثْ العيونَ من أهلِ الصّدقِ والوفاءِ عليهم))[١].

أمر الإمامُ عليه السلام الأشتر بتفقّدِ أعمالِ عمالهِ ، من خلالِ متابعةِ أخبارهم من طريقِ الوافدين إلى الكوفةِ عاصمةِ الخلافةِ ، أو من طريقِ من يأتي من البلدانِ إلى مكةَ في موسمِ الحجِّ ، أو من أيِّ طريقٍ آخر ، ويقفِّي هذا كلَّه بإرسالِ العيونِ من أهلِ الصِّدقِ والوفاءِ عليهم . وهذا ضربٌ من المراقبةِ الصَّارمةِ التي يوجبُها الإمامُ عليه السلام على الولاةِ ، فالولايةُ ليستْ طُعمةً للوالي ، وإنّما هي سبيلٌ من سُبُلِ ذوي الشأنِ من المسلمين لتدبيرِ أحوالِ المسلمين[٢]. ولا بأس من الإشارةِ إلى أنَّ

---

(١) نهج البلاغة ٥/ ٩٦ .

(٢) كتب الإمام عليه السلام إلى الأشعث بن قيس ،عاملَهُ على أذربيجان : (( وإنَّ عملَك ليس لك بطعمةٍ ، ولكنه في عُنقِك أمانة )) نهج البلاغة ٣/ ٦ .

الإمامَ عليه السلام أرادَ من الوالي أنْ يكونَ واثقـاً بعيونهِ ثقةً لا يشوبها أيُّ وهنٍ ، لأنَّهُ سيبني أحكامَهُ على الأنباءِ التي تصلُ إليه منهم ، ولا يحتاجُ إلى أخبارِ غيرهم ، إذا بلغتْهُ خيانةٌ لهم[١].

ويُبيّنُ الإمامُ عليه السلام الفوائدَ المرتجاةَ من هذهِ الرِّقابةِ الشديدةِ فيقول متمّـاً قولَه السابق : (( فإنَّ تعاهُدَكَ في السِّرِّ لأمورِهُم حَدْوَةٌ لهم على استعمالِ الأمانةِ والرِّفْقِ بالرَّعيّةِ ))[٢].

إنَّ ما ينبغي أنْ نقفَ عندَهُ هنا استعمالَ الإمامِ عليه السلام للفظةِ (تعاهدك)، فمعلومٌ أنَّ الفعلَ (تعاهد) يدلُّ على المشاركةِ[٣] ، أيْ مشاركةِ اثنينِ ، فكيفَ تكونُ هذهِ المشاركة؟.

إنَّ ما نُرجِّحُهُ هنا أنَّ الإمامَ عليه السلام أخبرَ الأشترَ وغيرَهُ من ولاتِهِ أنَّهُ يراقبُ أداءهم بالعيونِ (الرُّقباءِ) الذين يبعثُهم لهذهِ المهمّةِ التي تهدفُ إلى

---

(١) طالما أكّد الإمامُ عليه السلام على أمانةِ الرُّقباء (العيون) وقولهم الحق ، كما نجد ذلك في عهدِ مالك الأشتر نفسه ، وهو يوصيهِ بذلك فيما أمراء الجند ، حينما قال : ((ثمَّ لا تدعْ أن يكون لك عليهم عيون من أهل الأمانة والقول بالحقّ عند الناس فيثبتون بلاء كل ذي بلاء منهم ليثق أولئك بعلمك ببلائهم)) . ينظر : تحف العقول ١٣٣ .

(٢) نهج البلاغة ٥/ ٩٦ .

(٣) يُنظر : شرح شافية ابن الحاجب ١/ ٩٦ .

تمتين قوّةِ دولةِ العدلِ الإلهي ، وهذا ما ورد في كتبٍ أخرى[١] ، ولا شكَّ أنَّ الإمامَ عليه السلام أبلغَ الأشترَ بذلك وأعلمَه أنْ يفعل ذلك مع عمّالهِ ، وهنا يتحقّقُ معنى المشاركةِ الذي أشرنا إليه ، وهذا أمرٌ معقولٌ تماماً يفسّرُ لنا دقّةَ استعمالِ الإمامِ عليه السلام للغتهِ في نهجِ البلاغةِ .

وما بسطهُ الإمامُ عليه السلام فيما مرَّ سيكونُ دافعاً للولاةِ لتحقيقِ أمرينِ رئيسينِ ، الأوّل : التمسّك باستعمالِ الأمانةِ في إدارةِ شؤونِ البلادِ على الوجهِ الذي يُريدهُ اللهُ تعالى ، والثاني : الرِّفقُ بالرعيّةِ ، وهذا الأمرُ له شأنٌ كبيرٌ عند الإمامِ عليه السلام ، ولعلَّ من المجدي أنْ نقفَ على قولٍ له عليه السلام في العهدِ نفسهِ يوصي الأشتر بالرعيّةِ ، يقولُ : ((وأشعرْ قلبكَ الرحمةَ للرعيّةِ، والمحبةَ لهم ، واللطفَ بهم ، ولا تكونَنَّ عليهم سبُعًا ضاريًا تغتنمُ أكلَهم ، فإنّهم صنفان ، إما أخٌ لك في الدينِ أو نظيرٌ لك في الخلقِ))[٢].

بقي أن نشيرَ إلى أنَّ استعمالِ الإمامِ عليه السلام للفظةِ (حدوة) يعدُّ استعمالاً فريداً في السِّياقِ ، فالمعاجمُ العربيةُ لم تقفْ على هذه اللفظة ، وإنّما جاءتْ معاني الجذر (حدا) الذي اشتقَّ منه الإمامُ (حدوة) على

(١) ينظر كتابُ الإمامِ عليه السلام إلى واليه على مكة قُثم بن العباس في : نهج البلاغة ٢/ ٥٨ .
(٢) نهج البلاغة ٣/ ٨٤ .

النحو الآتي :

١. الحدوُ : سَوْقُ الإبلِ والغناءُ لها.

٢. الحدواء : ريحُ الشَّمال ، قيل لها ذلك لأنّها تحدو السَّحاب ، أيْ تسوقه .

٣. حدا الشيءَ يحدوهُ حدواً : تَبِعه .

٤. إنَّ هذه المعاني الثلاثةَ تجتمعُ في دلالتينِ (السَّوقِ والاتّباعِ) على وفقِ السّياقِ الذي يحتضنُ كلَّ دلالةٍ .وفي قولِ الإمامِ عليه السلام السّابقِ يمكن أن يكون (السّوق) هو المعنى المرادُ وكذلك يمكن أنْ يكون (الاتّباعِ) ، فالسَّوقُ يعني أنَّ مراقبةَ الوالي لعمّالهِ ستسوقهم إلى حيث يُريدُ ، والإتِّباعُ يعني أنَّ عيونَ الوالي التي تراقبُ العمّالَ وتتبعهم ، ستسوقهم بهذه المتابعةِ إلى الأمانةِ والرفقِ بالرعيّةِ . يؤيّدُ هذا التوجيهَ أنَّ الإبلَ تنقادُ إلى صوتِ من يحدو بها وإنْ لم يكن في أمامها ، فقد يكون في مؤخّرتها وتستجيبُ له. والحادي هو يسوقُ الإبلَ بالحداء[1] ، وهذه الفرادةُ الأولى في استعمالِ الإمامِ عليه السلام لـ (حدوة) .

(١) جاء في الأغاني عن رجل أُخبر المنصورُ بحسنِ حدائهِ ما يأتي: ١٥/ ٢٩: ((... وكان إذا حدا وضعت الإبلُ رؤوسَها لصوتهِ وانقادتْ انقياداً عجيباً ، فسألُهُ المنصورُ: ما بلغ من حسنِ حدائِهِ ؟ قال : تعطشُ الإبلُ ثلاثاً أو قال خمساً وتدنو من الماء ، ثم أحدو فتتبع كلُّها صوتي، ولا تقرب الماءَ )).

أما الفرادة الثانيةُ فتظهرُ في أنَّ المعاجمِ العربيةِ لم تلفتْ إلى هذه اللفظةِ ولم يرد لها ذكرٌ فيها ، فهي إذاً من ابتداعهِ هو ، وهذا الابتداعُ والاستعمالُ مما يندرجُ في الاستعمالِ المطّردِ للّغةِ[١] ، والإمامُ هو من أهلِ البيتِ عليهم السلام الذين هم أربابِ الكلام الذين تُؤخذُ اللغةُ منهم وعنهم[٢].

## التحفّظُ من الأعوان :

ويُتمُّ الإمامُ عليه السلام توجيهَهُ لمالكِ الأشتر بقولهِ : ((وتحفّظْ من الأعوانِ ، فإنْ أحدٌ منهم بسطَ يدهُ إلى خيانةٍ ، اجتمعتْ بها عليهِ عندك أخبارُ عيونِكَ ، اكتفيتَ بذلك شاهداً ، فبسطتَ عليهِ العقوبةَ في بدنهِ ، وأخذتَه بما أصابَ من عملِهِ ، ثمَّ نصبتَهُ بمقامِ المذلّةِ ، ووسمتَهُ بالخيانةِ ، وقلدتهُ عارَ التُّهمةُ ))[٣].

يأمرُ الإمامُ عليه السلام الأشترَ هنا بعدمِ الغفلةِ عن الأعوانِ ، إذْ يتحتّمُ عليه أنْ يبقى رقيباً على عملهم بنفسهِ ، فإذا رأى منهم خيانةً ، التفتَ إلى عيونهِ

(١) يُنظر : المقتضب ٢/ ١٩٣ . شرح شافية ابن الحاجب ٣/ ٣٣٢ .

(٢) نذكرُ هنا بقول الإمام عليه السلام في نهج البلاغة ٢/ ٢٢٦ : (( وإنَّا لأُمراءُ الكلامِ، وفينا تنشبَّتْ عُروقُهُ وعلينا تهدَّلتْ غصونُهُ )) .

(٣) نهج البلاغة ٣/ ٩٦ .

المراقبين لأعمالهم ، فإذا أفادوهُ بما يؤكّدُ ذلك ، كان ذلك شهادةً عليه ليُقيمَ العقوبةَ بما يتناسبُ مع ما أصابَ من عمله سرقةً . وبهذا يضعُ الإمامُ أساساً قضائياً يُعاقبُ به من يرتكبُ أيَّ ضربٍ من ضروبِ الخيانةِ[١] ، كخيانةِ النّصحِ وخيانةِ الودِّ والخيانةِ في شتى المحنِ ، ومن يقدمُ على هذا الفعلِ يكونُ جزاؤه أنْ يُقامَ في مقامِ المذلّةِ، ويبقى موسوماً بوسمِ الخيانةِ. وتبقى تهمةُ الخيانةِ قلادةً في عنقهِ .

إنَّ ما وضعهُ الإمامُ عليه السلام من أسسٍ لاختيارِ العمالِ يمنحُ الأشترَ وغيرَه من العمالِ في ذلك العصرِ والعصورِ اللاحقةِ شيئاً من الطُمأنينةِ وهم يختارون عمّالهم على وفقِ تلك الأسسِ ، وعلى الرغمِ من ذلك كلّه تبقى مراقبةِ الوالي ( الحاكم) وسيلة لاستمرارِ محافظةِ العمالِ على تلك الشروط ، وبهذا يكونون أقرب ما يكون إلى المحافظةِ على نظامِ الدولةِ التي يُريدها الله تعالى .

(١) يُنظر : لسان العرب (خون) .

# الفصل الرابع

## أقوال الإمام علي عليه السلام
## في غسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودفنه

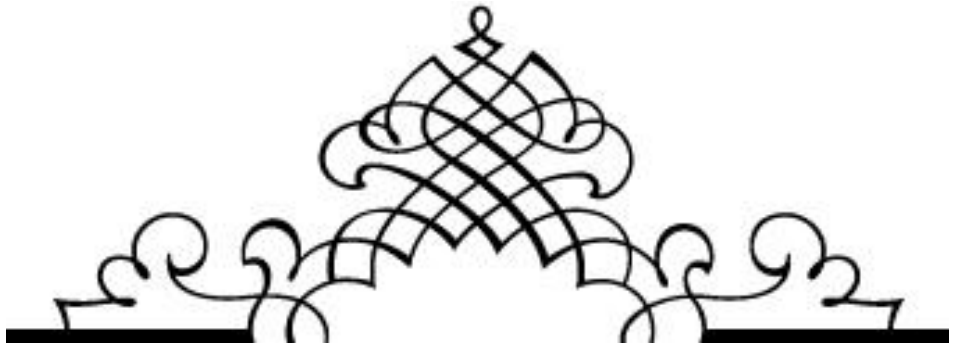

# أقوال الإمام علي عليه السلام في غسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودفنه

شاء الله سبحانه وتعالى أن يستأثر برسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وينقله إلى جواره في الثامن والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ على وفق أوثق الروايات التي وصلت إلينا ، وتولّى الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ غُسله وتجهيزه ، كما أجمعت على ذلك أغلب مصادر المسلمين ، وله ـ عليه السلام ـ أكثر من قول في وصف هذه الآنات التي مرّت عليه وعلى أهل بيته جميعاً وعلى المسلمين كلَّهم .

وسننظر في هذا البحث في هذه الأقوال على وفق منهج تأويلي ، يقوم على قراءتها قراءة تدبرية متأنية ، مستغنية بمعاني المفردات المركزية في النصوص في ضوء استعمالها الاجتماعي في المعجم العربي ، محاولين من خلال ذلك كلّه الوقوف على المعاني التي تختبأ خلف المعنى الظاهري ، لإيماننا المطلق بأنّ حديث الإمام ـ عليه السلام ، لا يقف عند حدود هذا المعنى ، وإنّما يحمّله قدراً كبيراً من المعاني الإضافيّة ، ليأخذ منه كلّ إنسان على قدر تدبره والتفكّر فيه في العصور كلّها ، وسبيلنا إلى هذا التأويل الذي نتبناه هنا ما أشرنا إليه من إجالة النظر الدقيق في معاني

الألفاظ في ضمن سياقاتها الواردة فيها ، مع التمسّك الشديد بالابتعاد عن تحميل النصوص ، ما لا يرضاه السياق ، لأنّ في ذلك ـ والعياذ بالله ـ جوراً يتنافى مع المنهج العلمي الذي نتمسك به ـ إن شاء الله تعالى ـ .

## وفاة النبي ـ ﷺ ـ :

يقول الإمام ـ عليه السلام ـ مستذكراً ساعة رحيل رسول الله ـ ﷺ ـ : ((ولقد قُبِضَ رسول الله ، وإنّ رأسه لعلى صدري ، ولقد سالت نفسه في كفّي فأمررتها على وجهي))[1].

إنّ أول ما يلفت النظر هنا ، إنّ الإمام عليه السلام بنى الفعل ( قبض ) للمجهول ، لأنّ مجيءَ الموت حتميّ ، والنبي ﷺ ينتظره ، فجاء بناء الفعل للمجهول للاخبار بمجيء المنتظر ، فضلاً عمّا في الفعل من تعظيم لله سبحانه وتعالى ، والإمام ـ عليه السلام هنا ينظر إلى التعبير القرآني في الإشارة إلى موت النبي ـ ﷺ ـ أو قتله . في سورة آل عمران : ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[2].

---

(١) نهج البلاغة ٢/ ١٧٢ .

(٢) آل عمران: ١٤٤.

فقد نُسب فعل الموت إلى النبي ـ ﷺ ـ ، وبني ( قُتل ) للمجهول ، وفي الحالين لم يذكر الله سبحانه وتعالى ذاته ، وهو الفاعل الحقيقي لذلك كلّه، وهذا ضرب من التعظيم الذي يجسده ترك ذكر الفاعل(١).

ويظهر من قول الإمام السابق إنّه كان آخر الناس عهداً برسول الله ـ ﷺ ـ في الحياة الدنيا ، إذ وضعه في حجره ، ورأسه ـ ﷺ ـ على صدره، وما من شك ، أنّ النبي ـ ﷺ ـ أخبر الإمام ـ عليه السلام ، بقرب رحيله ودنوّ أجله، وأراد أنْ يكون قريباً منه ، على هذا النحو من القرب المكاني ، لتتأكد من خلاله حقيقة القرب الروحي بينهما ، فضلاً عن القرب الإيماني والاجتماعي والأسري الذي جَلَّته هذه البرهة من الزمن . وعلى الرغم من حضور آخرين من بني هاشم ، فإنّهم يعرفون لعلي ـ عليه السلام هذهِ المرتبة الربّانية ، فلم يطلبوا منه التشرّف بهذا المقام ، لأنّه مقام يتصل بالعقيدة أولاً ، وبالأنماطِ الأخرى من القرب المشار إليها إليه ثانياً .

وهنا أمرٌ يمكن أن يُقال ، وهو إنّ حضور من حضر من بني هاشم (العباس والفضل مع أسامة بن زيد) ، كان بعد وفاة النبي ـ ﷺ ـ لأنّ هؤلاء الثلاثة لا يصح أنْ يكونوا ممن يسمع تعزية الملائكة لأهل البيت ـ عليهم السلام ـ ، أو ممن يسمع أصواتهم وهم يصلون على النبي ـ ﷺ ـ .

---

(١) ينظر : معاني النحو ٢/ ٤٩٣ عن التعظيم بترك ذكر الفاعل .

فحضروا بعد أنْ شاع الخبر في المدينة ، وكانت صلتهم الأسرية بالنبي ـ ﷺ ـ ، تتيح لهم الحضور عنده ، بعد أنْ شرع الإمام ـ عليه السلام ـ بتغسيله وتكفينه .

من جهة أخرى فإنّ من المعقول أن يكون هؤلاء الحضور من بني هاشم قد استحضروا ـ ﷺ ـ لعلي ـ عليه السلام ـ (( أنا وأنت يا علي كهاتين وأشار إلى إصبعيه ))[١] ، وهذا الحديث يحتضن ما أشرنا إليه من قرب روحي ووجداني وعقائدي بين النبي ـ ﷺ ـ والإمام ـ عليه السلام ـ ، مع الإشارة إلى أن المساواة التي تُستوحى من مثل الإصبعين ، لا تعني المساواة في الفضل حتماً (( فالنبي ـ ﷺ ـ وإن كان أفضل وأكثر ثواباً من أمير المؤمنين فمن حيث تقارب فضلهما ، ولم يكن فيهما تفاوت ، جاز اطلاق ألفاظ المساواة ))[٢].

وتأكيداً لهذا القرب بين النبي ـ ﷺ ـ ووصيّه ـ عليه السلام ـ ، مسح الإمام ـ عليه السلام ـ وجهه بروح رسول الله ـ ﷺ ـ بعد أن سالت على كفّه ، تيمنـًا وتبركـًا وتشرفـًا وتوحداً مع هذه النفس المقدّسة التي وحدها الله تعالى مع نفسه بنص آية المباهلة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ

(١) رسائل المرتضى ٣/ ١٣٤ .

(٢) رسائل المرتضى ٣/ ١٤٣ .

مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[١] ، وعلى وفق إجماع المسلمين على ذلك [٢] .

إذاً توحَّد الإمام ـ عليه السلام ـ مع النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ، عبر شيمة الفعل هذا ، بعد أن تشربت نفسه من هذه النفس المقدّسة مدة خمس وثلاثين سنة أمضاها مع النبي صلى الله عليه وآله، يقول ـ عليه السلام ـ واصفاً تلك الصلة ((... وقدد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا وليد ، يضمني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ، ويمسني جسده ويشمني عُرفه ، وكان يمضغ الشيء ويُلقمُنيه ، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل))[٣].

فهل بعد هذه المنزلة من منزلة ، تجعل صاحبها يحدّث نفسه دون علي ـ عليه السلام ـ ليكون قريباً من النبي صلى الله عليه وآله ساعة رحيله ؟ لا نظن هذا . يؤيد هذا أنّ ثمة رواية ـ سنتحدث عنها بعد حين ـ تشير إلى أنّ الملائكة عزّت

---

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) يُنظر : الاختصاص ٥٦ ، التبيان ٤٨٥ ، مجمع البيان ٢/ ٣٠٩ ، مناقب آل أبي طالب ٢/ ٥٨ ، زاد المسير ١/ ٣٣٨.

(٣) نهج البلاغة ٢/ ١٥٧ .

أهل البيت عليهم السلام بفقد النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ [١] وعلى وفق هذه الرواية يكون قرب علي ـ عليه السلام من النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ قربـًا ربانيـًا ، شاء الله تعالى أنْ يختم به حياة النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ في الدنيا كما بدأها به .

وهذه التعزية الربانية ، جاءت وليس في البيت غير الإمام ـ عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين ـ عليهم السلام ، هتف بها جبرئيل معزيّـًا ومسليّـًا ، وكانت من مناقب الإمام ـ عليه السلام التي حاجج بها أصحاب الشورى ، ووافقوه على ذلك[٢].

وثمة دلالة أخرى في النص ـ أشرنا إليها قبل بإيجاز ـ وهي دلالة اجتماعيَّة تدلّ على إنّ الإمام ـ عليه السلام ، كان وظلّ أقرب الناس إلى النبي صلى الله عليه وآله حتى لحظة رحيله عن الدنيا ، والإمام بهذا الوصف لم يترك فرصة لاحتمال آخر يناقض هذه الدلالة ، حينما ركز في لغة النص على طاقات اللغة ، فاستعمل أسلوب التوكيد بوجوهه المختلفة (( ولقد ... وإنّ ... لعلى ... ولقد )) ، فكانت هذه المظاهر الأسلوبيَّة ثوابت لا تحتمل التغير المحتمل في الكلمات ؛ لأنّها استمدت ثباتها الحقيقي من حقيقة ما فعله الإمام ـ عليه السلام ـ في غُسل النبي صلى الله عليه وآله وتجهيزه وجسده فيما بعد في قوله هذا ،

(١) ينظر: الكافي ٣/ ٢٢١ .

(٢) يُنظر : شرح الأخبار ١٨٩ .

لأنّ الأصل في التوكيد أنك قرَّرت المؤكد (( وما علق به في نفس السامع ، ومكنته في قلبه وأمطت شبهة ربما خالجته ، أو توهمت غفلة وذهاباً عما أنت بصدده فأزلته ))[١].

وفضلاً عن هذا كلّه ، فإنّ ما أكّده الإمام ـ عليه السلام ـ في هذا القول قارٌّ في نفوس المسلمين ، لكثرة الروايات المتواترة التي ذكرته ، واختلاف طرق وصولها ، وهذا الاختلاف يؤكّد صدق الجر وصحته ـ كما هو مألوف ـ ، وعلى الرغم من إنّ الإمام ـ عليه السلام ـ هو الصدق بعينه .

## غُسل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ :

يقول الإمام علي ـ عليه السلام ـ متمّماً قوله السابق : (( ولقد وليت غُسله والملائكة أعواني ، فضجّت الدار والأفنية ، ملأ يهبط ملأ يعرج ، وما فارقت سمعي هيمنة منهم ، يصلّون عليه حتى وارياه في ضريحه ))[٢].

يؤكد الإمام ـ عليه السلام ـ هنا ، إنّه تولى غُسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واختياره للفعل ( ولي ) له دلالات معرفية تفضي إلى دلالات عقائدية . ومن أجل

---

(١) يُنظر : المفصّل ٢/ ٤ .

(٢) نهج البلاغة ٢/ ١٥٧ .

الوقوف على هذه الدلالات ، ننظر في معاني الجذر ( ولي ) ، على وفق ما جاء في لسان العرب[١] :ـ

١- الولي : القريب والدنو .

٢- الولي : الصديق والنصير .

٣- الولي : التابع والمحب .

٤- الولاية : تشعر بالتدبير والقدرة والفعل ، وما لم يجتمع ذلك فيها لم ينطبق عليه اسم الوالي .

إنّ نظرة في هذه المعاني لـ ( ولي ) ، تظهر انطباقها تماماً على الإمام علي ـ عليه السلام ـ في صلته بالنبي الأكرم ـ صلى الله عليه وآله ـ كما مرّ بنا من قبل ، فهو ـ عليه السلام ـ قريب من النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ودان منه ، وصديق ونصير وتابع ومحبّ ، واستناداً إلى هذا ، تتبين لنا دقّة استعمال الفعل ( ولي ) في نصّ الإمام ـ عليه السلام ـ ، فإذا أضفنا إلى هذه المعاني ، معنى الولاية الذي يُشعر بالتدبير والقدرة والفعل ( رقم ٥ ) ، أمسكنا بتحليل مقنع ووجيه لاختيار الإمام ـ عليه السلام ـ للفعل (ولي) ، كي ينهض بهذه المهمة المعرفيّة ، التي تكشف حسن تدبيره ـ عليه السلام ـ لغُسل النبي صلى الله عليه وآله فقد غسّله وقميصه عليه . وقد روى ابن سعد في طبقاته ما يأتي (( بينما هم يُغسّلون النبي صلى الله عليه وآله إذ نودوا لا تجرّوا

(١) يُنظر : لسان العرب ( ولي ) .

رسول الله ﷺ ))[١] ، وهذا النداء الربّاني جاء ليؤكّد للآخرين صحّة تدبير علي ـ عليه السلام ـ الذي أعُلم به قبلُ ، إما من النبي ﷺ، وهو يستعد للقاء الله تعالى ، وإما أُلهمه الإمام ـ عليه السلام ـ إلهاماً ، ولكي لا يتقول المتقولون ، فأسمعهم الله تعالى ذلك النداء .

ثم يشير الإمام ـ عليه السلام ـ إلى معونة الملائكة في غُسل رسول الله ﷺ بقوله (( والملائكة أعواني )) ، فكيف كانت معونة الملائكة له ؟.

تشير الروايات إلى إنّ العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس وأسامة بن زيد حضروا مع الإمام ـ عليه السلام ـ غسل رسول الله ـ ﷺ ـ ، وكان الإمام يُغسّله والفضل وأسامة يحجبانه والعباس قاعد عند السترة[٢]، ولم يحتج الإمام إلى معونتهم ، لأن الملائكة تكلّفوا بتغسيل الجسد الطاهر بإجماع المسلمين ، وأحسّ الإمام ـ عليه السلام ـ بهذه المعونة في تغسيله ، من خلال سهولة ذلك ويُسره عليه . يقول ـ عليه السلام ـ واصفاً هذا الفعل الرباني : (( فما تناولتُ عضواً إلا كأنما يُقلّبه معي ثلاثون رجلاً حتى فرغت من غسله ))[٣].

---

(١) يُنظر : الطبقات الكبرى ٢/ ٢٧٦ .

(٢) ينظر: م .ن ٢/ ٢٧٧ ، المسترشد ٣٣٧ .

(٣) المسترشد ٣٣٧ .

إنّ عون الملائكة هنا ، كان منقاداً لما أراده الإمام ـ عليه السلام ـ من إجراء غُسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وفق السنة المتّبعة في ذلك ، فكانت المعونة استجابة لما يريده الإمام ـ عليه السلام ـ من تقليب الجسد الطاهر ، وهذا الفعل لا تتحقق فيه شروط السنة ، لولا الملائكة الذين تكلفوا بذلك . وهذا كلّه كان كافياً لأن يبقى الثلاثة ( العباس والفضل وأسامة ) بعيدين عن غُسل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، هذا فضلاً عن أنّهم سمعوا أيضاً ما قاله النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ للإمام ـ عليه السلام ـ بهذا الشأن ((يا علي أنت تغسل جثتي وتؤدي ديني وتواريني في حفرتي وتفي بذمتي ، وأنت صاحب لوائي في الدنيا والآخرة))[1].

والإمساك بدلالة هذا الحديث ، توفّر لهم ( أي العباس والفضل وأسامة ) اطمئناناً نفسياً ، بأنّ إحجامهم عن غُسل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، استجابة لوصيته هذه التي تكشف لنا ضرباً آخر من ضروب المكانة الخاصّة التي أرادها الله سبحانه وتعالى لعلي ـ عليه السلام ، ولا يصحّ أن يقترب من شؤونها أحد غيره ؛ لأنّ هذه إرادة الله في عباده ، هذا فضلاً عمّا توفّره (دلالة الحديث) من ردّ فاعل على خصومه الذين ادّعوا قرباً من النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فنازعوه أمر خلافته ، وحاولوا تهميش ما هو كائن عقائدياً في نفوس المسلمين .

---

(١) كنز العمال ١١/ ٦١٢ .

وهكذا يظهر لنا هذا الجزء من كلام الإمام ـ عليه السلام ـ إبانة وكشفاً ، يجيبان عن كثير من الأسئلة التي تدور حول قضايا تتصل بلب العقيدة الإسلاميّة على النحو الذي بسطناه قبل قليل .

ثم يأتي قوله ـ عليه السلام ـ (( فضجّت الدار والأفنية ، ملأ يهبط وملأ يعرج وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلون عليه حتى واريناه في ضريحه ))[١].

حرص نصُّ الإمام ـ عليه السلام ـ هنا على بيان اشتراك الملائكة مع المسلمين ، في تأبين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، إذ ضجّت الدار وأفنيتها بهم ، والضجيج في اللغة يعني ما يأتي[٢] :-

١ـ ضجَّ القوم يضجون ضجيجاً : فزعوا من شيء وغلبوا .

٢ـ ضجَّ : اذا صاح مستغيثاً.

٣ـ الضجيج : الصياح عند المكروه والمشقّة والجزع .

لقد نسب الإمام ـ عليه السلام ـ هنا الضجيج إلى الدار وأفنيتها، مستثمراً تقنيات ( المجاز ) ، للإيماء إلى ضجيج الملائكة ، كي يصل المتلقي إلى المعنى ، مستدلاً بما يعرفه من ضروب التعبير بلغته ، فضلاً عن السمت الجمالي الذي يحققه هذا الأداء الفني إذ يقدم الإمام ـ عليه السلام ـ ضروباً من البلاغة في حديثه ليكون ما يقدّمه نهجاً للبلاغة حقاً .

---

(١) نهج البلاغة ٢/ ١٥٧ .

(٢) يُنظر : لسان العرب ( ضجج ) .

إنّ هذه الأفواج الهابطة والصاعدة من الملائكة ، كانت تصيح مستغيثة من شدّة المشقّة بفقد رسول الله ﷺ، على وفق معاني الجذر (ضجج) أعلاه . وكان الإمام ـ عليه السلام ـ يسمع هذا الضجيج ولم تغب عن سمعه ( هينمة ) منهم ، والهينمة : الصوت غير البيّن ، فهو ـ عليه السلام ـ يسمع ما علا وما خفي من أصوات الملائكة من دون أن تلتبس عليه لكثرتها واختلاطها مع بعضها . وجاء استعمال لفظة ( الهينمة ) للتدليل على هذا الأمر الذي كشف عن نفسه بوساطة استعمال الإمام ـ عليه السلام ـ الدقيق للغة .

إنّ إعادة النظر في القول السابق للإمام ـ عليه السلام ـ تحيلنا إلى القول ، إنّه ـ عليه السلام ـ كان يرى نور أفواج الملائكة الهابطة والصاعدة ، ولو كان الأمر يتعلق بالسمع فقط ، لما ذكر هذه الحركة الملائكيّة في الهبوط والصعود ، وهذا أمر ألفه ـ عليه السلام ـ منذ نزول الوحي على النبي ـ ﷺ ـ ، فقد جاء مثل هذا في قول له يصف فيه مجاورة النبي ﷺ في غار حراء . يقول فيه : (( ... أرى نور الوحي والرسالة ، وأشمّ ريح النبوة ، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة ؟ فقال : هذا الشيطان آيس من عبادته ، إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلّا انك لست بنبي ، ولكنك وزير وإنك لعلى خير ))[1].

(١) نهج البلاغة ٢/ ١٥٨.

عمّا سبق تؤيده روايات كثيرة ، وردت في مصادر المسلمين ، إذ نصّت إنّ الملائكة عزّت أهل البيت ـ عليهم السلام ـ بفقد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا الأمر مألوف عند أهله ، وعند المسلمين آنئذٍ ، ولا يُعدُّ خرقـًا للمألوف في وقته بعد ما تبيّن لنا مما سبق صلة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ بالسماء . وقد أوردت المصادر ما يأتي : ((لما مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمعوا صوتـًا ولم يروا شخصـًا يقول : كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وقال : إنّ في الله خلفـًا من كل هالك وعزاء من كل مصيبة ودركـًا مما مات فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا وإنما المحروم من حرم الثواب))[١].

ولعل عودة أخرى إلى قول الإمام ـ عليه السلام ـ ، تكشف لنا أمراً آخرَ نراه جديراً بالتمعّن والتدبّر ، فقد خصَّ الإمام ـ عليه السلام ـ الملأ من الملائكة بالذكر فمن هؤلاء الملأ ؟ .

إنّ العودة إلى الاستعمال الاجتماعي للجذر ( ملأ ) ، تعيننا على الوصول إلى مقاربة معرفية للمراد بالملأ من الملائكة . جاء في لسان العرب تحت الجذر ( ملأ )[٢] :-

---

(١) الكافي ٢/ ٢٢١ .

(٢) يُنظر : لسان العرب (ملأ) .

١ـ الملأ : الرؤساء ، سُمّوا بذلك لأنّهم مِلاءْ بما يُحتاج إليه .

٢ـ الملأ : أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يُرجع إلى قولهم .

إنّ استقراء هذا الاستعمال يكشف لنا إنّ من هبط من الملائكة ، هم سادتهم واشرافهم ورؤسائهم الذين وكل الله ـ عز وجل ـ إليهم مواساة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله ، وهذا وجه من وجوه المقام المحمود الذي وعد الله تعالى به نبيّه صلى الله عليه وآله في قوله ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾[1]، ويقرر الإمام ـ عليه السلام حقيقة أخرى في قوله السابق، وهي صلاة الملائكة الهابطين علي النبي صلى الله عليه وآله ـ (( يصلون عليه حتى وارياه في ضريحه )) ، فكيف نتأوّل دلالات هذا الجزء من كلام الإمام ـ عليه السلام ـ ؟ .

إنّ الغاية من التأويل الذي نتبنّاه هنا ـ كما ألمحنا ـ ، هي الوصول ـ ما أمكننا ذلك ـ إلى المعنى الذي يتضمنه النّص ، والنص هنا يشير إلى صلاة الملائكة على النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ، ولفظة ( الصلاة ) هنا ، أما أنْ تكون بمعناها اللغوي أو الاصطلاحي لأنها تتعلق بالملائكة ، فلا بد إذاً من استحصال توجيه لصلاة الملائكة .

---

(١) الإسراء: ٧٩.

إن هذه الصلاة تكون على واحد من وجهين :

الوجه الأول : الصلاة بمعناها الاصطلاحي المعروف ، وهي القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح . وهذا الوجه يختص بالصلاة المفروضة على الانسان المسلم . بيد أنّ ابن الأعرابي ، يرى أيضاً ، أن الصلاة من الملائكة تكون من ضروب هذا الوجه ، يقول : (( الصلاة من الله رحمة ، ومن المخلوقين الملائكة والأنس والجن : القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح ))[١] ، والصلاة المعهودة أقامها النبي ـ ﷺ ـ للملائكة لما أسري به إلى السماء ، فعن أبي جعفر ـ عليه السلام قال : (( لما أسري برسول الله ـ ﷺ ـ إلى السماء فبلغ البيت المعمور وحضرت الصلاة ، فأذن جبرئيل وأقام وتقدم رسول الله ـ ﷺ ـ وصفَّ الملائكة والنبيّون خلف محمد ـ ﷺ ـ ))[٢].

فالصلاة من الملائكة بمعناها العبادي تؤدى على وفق ما يريده الله سبحانه وتعالى . وهكذا تتعاضد هذه النصوص والشواهد ، لتجعلنا نتمسك بقراءتنا التأويلية التي وصفنا فيها سماع الإمام ـ عليه السلام لأصواتهم ورؤيته لنورهم ، وهم يصلّون على النبي ـ ﷺ ـ جماعات جماعات بعضهم في إثر بعض .

---

(١) يُنظر : لسان العرب (صلى) .

(٢) الكافي ٣/ ٣٠٢ .

يؤيد هذا ما أورده ابن أبي الحديد عن صلاة الملائكة على النبي ـ ﷺ ـ بعد موته ، فقد أورد إن النبي ـ ﷺ ـ أخبر أصحابه عن هذا الأمر بقوله : (( ... فإن أول من يصلّي على جليسي وحبيبي جبرائيل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم ملك الموت مع جنوده من الملائكة ... ))[١].

الوجه الثاني : الصلاة بمعناها اللغوي ، وهو دعاء الملائكة واستغفارهم للنبي ـ ﷺ ـ ، وهذا المعنى يقودنا طوعـاً إلى قبوله ؛ لأنّ الأصل في الألفاظ دلالاتها الاجتماعية ، ثم تنتقل إلى الدلالات الاصطلاحية ، والصلاة تعني الدعاء في أصل استعمالها اللغوي[٢].

وعلى وفق هذا التوجيه تكون صلاة الملائكة على النبي ـ ﷺ ـ دعاء واستغفاراً وحسن ثناء .

وهذا الوجه يتوافق مع صلاة الملائكة على النبي ـ ﷺ ـ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[٣]، يقول السيد الطباطبائي في الميزان (( ... إن أصل الصلاة الانعطاف ، فصلاته تعالى انعطافة عليه بالرحمة انعطافاً مطلقاً

(١) شرح نهج البلاغة ١٣/ ٣٠ .

(٢) يُنظر : لسان العرب (صلى) .

(٣) الأحزاب: ٥٦.

لم يقيد في الآية بشيء دون شيء ، وكذلك صلاة الملائكة عليه انعطاف عليه بالتزكية والاستغفار ، وهي من المؤمنين الدعاء والرحمة ))[١].

والذي نخلص إليه إنّ صلاة الملائكة التي أرادها الإمام ـ عليه السلام ـ في قوله ، تعني الوجهين معـًا ، بعدما أظهر كل وجهٍ متانته وأسس قبوله المكينة .

إن الحديث عن صلاة الملائكة يقود حتمـًا إلى الحديث عن صلاة المسلمين على النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ، وهذا أمر يستدعي استحضار معاني ( التدبير والقدرة والفعل ) التي وقفنا عندها في دلالة ( ولي ) . إذ دبّر الإمام ـ عليه السلام هذا الأمر . حين صلّى عليه لوحده ، ثم خرج إلى المسلمين ، فقالوا له : كيف الصلاة عليه ؟ ، قال ـ عليه السلام ـ (( إنّ رسول الله أمامنا حيّاً وميتاً ، فدخل عليه عشرة عشرة ، فصلّوا عليه يوم الاثنين وليلة الثلاثاء حتى الصباح ، ويوم الثلاثاء ، حتى صلّى عليه كبيرهم وصغيرهم وذكرهم وأنثاهم ... بغير إمام ))[٢].

لقد أبعد الإمام ـ عليه السلام بهذا التدبير ، أيَّ خلاف بين المسلمين في شأن إمامة الصلاة ، ومن يتقدم ومن يتأخر ، لأنّه هو الولي ، وهو صاحب

---

(١) الميزان ١٦/ ٣٣٨ .

(٢) بحار الأنوار ٢٢/ ٥٢٩ .

القول الفصل في هذا كلّه ، ومن هنا لم نسمع أيَّ تذمر أو اعتراض من المسلمين على ما قاله ـ عليه السلام ـ .

وبالحكمة ذاتها ، أبعد الإمام ـ عليه السلام ـ المسلمين عن الاختلاف في موضع دفن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ، بعد أن سمعهم يخوضون فيه ، فقال قوله الحاسم في هذهِ القضية (( إنّ الله سبحانه لم يقبض نبيـًا في مكان إلّا وارتضاه لرمسه فيه ، وإني دافنه في حجرته التي قُبِضَ فيها فرضي المسلمون بذلك ))[١].

والآن يبقى من قول الإمام ـ عليه السلام (( حتى وارياه في ضريحه )) ، والضريح في معناها اللغوي تعني هذهِ الدلالات[٢] :-

١ـ الضريح : القبر .

٢ـ الضريح : الشق وسط القبر .

٣ـ الضريح : القبر كلّه .

٤ـ الضريح : بيت في السماء حيال الكعبة ، وهو البيت المعمور .

إنّ قول الإمام ـ عليه السلام هنا يتضمن المعاني الأربعة كلّها ولكنّ المعنى الرابع يبقى ذا دلالة خاصة ؛ لأنّه يشير إلى البيت المعمور ، وهنا نقول إنّ

---

(١) بحار الأنوار ٢٢/ ٥٢٩

(٢) يُنظر : لسان العرب (ضرح) .

الإمام ـ عليه السلام ـ يدرك بما حباه الله تعالى من علم إنّ ضريح النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يكون كالبيت المعمور الذي السماء ، إذ تهوي إليه أفئدة المسلمين يتبركون به ، ويستغفرون الله تعالى عنده ، ويطلبون منه أن يستغفر لهم لأنّه حي عند ربه ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾[1].

ولعلّ من المناسب هنا أن نستعين برواية أوردها ابن أبي الحديد في شرحه ، تظهر لنا إدراك المسلمين عصرئذٍ لأهمية الدعاء والعبادة عند ضريح النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، تقول الرواية (( قدم أعرابي على قبر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، قلت فقبلنا وتلوت فوعينا ثم ظلمنا أنفسنا ، وقرأنا فيما أتيتنا به عن ربنا ( ... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ... ) اللهم ، إنّا قد جئنا رسولك ونحن نستغفرك ، ونسأل رسولك أن يستغفر لنا خطايانا فاغفر لنا وتب علينا ))[2].

واستناداً إلى هذا تظهر لنا وجاهة تأملنا في قول الإمام ـ عليه السلام ، واستعماله للفظة الضريح ، دون لفظة ( القبر ) . يؤيد هذا إن الإمام ـ عليه السلام

(١) النساء: ٦٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ٦/ ١٨٨ .

استعمل هذه اللفظة في حديثه وهو في الكوفة ، والمسلمون كلّهم يرون بأبصارهم ما آل إليه ضريح رسول الله ـ ﷺ ـ ، بوصفه مكانـًا للاستغفار والدعاء وضروب التعبد الأخرى . فكان استعمال لفظة الضريح بهذه الدلالة الروحية أكثر وقعـًا في النفوس .

## دفن رسول الله ـ ﷺ ـ :

ويختم الإمام ـ عليه السلام ـ حديثه عن تجهيز رسول الله ـ ﷺ ـ ودفنه بقوله : (( إني كنت آخر الناس عهداً برسول الله ودليته في حفرته ))[١] ، وفي قول آخر له : (( ... أفيكم أحد وضع رسول الله في لحده وكان آخر الناس عهداً غيري ))[٢] .

ابتداءً نقول إنّ هذين القولين ، ليس قولاً واحداً اختلفت الروايات لتقاربهما ، بل هما قولان حقـًا ، يمثل الأول إشارة الرسول ـ ﷺ ـ إلى ضريحه ، والثاني وضعه ـ ﷺ ـ في لحده . وهذا ما قام به علي ـ عليه السلام ـ في الحالين . ليكون آخر الناس عهداً به ، بعد وفاته .

وقد حاول بعضهم أن يكون صاحب هذا الشرف ، ( آخر الناس عهداً بالنبي ـ ﷺ ـ ) ، فقد رُوي إنّ المغيرة بن شعبة أسقط خاتمه في قبر

(١) الخصال ٥٧٢ .

(٢) شرح الأخبار ٢/ ١٨٩ .

رسول الله ـ ﷺ ـ ، ليكون آخر الناس عهداً به ـ ﷺ . إذا نزل لأخذ خاتمه[١] .

وإذا أخذنا بالرواية التي تقول إن الإمام ـ عليه السلام أذن له بالنزول لأخذ خاتمه ، وهذا ما كان يحدّث به المغيرة في الكوفة حينما كان والياً عليها ، إذ قال (( أنا آخر الناس عهداً بالنبي ـ ﷺ ـ لما دفن النبي ـ ﷺ ـ وخرج علي من القبر ، ألقيت خاتمي ، فقلت يا أبا حسن خاتمي ، قال : انزل فخذ خاتمك فأخذت خاتمي ووضعت خاتمي على اللبن وخرجتُ ))[٢]. فهذا لا يعني أن المغيرة كان على نحو ما وصف نفسه ، إذ إنّ الإمام عليه السلام وضع الرسول ـ ﷺ ـ في لحده ، وكان آخر الناس عهداً به في هذا الآن ، ثم حجز اللحد عن القبر باللبن ، ونزل المغيرة ووضع خاتمه على اللبن ، فلا نحسبُ أنّه آخر الناس عهداً بالنبي ـ ﷺ ـ ؛ لأنّه أراد ذلك، حتى يقال ما قاله كما أنبأه الإمام ـ عليه السلام ـ كما مرّ ـ .

بل إن من العلماء من عدّ حديث المغيرة غريباً ، وقال (( ولم يصح ذلك ولم يحضر دفنه ، فضلاً عن أن يكون آخرهم عهداً به ))[٣].

---

(١) يُنظر : شرح الأزهار ١/ ٤٤٣ ، وينظر سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦ .

(٢) الطبقات الكبرى ٢/ ٣٠٣ .

(٣) يُنظر : أسد الغابة ١/ ٣٤ ، وينظر تاريخ مدينة دمشق ٦٠ / ٣٩ .

ولعلَّ من المناسب -هنا- أنْ نستعين بالشعر لتوثيق هذهِ الحادثة ، فقد روي عن الصحابي خزيمة بن ثابت ( ذي الشهادتين ) أنّه قال عن الإمام - عليه السلام - :

ألـيس أوّلَ مـن صـلّى بقبـلتهم وأعـرف النـاس بالآثـارِ والسُـننِ
وآخـرُ النـاسِ عهـداً بـالنبي ومـن جبريلُ عونٌ له في الغسلِ والكفنِ[1]

## تأبين النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :

وقف الإمام علي - عليه السلام - والرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - مسجى أمامه بعد تجهيزه ، وقال كلام تأبين بحقه ، بسط فيه عظم الرزيّة وجلل المصيبة ، وعرض خلال ذلك بعض المضامين التربوية والدينية والروحية التي يحتاجها المسلمون في حياتهم المقبلة ، بتنظيم جمالي وبلاغي وعاطفي ، يستدعيه الموقف وتتطلبه النفوس المؤمنة .

يبدأ الإمام - عليه السلام - تأبينه للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله (( بأبي أنت وأمي ))[2] ، وهذا من تعبيرات العرب المألوفة عصرئذٍ ، كانوا يقولونه للأحياء من

(١) يُنظر : روضة الواعظين٨٧ ، وينظر الفصول المختارة ٢٦٨ وفيه لربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ، وشرح نهج البلاغة ٦/ ٢١ ، وفيه لبعض ولد أبي لهب .
(٢) نهج البلاغة ٢/ ٢٢٨ .

ذوي الشأن منهم وأصحاب البأس والسلطان خاصة ، ومعناه (( فداك أبي وأمي ))[١] ، والإنسان لا يجعل أباه وأمه فداءً لأحد ، إلّا إذا كان له من المنزلة والقدر والمحبّة ما يجعله حقيقاً بذلك ، وكأن من يقول ذلك يريد بقوله أنْ يُبعد عمّن يفديه كل سوء ما دام حيّاً ، فيفدّيه بالأب والأم ، لأنهما أصل الإنسان وأكرم ما عنده ، إذ يستمد منها كل فضيلة بعد أن كانا سبباً ـ بمشيئة الله تعالى ـ في وجوده.

ومن هنا تظهر أهمية هذه ( التفدية ) . ولكنّ اللافت للنظر في قول الإمام ـ عليه السلام ـ أنّه نقل هذا التعبير من خطاب الحيّ إلى خطاب الميت ـ في الظاهر ـ ، ولم نعثر ـ في حدود ما اطلعنا عليه ـ من نحا هذا النحو بهذه التعبير ، فكيف نتأول هذا التوجيه ؟ .

إنّ الإمام ـ عليه السلام ـ بعدوله بهذا التعبير ، ذكّر المسلمين ـ وهم يسمعون ـ بأنَّ النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حيّ يسمع ما يقوله له . وما يرونه أمامهم مما هو فيه ، انتقال من دار فانية إلى دار خلود في ظلّ عرش الله تعالى .

إنّ دعاء الإمام هذا يعني فيما يعنيه الاستمرار بالتمسك بمحبته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لأنّ ( التفدية ) المشار إليها لا تُقال إلّا لمحبوب ، حتّم حبه ومودته هذا الضرب من التعبير ، وهذا الحبّ وجه من وجوه الإيمان التي أشار إليها

(١) يُنظر : مغني اللبيب ١٣٧ ، همع الهوامع ٢/ ٢١ .

النبي ـ ﷺ ـ في جملة أحاديث ، منها قوله ـ ﷺ ـ : (( لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ))[١] ، فمحبته ـ ﷺ ـ واجبة على المسلمين في العصور كلّها إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذه المحبة ، تتجسّد ـ بعد انتقاله إلى الملكوت الأعلى ـ في التمسّك بسنّته والسير على هديه في الحياة ، على النحو الذي كان عليه ـ ﷺ ـ في الحياة الدنيا . واستناداً إلى هذا التوجيه يكون قول الإمام ـ عليه السلام ـ دعوة للمسلمين للتمسّك بسنّته ـ ﷺ ـ ؛ لأنّها المظهر الأمثل للمحبّة المشار إليها ، وسنته ـ ﷺ ـ يجسّدها أهل البيت ـ عليهم السلام ـ فهم شجرة النبوة ، يقول ـ عليه السلام (( ... ونحن شجرة النبوة ومحط الرسالة ومختلف الملائكة ))[٢]. وهذه الصفات الثلاثة يدركها المسلمون جميعاً ، فالتمسّك بالسنّة ـ المشار إليها ـ يعني ـ فيما يعنيه ـ التمسّك بأهل البيت عليهم السلام .

ثم يأتي قوله ـ عليه السلام (( لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء ))[٣] .

---

(١) يُنظر : مسند أحمد ٢/ ٢٣٣ ، وفي السنن الكبرى ٦/ ٥٣٤ وفيه (( ... أحب إليه من ماله وأهله والناس أجمعين )) .

(٢) نهج البلاغة ١/ ٢١٥ .

(٣) نهج البلاغة ٢/ ٢٢٢ .

وهنا يشير عليه السلام إلى انّ موت النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ لم يكن كموت غيره ، من الخلق ، وبضمنهم الأنبياء السابقين ، إذ لم ينقطع بموتهم ما انقطع بموته ـ صلى الله عليه وآله ـ من النبوة أولاً ، فهو النبي الخاتم ، وكان موته ايذانـًا بانتهاء النبوات وما يتّصل بها ، وما تأتي به من أخبار عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ لأنّ من سبقه من الأنبياء كانوا يبّشرون بنبوته على نحو ما ورد في القرآن الكريم على لسان عيسى ـ عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقـًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1] .

أمّا هو ـ صلى الله عليه وآله ـ ، فلا نبي بعده ، ومن هنا كان انقطاع النبوة وأخبار السماء مرتبطين برحيله ـ صلى الله عليه وآله ـ .

بيد ثمة أمر يلوح هنا ، وهو كيف نوفّق بين هذا الذي فصلنا فيه القول وبين معجزات الإمام علي ـ عليه السلام نفسه ، والأئمة الآخرين من بعده ، ومعرفتهم بأمور غيبية شاع خبرها بين المسلمين ، وهنا نجيب بما يأتي :-

إنّ حديثَ الإمام ـ عليه السلام هنا قاطع بشأن ختام النبوة بمحمد ـ صلى الله عليه وآله ـ ، وانقطاع أخبار السماء بموته . لكنّ هذا الحديث لا يناقض أنْ يكون الأئمة عليهم السلام وفي مقدمتهم الإمام ـ عليه السلام ، على صلة بأخبار السماء ؛ لأنّ

(١) الصف: ٦ .

الله ـ عز وجل ـ أشار في القرآن الكريم إلى انّ عباداً ليسوا بأنبياء كانوا على اتّصال بوحي السماء كأم موسى ـ عليه السلام ـ والخضر ومريم ، وكانت قلوبهم أوعية لما يريده الله تعالى ، إذْ يدّخر فيها لهم ما يشاء من مكنون علمه ، كما بسطت ذلك كثير من الآيات القرآنية .

وبخصوص الإمام ـ عليه السلام ـ ، فإذا حصل مثل هذا الأمر ، فلا يشترط أنْ يجاهر به ، وإنما يُظهر منه بالقدر الذي يحفظ مصلحة المسلمين ، ولا يشترط ـ أيضاً ـ أن يكون عنوانه ما يقوله هو الوحي . وقد بيّن ذلك بالتفصيل الشيخ المفيد حينما قال (( وعندنا أنّ الله تعالى يسمع الحجج بعد نبيّه ـ صلى الله عليه وآله ـ كلاماً ، يُلقيه إليهم في علم ما يكون ، لكنّه لا يطلق عليه اسم الوحي ، لما قدمناه من إجماع المسلمين على انّه لا وحي إلى أحد بعد نبينا ))[1] ، وهذا الكلام يتماهى تماماً مع مراد الإمام ـ عليه السلام ـ ، واستناداً إلى هذا ، حقَّ لنا ما فهمناه من قول الإمام ـ عليه السلام ـ ويحق لنا ـ أيضاً ـ أنْ نفهم على وفق هذا الإدراك قول الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ ((أيّ إمام لا يعلم ما يصيبه والى ما يصير ، فليس ذلك بحجة على خلقه))[2] .

بقي أنْ نشير – هنا – إلى ما أودعه الإمام ـ عليه السلام ـ في هذا المقطع من

(١) تصحيح اعتقادات الامامية ١٢٠ .

(٢) الكافي ١/ ٢٥٨ .

كلامه من نغمة عاطفية ، يُتلمس منها ذلك الحنين الذي يشدّه إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعد رحيله .

ثم يأتي قوله عليه السلام : ((خصصت حتى صرت مُسلّيًا عمن سواك، وعممت حتى صار الناس فيك سواء ))[١]. ويظهر فيه الإمام ـ عليه السلام وجهًا من وجوه سيرة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع خاصته ومع المسلمين ، فقد كان خاصًا لأهل بيته ـ عليهم السلام ، يدبّر لهم شؤون دينهم ودنياهم ، فلا يحتاجون مع وجوده إلى أحد ، فهو المسلّي لهم ، المالئ عليهم حياتهم . وقد أدرك الإمام ـ عليه السلام هذه الصفة وتحسَّسها ، لأنه عاش في كنف النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أكثر من ستين سنة ، وكان خاصًا به وبأهل بيته حقًا. يقول الإمام ـ عليه السلام عن هذهِ الخصوصية (( ... وقد علمتم موضعي من رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا وليد ، يضمّني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ، ويشمني عرفه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فِعل ، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل إثر أمّه ))[٢] ، ومن هنا جاء قوله ـ عليه السلام للإشارة إلى خصوصية النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ به وبأهل بيته ، وهذه الخصوصية يجسدها

(١) نهج البلاغة ٢/ ٢٢٢ .

(٢) م . ن ٢/ ١١٣ .

قول آخر للإمام ـ عليه السلام ، يظهر علاقتها بشؤون الدين والمعرفة ، وهي قوله ((كنت إذا سألتُ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ أجابني ، وإنْ فنيت مسائلي ابتدأني...))[1]. فخصوصية النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ بأهل بيته ـ عليهم السلام هنا، تعني أيضاً، أنّهم كانوا يستغنون به عن غيره في شؤون الحياة كلّها ، ولما كانت حياته ـ صلى الله عليه وآله ـ هي لله ـ عز وجل ـ وللإسلام ، وهذا هو شأن أهل بيته عليهم السلام ، فما يحتاجون إليه ، يجدونه عنده ، فصار خاصاً بهم لا يحتاجون إلى غيره.

ولا بأس من الإشارة هنا إلى إنّ ما نريده بأهل البيت ـ عليهم السلام ، هم أهل البيت ـ عليهم السلام الذين طهّرهم الله تعالى من الرجس في آية التطهير ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[2]، ولا يشترك معهم في هذا الشرف غيرهم من أقربائه ـ صلى الله عليه وآله ـ ؛ لأنّ بينهم من كان مشركاً فلا يصحّ أن يكون المراد بأهل البيت هؤلاء .

وثمة وجه آخر لقول الإمام ـ عليه السلام (( خصصت فكنت مُسلّياً ... )) ، ذهب إليه ابن أبي الحديد في شرحه ، حينما قال : (( خصصت وعممت ، أي خصّت مصيبتك أهل بيتك ، حتى انهم لا يكترثون بما يصيبهم بعدك

(١) بصائر الدرجات ١٩٨ .

(٢) الأحزاب: ٣٣ .

من المصائب ولا بما أصابهم من قبل ، وعمّت هذه المصيبة أيضاً الناس حتى استوى الخلائق كلّهم فيها ، فهي خاصة بالنسبة وعامة بالنسبة))[١].

وهذا وجه صحيح من وجوه قول الإمام ـ عليه السلام ، ولكنّ منهجنا التأويلي ، يحتّم علينا أن لا نقف بالمعنى عند وجه واحد ، بل نذهب إلى أيّ وجه محتمل يرضاه السياق ، ويكون مما يمكن أنْ يوجّه الإمام ـ عليه السلام به المسلمين في شؤون دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وذهب إلى ما يقرب من هذا الشيخ محمد عبده ، حينما قال : ((النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ خصّ أقاربه وأهل بيته حتى كان فيه الغِنى والسلوة لهم عن جميع من سواه ))[٢].

وهذا وجه آخر مقبول ، إذ يقترب من رأي ابن أبي الحديد السابق ، ولكننا لا نرى إدخال أقارب النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بخاصته ، للأسباب الذي ذكرناها قبل قليل .

أمّا صلة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعامة المسلمين ، فيتساوى فيها الجميع ، لا يشعر معها المسلم إلّا بقربه من النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كقرب غيره ، فرأى الناس أنفسهم أمامه سواء ، لا يتقدّم أحد على أحد إلّا بفضله في الإسلام ،

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٣/ ٢٤ .

(٢) يُنظر : نهج البلاغة ١/ ٢٢٨ .

وتقواه ، وقربه من الله عز وجل ، وهذا الذي جعل الناس سواء فيه ، استناداً إلى قول الإمام ـ عليه السلام ـ .

إنّ الإمام ـ عليه السلام ـ بهذا المقطع من التأبين ، أوجز سيرة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بين المسلمين ، إذ جعلهم ينعمون بعدله مدة حياته ، ومن هنا تتبين عظم المصيبة بفقده ، وكأنه ـ عليه السلام ـ جمع أحاسيس المسلمين ومشاعرهم في هذا النصّ ، ليتبين من خلال ذلك كلّه أهمية التمسّك بسيرته بوصفه ـ أي التمسك ـ الضرب الأظهر من الوفاء له .

ثم يقول الإمام ـ عليه السلام ـ (( ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفذنا عليك ماء الشؤون ))[1].

إنّ مقاربة أولى لهذا الجزء من تأبين الإمام ـ عليه السلام ـ ، تكشف عن حقيقة الألم الذي يشعر به بعد فقد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، إذ استعانَ على بيانه بتمسكه بالصبر الذي أمر به رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، وهو يبلّغ عن الله ـ تعالى ـ ، في عظم منزلة الصابرين عنده ﴿... إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]، وقد نسب الإمام ـ عليه السلام ـ أمر الصبر إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لأنه الناطق بالقرآن ، وطاعة أمره طاعة لله تعالى.

بيد أن ثمة توجيهاً آخر ، يواجهنا ونحن نتأمل قول الإمام ـ عليه السلام ـ ،

---

(١) نهج البلاغة ١/ ٢٢٢ .

(٢) الزمر: ١٠ .

هذا ، وهو إنّ النبي ـ ﷺ ـ أمر أهل بيته بالصبر على فقده ، وعلى ما يرافق ذلك الفقد من أذى لهم والإيماء إلى ما سيقع عليهم ، وعلى الرغم من هذا كلّه ، فهم صابرون محتسبون مستبشرون بما عند الله تعالى ؛ لأنّ في الصّبر نجاة من هلكةِ الجزع . يقول ـ عليه السلام (( من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع ))[١] .

أما ماء الشؤون الذي ذكره الإمام ـ عليه السلام ، فكنّى به عن كثرة البكاء الذي يستدعيه فقد رسول الله ـ ﷺ ـ ، لولا الصبر المأمور به ، والشؤون هي (( مواصل قبائل الرأس وملتقاها ومنها تجئ الدموع ))[٢].

وكان حال المسلمين آنئذٍ يستدعي صبراً وجلداً وتماسكًا على الرغم من فداحة الخطب وجلل المصاب . وكان الإمام ـ عليه السلام ـ يرى ذلك كلّه ؛ ولذا ردّ على يهودي حاوره مرة بقوله مبينًا ما نحن بشأنه ((وحملتُ نفسي على الصبر عند وفاتهِ ، ولزمت الصمت والأخذ فيما أمرني به من تجهيزه وغسله وتحنيطه وتكفينه والصلاة عليه ووضعه في حضرته))[٣].

---

(١) نهج البلاغة ٤/ ٤٣ .

(٢) يُنظر : لسان العرب ( شأن ) .

(٣) يُنظر : شرح الأخبار ٢/ ٢٤٦

و يقول ـ عليه السلام ـ واصفـاً ـ بعد حين ـ ما ألمّ به وبأهل بيته ـ عليه السلام ـ من ألم بعد فراق رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ (( ... فنزل بي من وفاة رسول الله ، ما لم تكن الجبال لو حملته لحملته ، ورأيت أهل بيته بين جازع لا يملك جزعه ولا يضبط نفسه ولا يقوى على حمله ما نزل به ، قد أذهبَ الجزعُ صبره وأذهل عقله وحال بينه وبين الفهم والإفهام وبين القول والاستماع ))[1]، يُبدي الإمام ـ عليه السلام ـ في هذا القول ما حلّ به ، إذ استعمل الفعل ( نزل ) لبيان عظم أمر وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، و( نزل ) يشعرك بالهبوط من علوّ ثم الحلول ، وهذا الأمر لا تحمله الجبال ، وهذه التكنية تظهر الأسلوب الجمالي الذي يحمل المضمون الذي أراده الإمام ـ عليه السلام ـ على الرغم من انّه ـ عليه السلام ـ لا يقصد هذا ، فبلاغة كلامه بلاغة فطرية ـ كما مرّ بنا ـ ولكنّه استعان بالجبال ليتيح للمتلقي فرصة التأمّل في كلامه ليقف على مبلغ الحزن الذي استوطن نفسه الكبيرة ، وكيف وقف متماسكـاً قبال ذلك كلّه، لا يريد أن ينشغل بغير ما أمر به النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، وتنفيذ وصيته ، وقد أمده إيمانه المطلق بمقومات الثبات في هذا الموطن وما تلاه من أحداث، على الرغم من أنّ هُناك من وقف يعطي للإيمان فهمـاً جائراً لتحقيق مآربه.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١/ ٢٣٣ .

وينتقل الإمام ـ عليه السلام ـ إلى وصف حال أهل بيت النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ فيرسم لهم صورة حركية ، فهذا جازع ، لا يقدر على ردّ هذا الجزع ، ولا يستطيع ضبط نفسه ، وتراه عاجزاً عن حلّ ما نزل به من هول المصيبة ، وهذا التوصيف العلوي يرينا بالبصر والبصيرة ـ إذا استنبطنا النصّ ـ ، كان عليه أهل البيت ـ عليهم السلام ساعة رحيل رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ، فالجمود على ظاهر النص ، لا يمنحنا القدرة على تخيل ما أراد الإمام ـ عليه السلام بسطه في حديثه .

إنّ حديث الإمام ـ عليه السلام عن جزع أهل بيته ـ عليه السلام ، وقلة صبرهم ، لا يعني أبداً ذلك الجزع المنهي عنه في الإسلام ، فذاك يرافق قلة الإيمان عند المسلم ، إذا نزل به قضاء من الله تعالى . أما إذا كان مؤمنـًا فيتذكر مصيبته برسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ الذي ذهبت بصبر أهل بيته ـ عليهم السلام ، وهنا يعود المسلم إلى باحة الصبر مطمئنـًا ، إذا تذكر هذا كلّه ، وقد قال الإمام الصادق ـ عليه السلام (( إن أصبت بمصيبة في نفسك أو مالك أو في ولدك فاذكر مصابك برسول الله ، فإنّ الخلائق لم يصابوا بمثله قط ))[1]. فكل مصيبة بعد مصيبة رسول الله صلى الله عليه وآله غير مسموح بها الجزع .

وهذا ما كان من شأن أهل البيت ـ عليهم السلام بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فقد قيل إنه (( لما أصيب أمير المؤمنين ـ عليه السلام نعى الحسن إلى الحسين وهو

(١) الغارات ١/ ١٠٥ .

بالمدائن ، فلما قرأ الكتاب قال : يا لها من مصيبة ما أعظمها ، مع أنَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ قال : من أصيب منكم بمصيبة فليذكر مصابه بي فإنّه لن يُصاب بمصيبة أعظم منها وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ))[١] .

فعلى الرغم من أنَّ مصيبة أهل البيت بعلي ـ عليهم السلام تأتي بعد مصيبة النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ إلّا أنَّ الإمام ـ عليه السلام تذكر مصيبته بجدّه ـ صلى الله عليه وآله ـ ، امتثالاً لأمره وتنبيهـاً للمسلمين على أهميةِ توطين نفوسهم على ما يقضي الله تعالى ويقدّر . ولعلَّ في قوله عليه السلام هذا تسليةً لأهلِ البيتِ عليهم السلام ولصحابتهم السائرين على نهجهم ، والذين يألمون لألمهم ويحزنون لحزنهم ، بعد أنْ اجتمع عليهم فقدُ النبي صلى الله عليه وآله وفقدُ الإمام علي عليه السلام وهذا وجه من وجوهِ الزهدِ المحمودةِ عند أهل البيت ـ عليهم السلام [٢].

(١) وسائل الشيعة ٢/ ٩١١ .

(٢) يُنظر : وسائل الشيعة ١١/ ٣١٤ .

# الفصل الخامس

## الوفاء بالعهد
## أُسٌّ من أسس بناء الدولة والمجتمع

# الوفاء بالعهد
# أُسٌّ من أسس بناء الدولة والمجتمع

يُعنى هذا البحث بدراسة ( الوفاء بالعهد ) ، بوصفه أُسّـًا من الأسس التي أوصى بها الإمام علي ، عليه السلام ، الأشتر النخعي ، ليقيم بها ولايته على مصر . وقد جعل عليه السلام هذه القيمة الدينية والأخلاقية ضربـًا من ضروب الأمانة التي أمر الله ، عزّ وجل ، بصيانتها والتمسّك بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا...﴾[1]، ومن هنا أوجب الإمام عليه السلام على المسلمين التضحيةَ بالنفسِ من أجلِ الوفاءِ بالعهد ، وهذا رفع لشأن هذه القيمة التي تُسهمُ في بناءِ المجتمع . وترصّنُ العلاقات بين أبنائه . لقد أراد الإمام عليه السلام أنْ يبني حياة المسلمين على الوجه الذي يحقّقُ لهم سلامة دينهم ودنياهم ، بهذه القيمة العالية ، فخصّها بجزء من عهده إلى الأشتر ، ليُبصّره بذلك ، ويبصّر المسلمين عامة من خلاله ؛ لأنّ الوالي هو الأجدر بتطبيق ما يريده الإمام عليه السلام ليكون قدوة لرعيته في قيادته لهم . وسوف يُعطي هذا التشديد من الإمام عليه السلام ، بشأن الوفاء بالعهد للأعداء ، صورة عن سماحة الإسلام ، وحرص المسلمين على

(١) النساء: ٥٨ .

بناء الإنسان على الوجه الذي يريده الله تعالى ، إذْ يحرم عليهم الإخلال بالعهود مع غيرهم ، ويحتّم عليهم التمسّك بهذه الفريضة .

* * *

إنّ الوقوفَ على معاني الجذر ( عهد ) في الاستعمال الاجتماعي ، يهيء لنا الاطّلاع على الفضاء الدلالي الذي تتحرك فيه المعاني التي تحتضنها السياقاتُ التي ترد فيها تلك المفردات . وعودةٌ إلى لسان العرب تُعطينا المعاني الآتية[١]:

١ . العهد : كلُّ ما عُوهدَ اللهُ عليه .

٢ . العهد : كلُّ ما بين العباد من مواثيق .

٣. العهد : تولّي أمر اليتيم .

٤ . العهد : اليمينُ يحلفُ عليها الرجلُ .

٥ . العهد : الوفاء .

٦ . العهد : الأمان .

إنّ نظرةً أولى على هذه المعاني ، تبرّز لنا المعنى العام المشترك بينها للجذر (عهد) ، وهو: ( الوفاء بما أخذه الإنسان على نفسه ) ، ومن هنا

(١) ينظر : لسان العرب ( عهد ) .

اقترن ذكرُ العهد بذكرِ الوفاءِ ، وتوحّدا دلاليّـًا ، وصار أحدهما يدلّ على الآخر من دون ذكر صنوه ، وصار وجود العهدِ يعني : أنّ ثمةَ وفاءً ملتبسٌ به ، ولا يمكنُ التفريق بينهما في حدود الدلالات المشار إليها .فصار العهدُ وفاء ، والوفاء عهداً .

وعودةٌ إلى المعاني السابقة بنظرة تفصيليّة ، تُعطينا الدلالات الآتية:

فالمعنيان الأول والثاني ، يُحتّمان على الإنسانِ أن يكونَ وفيّـًا مع الله سبحانه وتعالى من جهة ، ومع عباده من جهةٍ أخرى ، بما يُلزم نفسه به ، بعد أن أُضيف ( الوفاء ) للعهد ، فصارا كالكلمة الواحدة ومن هنا صار الوفاءُ وسيلةً ونتيجةً لذلك في آنٍ معـًا . فتوحّد المعنيان في هذه الدلالة المكثّفة ، بعد أن أُضيف ( الوفاء ) للعهد .

أمّا المعنى الثالث، فإنّ تولّي أمر اليتيم عمل جليل، أمر به اللهُ تعالى، وتظهر قيمتهُ الأخلاقيّة والدينيّة بالوفاء به ، والوفاء هنا يعني : التمسك بإصلاح حال اليتيم حتى يبلغ أشدّه ، على وصف القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[١] ، وفي آيات أخر[٢].

(١) الإسراء: ٣٤.

(٢) ينظر :الأنعام ١٥٢ ، الفجر ١٧ .

ويأتي المعنى الرابع ، وهو الوصية ، أي ما يعهد به الإنسان إلى الوصيّ ، وهنا يتعهّد الوصيّ بتنفيذ ما وُصّيَ به ، فيكون الوفاء شرعياً وأخلاقيّاً ،لا مناص من الوفاء به ، وبهذا يتعاضد العهدُ والوفاءُ في هذه الجزئيّةِ من المعنى العام مرّة أخرى، بعد الاستجابة لما يأمر به الله تعالى.

ويبقى المعنى الأخير للعهد ، وهو( الأمان ) ، وهذا المعنى ، وإنْ كانت المعاني السابقة تُنتجه ، لأنّ تحقّقها يعني حصول الأمان للمتعاهدين ، إلّا إنّه هنا يقوّي من شأنِ الدلالةِ ويوسّعها ، بما يجعلُ العهدَ هو الأمانُ الّذي يريده الله تعالى لعباده ،لا بوصفه نتيجةً ينتجُها الوفاءُ فقط ، وإنّما يكونُ الوفاءُ أماناً . وهذا المعنى يجمع المعاني السابقة كلّها ، ويجعلُ التوسّعَ الدلاليَّ الذي قدّمته ينفتحُ على هذا المعنى الواسع، الذي سيتجسد فيما أراده الإمام علي ، عليه السلام ، من مالك الأشتر ، بقوله (( هذا ما أمر بهِ عبدُ الله عليٌّ أميرُ المؤمنين ، مالك بن الحارث في عهده إليه حين ولّاهُ مصر ))[1]. فجعل كتاب التولية عهداً ؛ لأنّ كلّ ما جاء فيه يحتاج إلى الوفاء به ، حتى يتحقّق الأمان لمصر وأهلها . وليكون ذلك منهاج عمل للولاة في ولاياتهم ، ووسيلة بيد المسلمين لمراقبة ما يطبّقه الوالي من العهد ، فضلاً عمّا فيه من بيان لغير المسلمين ليُبصروا

(١) نهج البلاغة ٣/ ١٠٦ .

علاقاتهم مع المسلمين من خلاله ، واستناداً إلى هذه الرؤية ، يكون هذا العهد ، أساسـًا متينـًا لدولة العدل الإلهي التي بناها الإمام ، وأراد من ولاته أن يتمثّلوه ، وهم يسوسون العباد .

## الوفاء بـالعهد في العصر الجاهلي :

أراد الإمام عليه السلام ، من مالك الأشتر ومن المسلمين الذين يتلمّسون قولَه في كلِّ حين، أن يستحضروا القيم العربيّة التي كانت سائدة في العصر الجاهلي ، ورفع الإسلامُ من شأنها ، فبقيتْ محافظة على مكانتها في النفوس ، وفي مقدمة تلك القيم التي أقرّها الإسلام ، قيمة الوفاء بالعهد.

أشار الإمام عليه السلام ، في عهده إلى ما كان من تعظيم المشركين للوفاء بالعهد في الجاهلية بقوله (( ...وقد لزم ذلك المشركون دون المسلمين ، لما استوبلوا من عواقب الغدر ، فلا تغدر بذمّتك ))[١].

ذكّرَ الإمامُ مالكـًا والمسلمين ، بأنّ المشركين ، على الرغم من جاهليتهم وشركهم ، ألزموا أنفسهم بالوفاء بالعهود ، وجعلوا الغدر مذمّةً، وعاراً يلحق صاحبه ؛ لأنّ عواقبه مهلكةٌ ؛ لذا راحوا يفتّشون عن

(١) نهج البلاغة ٣/ ١٠٦.

أيّة وسيلة يمكن أن تفضح الغادر من جهة ، وتنفّر الناس من الغدر من جهة أخرى . ومن ذلك ما عُرف عنهم أنّه إذا (( غدر رجلٌ ، أو جنى جناية ، انطلق أحدهم حتى يرفعَ له رايةَ غدرٍ بعكاظ ، فيقوم رجلٌ يخطبُ بذلك الغدرِ ، ويقول : ألا إنّ فلانـًا غدر ، فاعرفوا وجهه ، ولا تُصاهروهُ ولا تُجالسوهُ ولا تسمعوا منه قولاً))[١]. وهذا النصُّ يكشفُ عن المهلكة التي يجلبها الغدرُ لصاحبه أيضـًا ، فهي تُميته في المجتمع وإن كان حيّـًا ، وتضرب عليه خيمة من الذلّ . وقد صوّر الشاعر الحادرة الذبياني أنفته وأنفة قومه من الغدر ، حينما خاطب حبيبته بقوله :

أسميُّ ويحكِ هل سـمعتِ بغـدرةٍ رُفـعَ اللـواءُ لنـا بهـا في مجمـعِ[٢]

ومن هنا نفهم مراد الإمام عليه السلام ، وهو يدفع المتلقي إلى استحضار هذه القيمة التي ظلّتْ على ما كانتْ عليه بعد مجيء الإسلام . لارتباطها بتنظيم حياة الناس ، بما يكفل لهم العيش بأمان ، ويُيسر عليهم سبل بناء الحياة ، ليكون هذا وسيلة إلى الوصول إلى رضا الله تعالى .

(١) الأزمنة والأمكنة ١/ ٢٨٨ ، وينظر أيضا ١/ ٥٣٧ . صورة الأسواق في الشعر الجاهلي (بحث) ٣٢٠/ ٣٢١ .

(٢) ديوان الحادرة الذبياني ٣١٠ .

## الوفاء بالعهد في الإسلام :

أشار الإمام عليه السلام ، إلى أنّ ( الوفاء بالعهد ) فرضٌ من الله تعالى على عباده بقوله : ((... فإنّه ليس منْ فرائضِ اللهِ شيءٌ ، الناسُ أشدُّ عليه اجتماعاً مع تفرّق أهوائهم وتشتّتْ آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود ))[١]. ))[١]. فكيف يُفهم هذا الكلام ؟ .

إنّ الإجابة عن هذا السؤال ، تقتضي أن نقف على معنى (الفرض) في اللغة ، لنأخذ منه تصوّراً لما يريده الإمام عليه السلام ، وفي اللغة معناه (( ما أوجبه الله عزّ وجلّ ... وفرض الله علينا وكذا افترضه ، أوجبه ))[٢]. فالوفاء بالعهد فرض أوجبه الله تعالى على عبادة ليمكّنهم من تنظيم شؤون حياتهم ، ويمكّن أعداءهم من العيش بأمان من دون أنْ يخشوا غدراً . وليوفّر لهم فسحة للتفكير من أجل ترك معاداة المسلمين من دون أنْ يفقدوا شيئاً مما يخشونه ، وعلى هذا النحو يسعى الإمام عليه السلام ، إلى بناء الإنسان .

والإمام علي ، عليه السلام ، في رؤيته هذه ، يصدر، كما هو شأنه ، عن رؤية قرآنيّة للوفاء بالعهد ، فقد أوجب الله تعالى ذلك على المسلمين، وجعله،

---

(١) لسان العرب : ( فَرَضَ ) .

(٢) ينظر : م . ن .

أي الوفاء بالعهد ، سمةً من سمات المتّقين ، وليس من سمات المسلمين بشكل عام ، ويمكن أنْ نجد هذه الدلالة في قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[١]، وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٢].

فمحبةُ الله تعالى في هذه الآيةِ مرتبطةٌ ، بالمحافظةِ على العهد ، والوفاء به ، وهي موجّهةٌ إلى المتقين، الذين نالوا مرتبةَ التقوى في هذه الآية بالوفاء بالعهد ، يقول السيد الطباطبائي عن هذه الجزئيّة : ((في مقام التعليل لوجوب الوفاء بالعهد ما لم ينقضه المعاهد المشرك، و ذلك يجعل احترام العهد وحفظ الميثاق أحد مصاديق التقوى المطلق الذي لا يزال يأمر به القرآن))[٣].

وأمر النبي ﷺ بالوفاء بالعهد ، فهو سيده ، وجعل ذلك شعبة من شعب الإيمان ، التي ينبغي أن يتحلّى بها الإنسان المسلم ، وقد جسّد ذلك في حياته الاجتماعية ، فقد ورد في سيرته الطاهرة ، أنّ امرأة دخلت

(١) آل عمران: ٧٦.

(٢) التوبة: ٤.

(٣) الميزان ٩/ ٨٤ . وينظر : التبيان ٥/ ١٧٢ .

عليه (( فَهَشَّ لَهَا، وَأَحْسَنَ السُّؤَالَ عَنْهَا، فَلَمَّا خَرَجَتْ قَالَ: إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خَدِيجَةَ وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ ))[1]، إنّ رفق النبي ﷺ بهذه المرأة على النحو الذي تشير إليه الرواية ، يجسّد لنا المراد من حفظ الجوار والوفاء به ، على الرغم من أنّ العهد كان مع السيدة خديجة ، وحفظه يكون بحفظ ذكراها ، وذكراها هنا جسّدته هذه المرأة التي ارتبطت بها في ذلك الزمان . ومن هنا يتبيّن لنا قيمة الوفاء بالعهد على وفق هذه الرؤية النبوية .

إنّ هذه الرؤيةَ القرآنيّةَ والرؤيّةَ النبويّةَ والرؤيةَ العلويّة للوفاء بالعهد ، جعلتْه واجبًا مفروضًا من الله ، عزّ وجلّ ، على من يُعطيه لغيره ، أي أنّ العهدَ يستمدُّ وجوبَهُ منْ انعقاده بين طرفين ، وإذا تمّ العقدُ تمّ وجوبُهُ ، وصار الإخلالُ بهِ إخلالاً بأُسٍّ من أُسسِ الإسلام . واستناداً إلى هذا سنعود لننظر في هذه الجزئية من عهد الإمام عليه السلام ، فنقول أنّه نبّه مالكًا إلى التمسّك بالوفاء بما يعقده من عهود مع غير المسلمين، لأنّ هذا سيقوّي مكانة المسلمين في النفوس ، بما يقدّمونه لأعدائهم من قيم إسلاميَّة عليا ، ستجذبهم إلى حوزة الإسلام حتمًا ، أو عدم معاداته في أقلّ تقدير . بل إنّ القرآن الكريم عيّر المشركين بأنّهم لا يرعون حرمة

(١) عيون الأثر ٢/ ٤٠٢ ، والحديث في : بحار الأنوار ١٦/ ٨ ، المعجم الكبير ٢٢/ ١٤ .

للمسلمين إنْ استطاعوا، قال تعالى : ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلّا وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾[١]. ليرسّخ ما أشرنا إليه من التمسك بالعهود. إذ أضاف عدم مراقبتِها فسقـًا إلى شرك المشركين على ما بيّنته الآية الكريمة[٢].

إنّ ما أراده الإمام عليه السلام ، لا ينطبق على مالك الأشتر هنا فقط ، بل يشملُ جميع المسلمين ؛ لأنّ ما يُوصي به ، عليه السلام ، يريده للجميع ، وكلّ مسلم يأخذ منه بالقدر الذي يحتاج إليه في حياته الإسلاميّة المستقيمة ، يؤيد هذا الحديث النبوي الشريف عن المسلمين عامّة : (( يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أدناهُم ، أَيْ إِذَا أَعْطَى أحدُ الجَيْشِ العَدُوَّ أمَانـًا جَازَ ذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يُخْفِرُوه، وَلَا أَنْ يَنْقُضوا عَلَيْهِ عَهْده ))[٣].

ويستمرُ الإمام، عليه السلام ، في إحاطة مالك الأشتر علمـًا بتفاصيل الوفاء بالعهد ، فيخاطبه بقوله (( وإنْ عقدت بينك وبين عدوّك عقدة ، وألبسته منك ذمّة ، فحُطّ عهدك بالوفاء ، وارعَ ذمّتك بالأمانةِ ، واجعلْ نفسَك جُنّةً

(١) التوبة: ٨.

(٢) ينظر : الأمثل ٥/ ٥٤٠

(٣) النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٦٨ . وينظر قول للإمام الصادق عليه السلام بهذا المعنى في شرح أصول الكافي ٧/ ٤٠٢ .

دون ما أعطيتَ ))[١]. فالإمام، عليه السلام ، سمّى العهد هنا عقداً ، ودلالة مفردة العقد تُعطي وثوقًا أكثر مما تُعطيه مفردة العهد نفسها ، فقد ورد في المعجم العربي ، أنّ العقد هو العهد ، والجمع عقود ، وهي أوكد العهود، وإذا قلت : عاقدته أو عقدتُ عليه ، فتأويله أنّك ألزمته ذلك باستيثاق ، والمعاقدة : المعاهدة [٢]. واستناداً إلى هذه الدلالات ، فإنّ استعمال الإمام عليه السلام ، للفظة العقد يفصحُ عن تشديد أراده بشأن ما يعقده المسلمون مع أعدائهم ومع بعضهم بعضًا . ومن هنا ذهب بعض العلماء إلى القول ، إنّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾[٣]، (( يعمّ العقود التي عقدها الله سبحانه وتعالى على عباده ، وألزمها إياهم من التكاليف ، وما يعقدون بينهم من عقود الأمانات، والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به ))[٤]. واستناداً إلى هذا نقول : إنّ انتقاء الإمام عليه السلام ، لهذه الصياغة المتضمّنة لدلالة الجذر (عقد ) ، ينبئ عن الأهمية التي أراد أن يلفت أنظار المسلمين إليها بشأن حُرمة العهود .

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ١٠٦ .

(٢) ينظر : لسان العرب ( عقد) .

(٣) المائدة: ١.

(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ١١٣ ، وينظر أيضا : تفسير الثعلبي ٤/ ٧ .

أما اللباس الذي قرنه الإمام عليه السلام ، بالعقد ، فيشير إلى ما يمكن أن يوفّره من سكينة وستر للأعداء ، فينعمون بذلك ، وهنا لا يُمكنهم انكار هذه النعمة ، ولا يجوز لهم تجاهلها ، وسيغريهم هذا كلّه بالتفكير بالانضمام إلى حضيرة الإسلام اختياراً ، وهذا وجه من وجوه بناء الدولة والمجتمع الذي يريده الإمام عليه السلام .

ويزيد الإمامُ من تحذيره من خدش فريضة الوفاء بالعهد ، فيُضيف متمّـاً كلامه عن ذلك فيقول : (( فلا تغدرنّ بذمّتك ، ولا تخيّسنّ بعهدك ، ولا تختلنّ عدوّك ، فإنّه لا يجترئ على الله إلا جاهلٌ شقيّ ))[1].

فقولُ الإمام عليه السلام ، هنا ( فلا تغدرنّ بذمتك ) ينطوي على تحذير للأشتر النخعي ، من الغدر ، وعلى الرغم ممّا في الغدر من بشاعةٍ ، فإنّ هذه الصورةَ تزداد قُبحـاً حينما يُنسبُ الغدر إلى ذمّة الإنسان الغادر وليس إلى خصمه المتعاقد معه بالعهد ، وهذا ما جلّاهُ كلام الإمام عليه السلام ، فلم يعدِ الغدرُ مخالفة لفرض رباني ، ولا بُعداً عن قيمة أخلاقيَّة يُجلّها المجتمع ، بل صار ضرراً يقع على الغادر نفسه ، وهكذا يصل إلى غاية القبح حينما يرتدُّ ضرره على صاحبه ، وهذا ما يحتّم على الإنسان أنْ يبتعد عن هذه الخصلة ، بعد أنْ بصّره الإمام عليه السلام ، بعواقبها على النحو الذي تكشّف لنا .

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ١٠٦ .

أما قوله ، عليه السلام ، (ولا تخيّسنَّ بعهدك) ، فعل الرغم من أنّ الجذر (خيس) يعني في اللغة : غدر وخان ، إلّا أنّ انتقاء الإمام عليه السلام ، له هنا ، يأتي للإيغال في تبشيع صورة الغدر من خلال ما يؤدّيه من معانٍ أخرى ، تنطوي على ذلك ، فمن معانيه التي تُظهر ما تُشير إليه المعاني الآتية : ((خاس الشيءُ يخيس : تغيّر وفسد وأنتن ... وخاس هو ذلّ ، ويُقال : إنْ فعل فلانٌ كذا، فإنّه يُخاسُ أنفُهُ أي يُذلُّ أنفه))[١]. وهذا التوجيه يُعطينا تصوّراً لاستعمال الإمام للمفردات ، بحيث تقدم المفردة الواحدة عدداً من المعاني ، من دون أنْ يعترض السياق على ذلك ، بل إنّه – أي السياق – يحتضنُ المعاني الناتجة عن ذلك ، بمرونةٍ تعين القارئ على تأويل الكلام إلى اتجاهات كثيرة من دون تعسّف ، وهذا وجهٌ من وجوه المرتبة العليا للبلاغة عند إمام البلاغة ، عليه السلام .

وينهى الإمام عليه السلام ، الأشتر النخعي عن مخاتلة العدو( ولا تختلنّ عدوّك )، ليحصّن العهد المتعاقِد عليه مع العدو، من أيّة ثلمة قد يُحدثها التفكير بإيذائه ، وهنا اختار الإمام عليه السلام ، لفظة ( تختلّن) ، ليُنفّرَ المتلقّي من هذا الفعل ، فالختل في اللغة يعني : الخداع عن غفلةٍ ... يختل الرجل ليطعنه ، أي يداوره ويطلبه من حيث لا يشعر[٢]، وهذه الدلالات من

(١) لسان العرب ( خيس) .

(٢) ينظر : لسان العرب ( ختل ) .

وسائل محاربة العدو في ميادين المعارك ، ولكنّ الإمام نهى عن الاقتراب منها مع العدو الذي عقد المسلون معه عهداً ، وصار المرغوب فيه مرغوبـًا عنه في هذا الموطن الذي يشير إليه الإمام .

أوجب الإمام عليه السلام ، على المسلمين من خلال عامله الأشتر النخعي، التمسّك بهذه المضامين ، وعدّ الإخلال بها تعدّيـًا على حدود الله عزّ وجلّ ، يقول ، عليه السلام ، في بيان ذلك : (( فإنّه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقيٌّ ، وقد جعل الله عهده وذمّته أمنـًا ، أفضاه بين العباد برحمته ، وحريما يسكنون إلى منعته ، ويستفيضون إلى جواره ))[1].

فالجرأةُ على الله عزّ وجلّ من أفعال الجهلاء الأشقياء ، فالجاهلُ يفعل ذلك ؛ لأنّه لا علم له بما يقدم عليه ، من جهة ، ويفعلُ ذلك من الجهل بالله ، عزّ وجلّ ، ورسوله وشرائع الدين ، من جهة أخرى ، والراجح أنّ هذا المعنى ربما يكون أكثر ملاءمة لما يريد الإمام عليه السلام ؛ لأنّه كفيل بتنفير الناس من الاقتراب مما يشين العهد .

أمَّا الشقيّ فهو الّذي لا يستشعر لذّة السعادة في حياته ؛ لأنّه يعيش في شدّةٍ وعُسرةٍ ، وهذا آتٍ من الجرأة على الله عزّ وجلّ .

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ١٠٧ .

وثمة مفهوم آخر للشقيّ ، يبسطه الإمام عليه السلام ، في موضع آخر من نهج البلاغة ، إذْ يقول عنه : (( فإنّ الشقيّ من حُرم نَفْعَ ما أُوتيَ من العقلِ والتجربة ))[١] ، والعقلُ يقتضي – حقّا – أن لا يجترأ عبد مسلم على حدٍّ من حدود الله .

إنّ هذا التشديد الذي أظهره الإمام عليه السلام ،لا يُبقي حُجّةً لمن يريد أن ينقض عهداً ، بداعي الحرص على المسلمين من أعدائهم ؛ لأنّ ما يوفّره الوفاء بالعهد أكثر نفعا للمسلمين ، ونفعه أولا يتمثل بالامتثال لما أمر به الله تعالى من الوفاء بالعهود ، فالأصل في الإسلام التمسّك بالثوابت التي تصون الدين .

## الوفاء بالعهد أمان للعباد :

يلتفت الإمامُ عليه السلام ،إلى وجه آخر من وجوه الوفاء بالعهد ، وهو وجه الأمان الذي يريده الله لعباده ، يقول عليه السلام ، (( ... وقد جعل الله عهده وذمّته أمنًا أفضاه بين العباد برحمته ، وحريمًا يسكنون إلى منعته ، ويستفيضون إلى جواره ))[٢].

---

(١) نهج البلاغة ٢/ ١٢٧ .

(٢) م . ن ٣/ ١٠٧ .

إنّ إشارة الإمام عليه السلام ، هذه تجعل العهد ضربـًا من ضروبِ الأمن التي أرادها الله لعباده ، رحمة منه بهم ، ليعيشوا في دعة وأمان وسكينة ، فيبنوا ويعمّروا ، ولولا الأمنُ لما قدّر لهم أن يتمكنوا من ذلك ، ولما قدّر للوالي أن يدبّر أمور العباد ؛ لأنّ تدبير الأمور يقتضي أمنـًا وأمانـًا .

ثم يجعل الإمام عليه السلام ،العهد حريمـًا يسكن العباد إلى منعته ، والحريمُ يعني : كلّ ما حُرّم فلا يُلمس ، ولا يُدنى منه [١]. وهذه دلالة المنعة التي وصف الإمام عليه السلام ، بها الحريم ، حيث توفّر للعباد سكنـًا في ظلّ الأمن المقترن بها . فالقلق والخشية والترقّب التي تقترن بعدم الأمن ، تأخذ من العباد أسس الطُمأنينة التي ينشدونها ، فإذا جاء العهدُ بأمنه ، وفّر لهم ما فقدوه من ذلك كلّه .

ثم يأتي قوله عليه السلام ، ( فيستفيضون إلى جواره ) ، أي يُسرعون إليه ، واستعمال الإمام عليه السلام ، لهذه اللفظة ، ينطوي على بيان ما يمكن أن يشعر به الإنسان من الأمن الذي يُشيعه العهد ، فلفظة (يستفيضون) تحمل دلالة السرعة والكثرة والانبساط والزحف والدفع في السير ...[٢] . وهذه المعاني كلّها ترسم صورة لحال الناس وهم يندفعون صوب أمن العهد،

(١) ينظر : لسان العرب ( حرم )

(٢) ينظر : م . ن ( فيض) .

الذي بسطه الإمام في هذا الجزء من قوله . وفي الوقت نفسه ، يُغري المسلمين بالبقاء على ثباتهم على صيانة ما يتعهّدون به أمام خصومهم ؛ لأنّ في هذا سلامة لدينهم .

## شروط صحة العهد :

يُنهي الإمام عليه السلام ، كلامه عن الوفاء بالعهد ، ببيان الشروط التي ينبغي توفّرها فيه ، من أجل سلامته ؛ لأنّ في هذه السلامة سلامة للمتعاقدين عليه ، بما يوفّره من مناخ أمن ، يتيح للعباد بناء الحياة . وجاءت هذه الشروط في قوله الآتي : (( فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ، ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ، ولا تُعوّلنَّ على لحنِ قولٍ بعد التأكيد والتوثّق ))[١].

والآن ننظر في قول الإمام عليه السلام ، لنقف على ما يؤدّيه كلّ شرط من هذه الشروط ، وهي على النحو الآتي :

١- **لا ادغال في العقد** : الادغال في اللغة يعني الفساد ، وأدغل في الأمر : أدخل فيه ما يُفسده ويُخالفه[٢]. فمن يدخل في العقد ما ليس فيه

(١) نهج البلاغة ٣/ ١٠٧ .

(٢) ينظر : لسان العرب ( دغل ) .

يُفسده بهذا الفعل ، والادغال ليس من خُلُق المؤمن . يقول الإمام عليه السلام ، في موطن آخر: (( ليس المؤمن بالمُدغل ))[١]. فهذا التعارض بين الإيمان والادغال ، يحتّمُ على المؤمن أن يتجنب هذا الفعل الذي يُخرجه من دائرة الإيمان ، فكيف إذا كان الادغال في فرض من فرائض الله تعالى وهو العهد ؟ .

٢- **لا مدالسة في العقد** : الدَّلَسُ بالتحريك : الظلمة ، والمدالسة : المخادعة ، وفلان لا يُدالسك ،ولا يُخادعك ، ولا يُخفي عليك الشئ ، فكأنه يأتيك به في الظلام[٢] . وهذه الدلالة للمدالسة تنطوي على خداع غير ظاهر، يستر المُخادِعُ خداعه كأنّه لايُرى ، وهذا لا يستقيم مع أخلاق الإسلام ؛ لأنّ من يُخادع الله تعالى في العهد يستحق غضب الله تعالى ، وقد ورد في الأحاديث أنّ النبي سُئل (( فيم النجاة غداً ؟ فقال : النجاة أن لا تُخادعوا الله فيخدعكم ، فإنّه من يُخادع الله يخدعه ، ويخلع منه الإيمان ، ونفسه يخدع لو يشعر))[٣] . فالذي يخدع من يعاهده يخدع نفسه ، والله عزّ وجلّ (( خادعه بخذلانه عن حسن البصيرة بما فيه نجاة

(١) النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٢٣ .

(٢) ينظر : لسان العرب ( دلس ) .

(٣) تفسير العياشي : ١/ ٢٨٣ ، وينظر الميزان ٥/ ١٢١ .

نفسه في آجل معاده ))[١] . واستناداً إلى ما تقدّم ، فإنّ المدالسة في العقد تكون مدعاة لسخط الله وغضبه ، وبهذا يبتعد عنه المسلمون ، ويبتعد عنه الوالي قبل غيره ، لأنّه المعني أولا بتفيذ ما يريده الله تعالى ، ليكون قدوة للرعية .

٣- **لا تجوز العلل في العهد** : وهذا منعٌ آخر من الإمام عليه السلام ، لتحصين المسلمين من الانزلاق إلى مهاوي عصيان الله تعالى ، فقد يعمد صاحب العهد إلى محاولة صرفه عن وجهه من خلال كتابته بألفاظ غير واضحة في بيان المراد ، وكأن الإمام عليه السلام ، يقول لمالك الأشتر: اختر ((للإيجاب والقبول ألفاظاً واضحة في معناها ، صريحة في دلالتها ، يفهم منها أهل العرف انك قصدت المعنى الظاهر ، وألزمت به نفسك))[٢]. وبهذا يبتعد عن أسباب الجدال والاختلاف والتنازع ، ممّا قد يقود إلى إبطال العهد من دون وجه حقٍّ .

٤- **تجنّب اللّحن في العهد** : ووقفة على دلالة مفردة اللحن ربما تُعيننا على الاقتراب من مراد الإمام عليه السلام. فاللحن في اللغة يعني : أنّ القائل يُميل قوله بالتورية عن المفهوم الواضح ، فهو إذاً ميلٌ عن جهة

(١) تفسير الطبري ١/ ١٧٣ .

(٢) في ظلال نهج البلاغة ١/ ١١٥ .

الاستقامة، والانحراف عن صحيح المنطق[١]. وإن كان ظاهره يُعطي غير المخفي، وهذا هو ما أراد الإمام عليه السلام، أن يبعد المسلمين عنه ؛ لأنّ الطرف الآخر غافلٌ عمّا يراد به، واستناداً إلى هذا، اشترط الله تعالى (العدل) في من يكتب بين الناس ﴿يَا أَيُّهَا وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[٢]. ولا تقتصر الكتابة هنا على الدَين فقط، بل تعمّ العهود والمواثيق كافة [٣] .

إنّ هذه الدلالة تُعطي للنصّ إمكانية التأويل على وجوه مختلفة ، وصرف الكلام إلى أكثر من معنى ، وتجعل من يريد الجنوح بدلالة ألفاظ العهد إلى غير الوجهة المتّفق عليها قادراً على ذلك ، من خلال التكنية أو التعريض ، وهذا ما نهى عنه الإمام عليه السلام ؛ لأنّ من وثّق عهده باليمين ، لا يصحّ أن يُعوّل على لحن القول المشار إليه . وحتى يقطع الإمام عليه السلام ، طريق التّنصل من الإبقاء على العهد ممّن يبغي ذلك ، قال قولته هذه .

ويوصي الإمام عليه السلام ، الأشتر مشدّداً على الوفاء بالعهد ، وعدم اللجوء إلى البحث عن مسوّغات للتخلص من قيوده ، بقوله:

---

(١) ينظر : لسان العرب ( لحن ) .

(٢) البقرة: ٢٨٢.

(٣) ينظر : تفسير القرطبي ٢/ ٢٧٦ .

(( ... ولا يدعُونّك ضيقُ أمرٍ لَزِمَك فيه عهدُ اللهِ إلى طلبِ انفساخهِ بغيرِ الحقّ))[١].

قد يقع الوالي في أمر يضيق به ، ويقدّر أنْ لا منجى له ممّا هو فيه ، إلا بطلب انفساخ العقد بغير الحقّ ، فيذهب إلى ذلك ، إمّا باللجوء إلى ما منع عنه الإمام عليه السلام ، كما مرّ بنا قبل قليل ، وإما بفعل ذلك من دون حجة، لأنّ من يُجافي الحقّ ، قد لا يحتاج إلى حجة ليسوّغ فعله . وهذا منهيّ عنه في قول الإمام عليه السلام ، ، لأنّ الوفاء تمثّل لأمر الله تعالى ، الذي يُلزم صاحبه التمسك به .

ويختم الإمام عليه السلام ، وصيته لمالك الأشتر بشأن الوفاء بالعهد بقوله : ((فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو اِنْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ وَ أَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اَللهِ فِيهِ طِلْبَةٌ لاَ تَسْتَقِيلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلاَ آخِرَتَكَ ))[٢]. وهذا الجزء من قول الإمام عليه السلام ، مرتبط بالجزء السابق المتعلق بضيق الأمر الذي يواجه صاحب العهد ، فالصبر هنا يندرج في حقل الصبر على ما يكره الإنسان، وهو واحدٌ من صبرين، وصفهما الإمام عليه السلام بقوله ((الصبر صبران: صبر على ما تكره، وصبرٌ عمّا

(١) نهج البلاغة ٣/ ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه.

تُحبّ))[١]. وهذا الصبرُ يُنتظر معه فرج الله ، عزّ وجلّ ، ، والجزاء الأوفى ، الذي يُظهره فضل العاقبة التي ذكرها الإمام عليه السلام ، وقد وعد الله عزّ وجلّ الصابرين بقوله: ﴿...إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢]. وصبر المسلم على التمسّك بعهد الله عزّ وجلّ خير من غدر يخاف تبعته ، لمعرفته وجميع المسلمين بعواقب الغدر ،كما بان ذلك من قبلُ ،. وذكّر الإمام عليه السلام بأنّ من يقترف ذلك تُحدق به طِلْبَةٌ من الله تعالى ، وتُحيط به من الجوانب كلّها وتستدير به ، فلا يبقى له منها منجى ، ولا يُقيله الله تعالى منها ؛ لأنّ التبعةَ المشار إليها لزمته في الدنيا والآخرة .

لقد ختم الإمام عليه السلام عهده للأشتر بتذكيره ، بعاقبة الخير التي تنتظر من يكون وفيّا بعهده ، متمسّكا بعقده ، وإنْ ضاق به أمرٌ ، ورأى أنّ انفراجه ، كما يظنّ ، يكون بالتحرّر منه ، فهنا يكون الصبرُ هو المعوّل عليه في اجتياز ذلك .

(١) نهج البلاغة ٤/ ١٤.

(٢) الزمر: ١٠.

## خاتمة الفصل

أكّد الإمام عليه السلام على أهمية ( الوفاء بالعهد ) ،في حياة المسلمين ؛ لأنّ في هذه القيمة ، مع غيرها من القيم ، ما يشكّل بعضـًا من الأسس المتينة لبناء الدولة والمجتمع ، وقد تبينت هذه الأهميّة في البحث من خلال ما يأتي :

١- ذكّر الإمام عليه السلام عامله الأشتر النخعي خاصة والمسلمين عامة ، بتمسّك المشركين بالوفاء بالعهد ، وبجعلهم الغدر منقصة يسبُّ بها الغادرون . فالأولى بالمسلمين أنْ يصونوا عهودهم مما يشينها .

٢- صارتْ قيمة ( الوفاء بالعهد ) ، قيمة عربية إسلامية ، أمر القرآن بصيانتها ، وحثّ النبيُّ على ذلك ، وشدّد الغمام على الحفاظ عليها ، بعد أنْ أصبحتْ فرضـًا من فرائض الله تعالى .

٣- جعل الإمام عليه السلام ( الوفاء بالعهد) أمانـًا من الله تعالى لعباده ، يعيشون في كنفه بسكينةِ وهدوء وطُمأنينة ، وجعل الغدر دناءة لا يقربها مسلم .

٤- وضع الإمام عليه السلام شروطا ومواثيق للعهود لا يصحّ انعقادها بدونه ، وفي مقدمة تلك الشروط ، كتابة العهد بألفاظ وتراكيب واضحة ،

تدلّ على معانيها بيسر ، ولا تقبل التأويل الذي قد يُستند إليه في فسخ العقود بحجج لا أصل لها .

٥- انتقى الإمام عليه السلام من الألفاظ والصياغات ما يُظهر وجوب الوفاء بالعهد ، وما يبرّز مواطن رحمة الله تعالى في ذلك ، بدقةٍ بالغةٍ كما هو معهود في كلامه عليه السلام ، من خلال مراعاة ما تؤدّيه جذور الألفاظ من معانٍ متقاربة بشكل عام ، ومختلفة في دلالاتها الخاصة في آنٍ معـًا .

٦، أراد الإمام عليه السلام من خلال عهده إلى عامله مالك الأشتر، أنْ يبنيَ مجتمعـًا اسلاميّـًا ، يعيش في ظلّ نظام دولة عدل إلهيٍّ ، بعد أن وضع له أُسس البناء ، وكان الوفاء بالعهد من الأُسس المكينة لذلك كلّه .

# الفصل السادس

## كتاب الإمام علي عليه السلام
## إلى عثمان بن حُنيف
## واليّه على البصرة

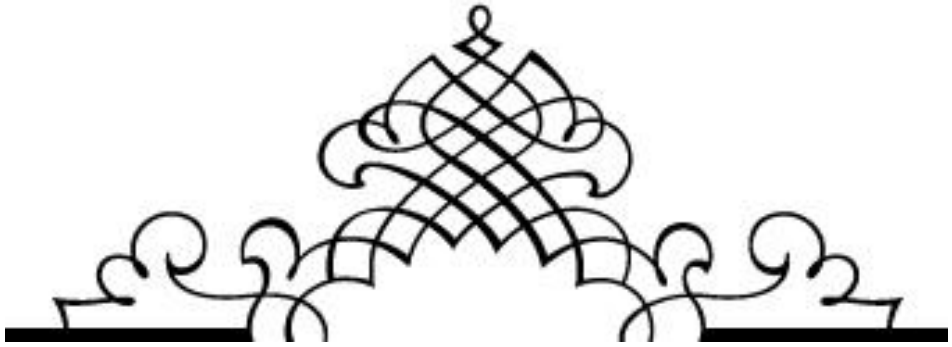

# كتاب الإمام علي عليه السلام إلى عثمان بن حُنيف واليه على البصرة

عني الإمامُ علي بنُ أبي طالب عليه السلام بمراقبةِ عملِ ولاتهِ على الأمصارِ الإسلاميّةِ بغيةَ تحقيقِ العدل الإلهي الذي سعى إلى تطبيقهِ مدّة خلافتهِ الرسميةِ ، وكان عليه السلام يخشى عليهم من غرورِ السلطانِ الذي قد يجنحُ بهم إلى إهمالِ شؤونِ الرعيّةِ ، والعملِ على تحقيقِ المنافعِ الذاتيّةِ التي توفّرها الولايةُ ، ولهذا اهتمَّ الإمامُ عليه السلام بالنظرِ في أعمالهم ، وكثرتْ كتبُهُ إليهم ناصحـًا وموجّهـًا ومرشداً مرة ، ومؤنِّبـًا ومُوبّخـًا مرةً أخرى .

ومن الكتبِ التي كان لها شأنٌ في توجيهِ العمالِ، وتبصيرهم بالمنهجِ الذي ينبغي الاهتداءُ به، كتابُهُ عليه السلام إلى عاملهِ على البصرةِ عثمانَ بنِ حُنيفٍ الأنصاريّ[1]، بعد أنْ بلغهُ عليه السلام أنّهُ دُعيَ إلى وليمةِ قومٍ من أهلها فمضى إليها.

---

(١) هو عثمان بن حُنيف بن واهب الأنصاري ، أخو سهل بن حُنيف وعبّاد بن حُنيف ، ويعدُّ من كبراء الصحابةِ ، شهد معركةَ ( أُحد) وما بعدها ، ولي السواد للخليفة عمر بن الخطّاب ، وكان واليـًا للإمامِ على البصرةِ قبل قدوم أصحاب الجملِ إليها ، وحينما قدموا دعوَه إلى الخروجِ معهم على الإمامِ عليه السلام فامتنع ، فنتفوا شعرَ رأسهِ ولحيته وحاجبيه ، ثمّ أطلقوه ، فلحق بالإمامِ عليه السلام ، وشهد معه الجمل وما بعدها . سكن الكوفةَ وتوفي فيها في خلافةِ معاوية . ينظر : أنساب الأشراف ٢/ ٢٢٢٢، ٢٢٥ ، الطبقات الكبرى ٣/ ٢٥٥ ، طبقات خليفة بن خياط ١٥٤.

كتب الإمامُ عليه السلام: (( أمّا بعدُ يا ابن حُنيفٍ أنَّ رجلاً من فتيةِ أهلِ البصرةِ دعاك إلى مأدبةٍ فأسرعتَ إليها ، تُستطابُ لك الألوانُ وتُنقلُ إليك الجفانُ ))[1].

يبدأ الإمامُ عليه السلام كتابَهُ بـ(أمّا بعدُ) ، وهذه من اللوازمِ التي وُسمتْ بها الكتب والرسائل في العصورِ الإسلاميّةِ الأولى، وهي علامةٌ على الوصولِ إلى مضمونِ الكتابِ الرئيسِ .ثمّ يشرعُ الإمامُ عليه السلام بخطاب عثمان بن حُنيف بقوله ( يا ابن حُنيف) ، واستعمال الأداةِ (يا) التي هي لنداءِ البعيدِ هنا ، يُظهرُ بُعْدَ عثمانَ بنِ حُنيف عن الإمامِ عليه السلام ، لفعلهِ الذي لم يُرضِ الإمامَ عليه السلام ، فهو بمنزلةِ البعيدِ الذي تفضّلُ اللغةُ أنْ يُنادى بـ(يا)[2]. فضلاً عمّا في هذا الضربِ من النداءِ ، من مدِّ الصوتِ الذي يُجسّدُ وجهاً من وجوهِ عتابِ الإمامِ عليه السلام لعامله ، الذي لم يذكرْ اسمَهُ ، بل خاطبه منسوباً إلى أبيه ، ويغلبُ على الظنِّ أنّ الإمامَ عليه السلام أرادَ بهذا الضربَ من

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٠ . ونشير هنا إلى أنّ الكتاب يبدأ بحمدِ اللهِ وتمجيدِهِ ، والصلاةِ على نبيّهِ صلى الله عليه وآله ، ولكنّ الشريف الرضي كان يرومُ الاختصارَ فيما نقل من خطب الإمامِ وكتبِهِ ورسائلِهِ كما صرّح بذلك في مقدمتِهِ التي كتبها للنهجِ ، لذا بدأ بمضمونِ كتابِ الإمامِ عليه السلام من دونِ مقدمتِهِ .

(٢) ينظر: معاني النحو ٤/ ٣٢١، ونشيرُ هنا إلى أنّنا لا نحملُ استعمال هذه الأداةِ على البعد المكاني (بُعد البصرة عن الكوفة)، لأنّ النداءَ نداءٌ في الكتاب الذي سينظرُ فيه عثمان بنُ حنيف.

التعبيرِ تعظيمَ أبا عاملهِ ليكون الكلامُ أشدّ تأثيراً على نفسهِ ، وأكثرُ إظهاراً لبرمِ الإمامِ عليه السلام من فعلهِ الذي لا يتناسبُ مع منزلتهِ التي ورثها عن أبيه على وفقِ قيمِ العرف الاجتماعي التي كانتْ سائدةً عصرئذٍ . فضلاً عن أنّه جديرٌ بالعتابِ لفضلهِ ومنزلتهِ عند الإمامِ عليه السلام .

ثمّ أخبرهُ الإمامُ عليه السلام ما بلغهُ عنه من الدعوةِ المشارِ إليها ، وهنا نقولُ: إنّ الإمامَ عليه السلام كان يراقبُ عملَ الولاةِ في ولاياتهم على الرغمِ من بعدها عن الكوفةِ ، بوساطةِ عيونٍ يبعثهم بهذه المهمةِ ، ومن هنا جاء اخبارُه لابنِ حُنيفٍ ثابتـًا لا شكَّ فيه . وهذا ضربٌ من إدارةِ الدولةِ وضعه الإمامُ عليه السلام لعماله في الولاياتِ الإسلاميّةِ [١].

وانتقاءُ الإمامِ عليه السلام لعبارةِ ( رجلاً من فتيةِ أهلِ البصرةِ ) ، يحملُ إشارةً إلى أنّ الداعي ليس من وسطِ أهلِ البصرةِ ، بل من فِتيتها الذين يتصفون بصفاتِ الجزلِ ، فليس الفتى بمعنى الشابِ والحدثِ ، بل هو بمعنى الكاملِ الجزلِ من الرجالِ [٢] ، وسيكونُ في هذا تفسيرٌ لما سيأتي من كلامِ الإمامِ عليه السلام .

---

(١) والشاهدُ على ما نقولُ ما كتبهَ الإمامُ عليه السلام إلى قُثم بن العباس وهو عامله على مكة : (( أما بعدُ فإنّ عينيَ بالمغربِ كتب إليَّ يُعلمني أنّه وُجّه على الموسمِ أُناسُ من أهلِ الشامِ ...)) . ينظر : نهج البلاغة ٣/ ٥٨ .

(٢) يُنظر : لسان العرب ( فتا) .

ثمّ يأتي قوله عليه السلام ( دعاك إلى مأدُبةٍ فأسرعت إليها ) ، منتقياً لفظة (مأدبة) على غيرها من الألفاظِ الدالةِ على المرادِ مثلِ ( الوليمة) ، لأنّ المأدبةَ تعني : ((الصنيعُ يصنعهُ الرجلُ فيدعو إليه الناسَ))[١]، وهو لا يرتبطُ بشأنٍ من شؤونِ الحياةِ كالزواج مثلاً ، فلو كان من هذا القبيلِ لاستعمل الإمامُ لفظة ( الوليمة ) للدلالةِ عليه[٢] ، ولو كان هذا الأمرُ هكذا لَما كتب إليه الإمامُ عليه السلام مُعاتباً .

ثمّ قال الإمامُ ( فأسرعتَ إليها ) ، ليُبيّن رغبةَ عاملهِ في تلك المأدُبةِ ، فالإنسانُ لا يُسرعُ إلّا كان ما يوجبُ ذلك ، وإلّا فالأولى أنْ يكون الوالي متأنياً متريّثاً هادئاً ، لأنّ الذي ينظرُ في عملهِ هو الإمامُ عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام . ولا نستبعد أن يكونَ مردُّ السرعةِ إلى ما تحفلُ به هذه الموائد من الألوانِ الطيبةِ التي تحملُها الجفان ، وهي أعظمُ ما يكونُ من القصاعِ ، لأنّ هذا من شأنِ موائدِ الفتيةِ في ذلك العصر. يؤيّدُ هذا أنّ أصحابَ هذهِ الموائد هم الذين يختارون لجفانهم ما يُستطابُ من ألوانِ الطعامِ المختلفةِ.

وثمّة إشارة أخرى تستحقُّ أنْ نُشيرَ إليها ، وهي إنّ هذه المأدبةَ عملها أصحابُها لعثمان بنِ حُنيف ، ودعوا معه آخرين ، بدلالةِ قولِ الإمامِ عليه السلام

(١) ينظر : لسان العرب (فتا) .

(٢) جاء في لسانِ العرب ( ولم) ما يأتي : (( يُسمّى الطعامُ الذي يُصنع عند العرس الوليمة )) .

له ، (تستطابُ لك وتنقل إليك) ، فهذا التخصيص بـ(لك وإليك) ، تجعلُ عثمان بن حُنيف هو المعني بالمأدبةِ وإنْ حضرَ معه غيرُه .

ويبلغُ عتابُ الإمامِ لعاملهِ ذروتَه بقوله : ((وما ظننتُ أنّك تُجيبُ إلى طعامِ قومٍ عائلُهُم مجفوٌّ ، وغنيُّهُم مدعوٌّ ، فانظرْ إلى ما تقضِمهُ من هذا المقضمِ، فما اشتبه عليك علمُهُ فالفظْهُ ، وما أيقنتَ بطيبِ وجوهِهِ فنلْ منه))[1].

يُبدي الإمامُ عليه السلام في هذا المقطعِ من كتابهِ بعضاً من (الدهشةِ) المحبّبةِ من فعلِ عثمان بن حُنيف ـ إذْ ما كان يظنُّ عليه السلام أنْ يستجيبَ ابنُ حُنيفٍ إلى طعامِ هؤلاءِ القومِ الذين لم يعدلوا في دعوتهم ، فدعوا الأغنياءَ وتركوا أهلِ الفاقةِ والعوزِ . ويبدو أنّ هذه الظاهرةَ الاجتماعيّةَ كانتْ منتشرةً في الولاياتِ الإسلاميةِ قبل خلافةِ الإمام عليه السلام ، فأراد أن يُنبّهَ عاملَه على البصرةِ وغيره من عمّالِ الولاياتِ الأخرى إلى أهميّةِ علاجِ هذه الظاهرةِ التي لا تتلاءمُ مع روحِ الإسلامِ السمحةِ ، على الرغم من أنّ حضورَ عثمان بن حُنيف إلى المأدُبة قد لا يدخلُ في إطارِ الحرمةِ الشرعيّةِ، بل إنّ إجابةَ المسلم لدعوةِ أخيهِ المسلمِ مأمورٌ بها ، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال : (( من أعجزِ العجزِ رجلٌ دعاهُ أخوهُ إلى طعامٍ فتركهُ

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٠ . القضم : الأكل بطرف الأسنان .

من غيرِ علّةٍ ))[١] ، والعلّةُ هنا تتمثّلُ بدعوةِ الأغنياءِ ومجافاةِ الفقراء . وهذا في منهجِ الإمامِ عليٍّ عليه السلام غير مرضيٍّ ، بل ومنهيٍّ عنه ، لأنّه يمثّلُ خدشاً في باءِ العلاقاتِ بين أبناءِ المجتمعِ الإسلامي .

ثمّ يوصي الإمامُ عليه السلام عاملَهُ إلى وجوبِ النظرِ الدقيقِ إلى طعامِ مثلِ هذه الدعواتِ ، وقد كنّى عليه السلام عن هذا الضربِ من الأكلِ بالقضمِ (والقضمُ يعني : الأكل بأطرافِ الأسنانِ) لإظهارِ عدمِ الرغبةِ فيه . فإذا اشتبه علمُ هذا الطعام عليه (على عثمان بن حنيف) فأمره بلفظهِ من فيه ، واللفظ تعني : ((أنْ ترمي بشيءٍ كان في فيك))[٢]. ولا يخفى ما في هذا التعبيرِ من الشدّةِ على من يلتبسُ عليه أمرُ مثلِ هذه الدعواتِ وغيرها ، التي قد تُقامُ لغاياتٍ أخر ، على خلافِ ما في ظاهرها من التقاربِ بين أبناءِ المجتمع. أمّا إذا طعامُ المآدبِ من أبوابِ كسبٍ صحيحةٍ ، وغاياتُهُ تخلو من الشُبُهاتِ ، فلا ضير من أنْ ينال منه الوالي وغيره .

## الإمامُ عليه السلام قُدوةُ أصحابـه :

يضعُ الإمامُ عليه السلام في هذا الجزءِ من كتابهِ صورةً لنفسهِ الكبيرةِ أمام

(١) المحاسن ٢/ ٤١١ .

(٢) لسان العرب ( لفظ) .

عثمان بن حُنيف وأمام غيرهِ من الولاةِ خاصةً والمسلمين عامّةً ، ليقتدوا به في حياتهم ، فيقول : (( ألا وإنّ لكلّ مأمومٍ إماماً يقتدي به ويسيرُ بنورِ علمهِ ، ألا وإنّ إمامَكم قد اكتفى من دنياهُ بطِمريهِ ، ومنِ طعمهِ بقرصيهِ))[١].

وضع الإمامُ هنا قاعدةً يستنيرُ بهديها كلُّ مُسلمٍ ، وهي أنْ يكون له إماماً يقتدي به فيما يعملُ ، ويستنيرُ بنورِ علمه فيما يغشاهُ من مدلهمّاتِ الحياةِ ، والإمامُ هنا يجبُ أنْ يكونُ عالماً حتى يستنيرَ بنورِ علمه الآخرون ، فعلمُ الإمامُ ليس خاصّاً به ليستدّلَ هو لوحدهِ بعلمهِ فقط ، بل يجبُ أنْ يفيضَ نورُ ما يملكُ من علمٍ على غيره ليهتديَ به . وهذه مفارقةٌ معرفيّةٌ جديرةٌ بأنْ نقفَ عندها ،فنقول : إنّ العودةَ إلى المعجم العربي للوقوفِ على معاني الجذرِ (أمم) ، تهيّءُ لنا ما نريدُ قوله . ومما جاء في لسانِ العربِ تحت هذا الجذر ما يأتي[٢] :

١ـ الإمام : خشبة البناء يُسوّى عليها .

٢ـ الإمام : الخيط الذي يُمد على البناء فيبنى عليه ، ويُسوّى عليه ساف البناء .

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٠ .الطِمرُ : الثوبُ الخلِقُ .

(٢) يُنظر : لسان العرب ( أمم) .

٣ـ إمام الجند : قائدهم .

٤ـ الحادي : إمام الإبل وان كان وراءها لأنه الهادي لها .

٥ـ الإمام : الطريق .

٦ـ الإمام : الذي يُقتدى به ، وما أؤتم به من رئيس أو غيره .

٧ـ إمام كل شيء : قيّمهُ والمصلح له .

إنّ خصوصياتِ الاستعمالِ الاجتماعيّ للجذر ( أمم ) على وفقِ ابنِ منظورِ تشكّلُ لنا إطاراً معرفيّـًا كليّـًا ، يُحيطُ بالاستعمالاتِ الجزئية ويتشكّلُ منها . وإنْ شئنا القولَ إنّها تتفرع منه ، وهذا كلُّه يُعطينا الدلالةَ الاصطلاحيةَ الواسعةَ لمفهومِ ( الإمامة ) وعلى النحو الآتي :

إن المعنيين الأوّلَ والثاني يُمثلان الأصلَ اللغويَّ للجذرِ ( أمم ) ، ـ على وفق ابن منظور أيضـًا ـ ، و يتضمنان معنى الاستواءِ والاستقامة والمثالِ الذي يُحتذى ، وعلى وفقِ هذا الاستواء ، يسوّى الميلَ والاعوجاجَ كما يُسوّى سافَ البناءَ على الخيطِ المستقيم[1] .

هذا من جهة ومن جهة اخرى ، فإنَّ الاستقامة والاستواء صفتان موجودتان في خشبة البناء وخيطه بذاتهما قبل أن يجعلهما البنّاء مثالاً يُحتذى في البناء ، والذي يُغرينا بهذه الممايزة المعرفيَّة هنا ، إنَّ الخشبةَ

(١) أهل البيت عليهم السلام في نهج البلاغة / قراءة تأويلية ٢٣ .

والخيطَ مستقيمان في أصلِ وضعهما . فالإمامُ ينبغي أن يمتلكَ هذه الاستقامةَ قبل أنْ يكونَ إماماً يقتدي به الآخرون، بل إنّها ـ أيْ الإمامة ـ جاءت اليهِ بفعلِ هذه الاستقامةِ وذلك الاستواءِ ـ كما سنرى بعد حين .

وبلحاظ المعاني الاخرى لـ ( أمم ) ، نخلص إلى أنَّ ثمة معانيَ أربعة تستوعب ما بقي منها ، وهذه المعاني هي ( القدوة ، الطريق ، القيادة ، الهداية ) ، فاذا قرأنا هذه المعاني قراءة جمعٍ مع المعنيين الأوّلِ والثاني ، نخلصُ إلى أنَّ وجودَ الاستواءِ والاستقامةِ في خشبةِ البناء وخيطهِ ، جعلهما قوة وطريقاً وقيادة وهداية لمن يتمثّلهما .

وهذا التوجيه المستنبط بيُسر من معاني ( أمم ) ، يكشف لنا الدلالةَ الاصطلاحيةَ لدلالة ( الإمام) في قول الامام ـ عليه السلام ( ألا وإنّ إمامَكم ) ، ولم يقلْ ( إمامك) ؛ لأنّ ما يعنيهِ عليه السلام هو المعاني التي مرّ ذكرُها .

فالإمامةُ إذاً في ضوءِ ما سبق : طريقٌ ومنهجٌ يتمسّكُ به الانسانُ فيضع أمامه مثالاً يحتذى به كخيطِ البناءِ ، بعد أنْ توفرتْ فيه تلك الاستقامةُ وذلك الاستواءُ . فصار ( المثال ) قدوةً وسبيلَ هدايةٍ لتنظيمِ الحياةِ ، كما صار خيطُ البناءِ طريقَ هدايةٍ وإرشادٍ للبنّاءِ في بنائه .. ومن هنا ، فإنّنا سنفهم قولاً آخرَ لابنِ منظورٍ عن معنى ( الإمام )[1] ، مثل إمام الجُند

(١) ينظر : لسان العرب ( أمم) .

وإمامِ الإبلِ وإمامِ المصلّين .... إذْ يُصبحُ المعنى مُقيّداً بما أضيفَ إليهِ ، وهنا تُصبح إمامةُ هؤلاءِ وظيفةً وليستْ منهجـًا ، فوظيفةُ قائدِ الجُندِ (إمامهم ) هي غير وظيفة حادي الإبلِ ( إمامها ) ، وهذهِ وتلك غَيرُ وظيفةِ الرئيسِ وإمامته . ولكنْ في الأحوالِ كلّها لا يتخلّى الإمامُ الذي ينهضُ بوظيفتهِ عن الاستواءِ والاستقامةِ . لأنّهما الركنان اللذان أعطياهُ هذه الصفة .

واستناداً إلى ما تقدّمَ صار واضحـًا ما يُريدهُ الإمامُ عليه السلام بقوله (إمامكم) ، إذْ تجمعُ هذه اللفظةُ المعاني المشارَ إليها كلّها ، ليقطعَ بذلك الطريق على من يُسمّي نفسه إمامـًا للمسلمين من غيرِ أنْ تتمثّلَ فيه الصفاتُ التي أعطانا إيّاها المعنيان اللغويُّ والاصطلاحيُّ للفظةِ (الإمام)[١] .

ويوردُ الإمامُ عليه السلام وجهـًا من وجوهِ استهانتهِ بما يتهافتُ عليه غيرُهُ من أمورِ الدنيا ، فيذكرُ أنّه اكتفى من لباسِ الدّنيا بطِمريهِ ، ومن مأكلِها بقرصيهِ . فالطِمرُ : هو الثوبُ الخَلِقُ الذي أبلاهُ الدهرُ[٢]. فهو عليه السلام اكتفى

(١) لقد أطلنا قليلاً في التنظيرِ لدلالةِ (الإمام) ، لأنّنا نؤمنُ أنّ الإمامَ عليّـًا عليه السلام ، كان يهدفُ إلى تبصيرِ الناسِ بشؤنِ حياتهم ، ويُوجبُ عليهم أنِ يقتدوا به بوصفه إمامَهم الذي تتحقّقُ فيه دلالات لفظة (إمام) على وفقِ المفهوم الذي بسطناه ، وهو ما أمر به الله تعالى .

(٢) ينظر: لسان العرب (خلق) .

بثوبينِ خلِقينِ ((وإنّما جعلهما اثنينِ لأنّهما إزارٌ ورِداءٌ لا بدّ منهما ، أيْ للجسدِ والرأسِ))[١]. أما القرصانِ فهما أقلُّ ما يُقيمُ بهما الإنسانُ حاجةَ جسمهِ ، ويسدّ بهما فورةَ جوعه [٢] ، ولا ثالثَ لهما عند أميرِ المؤمنينعليه السلام .

ثمّ يعودُ الإمامُ عليه السلام ليذكرَ عدمَ قدرةِ أصحابهِ على العيشِ كعيشهِ فيقول : (( ألا وإنّكم لا تقدِرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورعٍ واجتهادٍ وعفّةٍ وسدادٍ ))[٣].

يطلبُ الإمامُعليه السلام العونَ من أصحابهِ هنا ليبني لهم حياتَهم ومجتمَعهم على وفقِ ما يريدهُ اللهُ عزّ وجلّ، يطلبُ عونهم من خلالِ تحلّيهم بالصفاتِ التي ذكرها، والآن ننظرُ فيما تؤديّه هذه الصفاتُ من معانٍ لنرى بعضاً من خطوطِ المنهجِ العلوي في بناءِ الإنسانِ والمجتمعِ على السّواءِ .

والصفةُ الأولى التي ذكرها عليه السلام هي (الورع) ، فما دلالةُ هذه اللفظةُ في اللغةِ . ومما جاء في لسانِ العربِ تحت الجذر (ورع) المعاني الآتيةُ[٤]:

١ . الورعُ : التحرّجُ ، تورّع عن كذا ، أيْ تحرّجَ .

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦/ ٢٠٧ .

(٢) روى ابن أبي الحديد في شرحه رواية أخرى لكلامِ الإمامِ عليه السلام هذا ، وهي (( قد اكتفى من الدنيا بقرصيهِ ، وسدّ فورةَ جوعه بقرصيهِ ...)) . يُنظر : م . ن .

(٣) نهج البلاغة ٣/ ٧٠ .

(٤) ينظر : لسان العرب ( ورع) .

٢. الورِعُ : الرجلُ التقيُّ المتحرِّجُ .

٣.الورعُ : الكفُّ عن المحارمِ والتحرّجُ منه ،ثمّ استعير للكفِّ عن المُباحِ والحلالِ .

٤.الورعُ : الاحتشامُ والكفُّ عن سوءِ الأدبِ .

إنَّ أوّل ما ينبغي أنْ يُلتفتَ إليه في هذه المعاني ، أنّ ( الورع) في الأصلِ تعني الكفَّ عن المحارمِ ، وهذه الصّفةُ يجبُ أنْ تكونَ صِفةً لكلِّ مُسلمٍ ، فالإمامُ عليه السلام يريدُها لأصحابِهِ بهذا المعنى ، ويريدُ وبشدّةٍ المعاني الأخر التي ستكون قواماً لبناءِ المجتمعِ ، فإذا تمسّك أصحابُهُ بالكفِّ عن المُباحِ إلا بقدرِ ما يحتاجون إليه لإقامةِ شؤونِ حياتهم ، وتركوا سوءَ الأدبِ فيما بينهم ، وتحرّجوا من ذلك كلّه واحتشموا ، صاروا أتقياءَ متحرّجين على وفقِ ما يؤدّيه المعنى رقم (٢) أعلاه . ومن هنا تتجسّدُ المعونةُ التي أرادها الإمامُ عليه السلام من ولاتهِ خاصةً والمسلمين عامّةً . ويُصبحُ الوَرَعُ ملاكاً للدينِ كما جاء في الحديث الشريف : (( ملاكُ الدينِ الورعُ ))[١].

أمَّا الصّفةُ الثانيةُ التي ذكرها الإمامُ عليه السلام فهي (الاجتهاد) ، فما دلالتُها في قولِه عليه السلام . وعند العودةِ إلى المعجمِ العربي نجد المعاني الآتية[٢]:

(١) النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣٥٨ ، كنز العمال ٣/ ٤٣٠ .

(٢) ينظر : لسان العرب ( جهد) .

١. الاجتهاد : بذلُ الوسعِ والمجهودِ في طلبِ الأمرِ .

٢. الجهد : بلوغُك غايةَ الأمرِ الذي لا تألوا على الجهدِ فيه .

٣. الجهادُ : محاربةُ الأعداءِ ، والمبالغةُ واستفراغُ الوسعِ في الحربِ أو اللسانِ أو ما أطاق من شيء .

تُظهرُ لنا هذه المعاني أنّ ( الاجتهاد ) يُحتّمُ على الإنسانِ أنْ يبذلَ غايةَ مجهوده في طلبِ أيّ أمرٍ يريدُهُ مما يأمرُ به اللهُ تعالى ، ومن ذلك استفراغ الوسعِ في مجاهدةِ النفسِ ، ومن ذلك عدمُ استيعابِ الحلالِ كلِّه حتى لا تتوقَ النفسُ إلى الحرام ،وقد قيل (( من استوعبَ الحلالَ كلَّه تاقتْ نفسُهُ إلى الحرامِ ))[١] . ثم تأتي مجاهدةُ العدوِّ ، ومن غيرِ شكٍّ أنّ هذا المعنى أظهرُ المعاني التي يحتاجها المسلمون في تلك الحقبةِ الزمنيّةِ بعد المعنى السّابقِ ، فالعدوُّ في الشّامِ يتربّصُ بهم ، وهذا يفرضُ عليهم بذلَ الوسعِ من أجلِ مواجهته .

وتأتي بعد ذلك الصفةُ الثالثةُ التي ذكرها الإمامُ عليه السلام ، وهي ( العفّةُ) ، ومن معانيها التي يرتضيها السياقُ ما يأتي[٢] :-

١. العفّةُ : الكفُّ عن الحرامِ .

---

(١) التذكرة الحمدونية ١/ ٢٠٦ .

(٢) ينظر : لسان العرب (عفف) .

٢. العفّةُ : الكفُّ عمّا لا يحِلُّ ويجمُلُ .

٣. العفّةُ : الكفُّ عن السؤالِ من الناسِ .

٤. الاستعفافُ : الصبرُ والنزاهةُ عن الشيء .

فالعفّةُ على وفقِ هذه المعاني تقومُ على ركنينِ رئيسينِ ، الأوّلِ : امتناع المسلمِ عمّا لا يحلُّ له ، وهذه الصّفةُ ينبغي توفُّرها في المسلمِ ابتداءً، والركنُ الثاني هو الكفُّ عمّا لا يجمُلُ (أيْ لا يليقُ) بالمسلمِ ، والامتناعُ عن السؤالِ من الناسِ ، والصبرُ عمّا لا يجمُلُ ، والنزاهةُ عن الشيء الذي لا يرضاهُ المجتمعُ وتطلُبُهُ النفسُ . ونحسبُ هنا أنّ المعونةَ التي طلبها الإمامُ من أصحابه تتمثّلُ في هذا الركنِ بشعبهِ المذكورةِ ، لأنّ التمسّكَ بها ينظّمُ حياةَ المجتمعِ ، ويربأ بالمسلمِ من الانحدارِ إلى مهاوي الرّذيلةِ . فتُبنى شخصيّتُهُ بناءً متماسكـًا ، فيقترب بهذا من الصورةِ التي يريدُها الإمامُ عليه السلام .

وتبقى الصّفةُ الرابعةُ من الصفاتِ المذكورةِ وهي (السّداد) ، فما دلالتُها ؟ . جاء في لسان العربِ تحت الجذر (سدد) المعاني الآتيةُ :

١.السّددُ : القصدُ في القولِ والوَفقُ والإصابةُ .

٢.التسديدُ : التوفيقُ للسدادِ ، وهو الصوابُ والقصدُ من القولِ والعملِ .

وهذه الصّفةُ تتجسّدُ في وجهينِ ، هما القولُ والعملُ ، وهذان الوجهان يشكّلان الحياةَ التي يحياها المسلمُ، فإذا وقعَ السّدادُ فيهما وتطابقا تحقّقَ، سرا العدلُ بين الناس في مناحي حياتهم في السيرةِ الظاهرةِ، أما إحرازُ سريان العدلِ بينهم وبين ما يريدُهُ الله تعالى فذلك ما يتكفّلُ به الإمامُ عليه السلام في دولةِ العدلِ الإلهي التي بناها مدّة خلافته الرسميّةِ.

إنّ الاعتدادِ بهذه المعاني يُعيننا على تمثّلِ ما يسعى الإمامُ عليه السلام إلى بيانهِ من خلال طلبهِ العونَ من أصحابهِ بالتمسّكِ بالصفاتِ الأربعة التي مرّ ذكرها في الصفحاتِ السابقةِ ، لينهضَ بمهمةِ بناءِ الإنسانِ المسلمِ والمجتمعِ على السّواء .

## من مظاهرِ زُهدُ الإمامِ عليه السلام بالدنيا :

يلتفتُ الإمامُ عليه السلام في هذا الجزءِ من كتابهِ إلى تذكيرِ ولاتهِ الذين يمسكون بتدبيرِ شؤون البلادِ الإسلاميةِ ، ومن خلالهم تذكير بقيةِ المسلمين بالحياةِ التي يحياها ، وهو الخليفةُ ، ليتأسّوا بسيرتهِ ومنهجِهِ الربّانيّ الذي وضعه أمامهم في حياتهِ. فيقول مبيّنًا ذلك: ((فَوَاللهِ ما كنزتُ من دنياكم تِبراً، ولا ادّخرتُ من غنائمها وَفْراً ، ولا أعددتُ لبالي ثوبي طِمراً))[1].

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٠ .

بدأ الإمامُ عليه السلام هذا المقطعَ بالقسمِ أنّه لم يكنزْ من الدّنيا تِبراً ، والغرضُ من القسمِ في العربيّةِ توكيدُ الكلامِ وتقويتُهُ[١] ، فالإمامُ أقسم ليؤكّد المعنى الذي يريدُ ، خشيةَ أن يكونَ بين المسلمين لا عهد لهم بمن يملكُ الدنيا ولا يعبأ بها بعد النبي صلى الله عليه وآله ، فأقسمَ الإمامُ ليزيل عن نفوسِ هؤلاءِ ما قد يعلقُ بها مما أشرنا إليه . وإلّا فما يقولهُ عليه السلام حقائق لا يُخالطها شكٌّ بإجماعِ المسلمين . والملاحظُ أنَّ الإمامَ عليه السلام نسب الدّنيا إلى عاملهِ ومن خلالهِ إلى المسلمين ، فقال ( دنياكم) ولم يقلِ (الدّنيا) ، فدلّنا بهذه النسبةِ على أنْ لا شأن له بالدنيا ، فنسبها إلى غيره ، وهذا يتطابقُ مع ما كان شائعاً عليه السلام بين المسلمين عن زهده بالدنيا ، ويزخرُ نهجُ البلاغةِ بشواهد كثيرةٍ على هذا ، وسأورد مثالاً واحداً منها ، فقد روى أبو الأسود الدؤلي أنّه رأى الإمامَ حينما دخل بيتَ مالِ البصرةِ بعد وقعةِ الجملِ ، فلما رأى ما فيه قال : ((يا صفراءُ يا بيضاءُ غرّي غيري ، المالُ يعسوبُ الظَلَمةِ، و أنا يعسوبُ المؤمنين ، فلا واللّهِ ما التفتَ إلى ما فيه))[٢] .

فالإمامُ عليه السلام لم يكنزْ (( والكنزُ : اسمُ المال إذا أُحرِزَ في وعاء))[٣] من دُنيا المسلمين تِبراً ، والتِبرُ: الذهب ، وقد خصّ عليه السلام ( التبر) بالذكر ؛

(١) ينظر : معاني النحو ٤/ ١٨٥ .

(٢) الجمل ١٥٤ .

(٣) لسان العرب ( كنز) .

لأنّ المعهودَ في الكنوزِ أنْ تكون من الذهبِ ، فإذا انتفى إحرازه للذهبِ ، انتفى معه ملكه لأيِّ مال .

ولكنْ ثمّة توجيه يلوحُ لنا من خلالِ لفظةِ (التبر) ، وهو أنّ من معاني هذا الجذرِ ( الهلاك) يُقالُ : تبّره تتبيراَ أيْ كسّره وأهلكه[١]، فالإمامُ عليه السلام ، يريدُ أنْ يُعلمَ المسلمين بالهلاكِ الذي ينتظرُ من يكنزُ الذهب والفضّةِ منهم من غيرِ حلّها ، فآثر الإتيان بهذه اللفظةِ لهذه الدلالةِ التي تَحمِل توجيهاً شرعيّاً وتربويّاً وأخلاقيّاً ، إذْ سيحضر قوله تعالى : ﴿... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢]، أمامَ الكانزين ، ويُوازنون بين حالهِم وحالِ الإمامِ الذي أبى أنْ يكنِز شيئاً من حطامِ دنياهم .

أمّا قولُهُ عليه السلام (ولا ادّخرتُ مِنْ غَنائِمِها وَفْرا ) ، فهو لم يدّخرُ من غنائمِ دنيا الآخرين مالاً ، كما هو مألوفٌ عند سائرِ الناسِ ، الذين يدّخرون ما يقدرون على ادّخارهِ ليواجهوا به شؤون حياتهم وشجونها ، ولكنّ عليّاً عليه السلام واجه دنياهم بما تستحقّهُ من الزهد بها وبمُغرياتها .

ويختمُ هذا المقطعَ من كلامه بقوله (ولا أعددتُ لبالي ثوبي طمرا)،

---

(١) ينظر : لسان العرب ( تبر) .

(٢) التوبة: ٣٤.

فيكتملُ به مظهرُ زهده بهذه الدنيا ،إذْ لم يهيءْ بدلاً لثوبهِ حينما يبلى ، وهذا غايةُ الانصرافِ عن الدنيا ، والتوجّه إلى الله تعالى ، وهذا ما لا يَقدِرُ عليه أحدٌ غيرُه ، كما ذكر عليه السلام ذلك فيما مرَّ قبل قليل.

ثمّ يلتفتُ الإمامُ عليه السلام إلى المظهرِ الرئيسِ من مظاهرِ إعراضهِ عن دنيا الآخرين ويستحضرُ واقعةَ (فدك) ، فيقول : بلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّماءُ، فَشَحَّتْ عَلَيهَا نفُوسُ قوْم، وَسَخَتْ عَنهَا نفُوسُ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ))[1].

استحضر الإمامُ عليه السلام هنا قضيةً من قضايا التاريخِ القريبِ الذي يعلمُهُ أغلبُ أصحابهِ الذين عاصروا زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي إشارتُه إلى استملاكهم لأرضِ (فدك) التي وهبها النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم للسيدةِ فاطمةَ الزهراء عليها السلام [2]، ونحسبُ هنا أنَّ هذهِ الإشارةَ تحقّقُ أمرينِ ، الأوّلِ : أنّها توكيدٌ لما ذكرهُ عليه السلام من أنّه لا يملكُ من دنيا المخاطبين شيئـًا ، والثاني :

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٠ .

(٢) فدك قرية من قرى الحجاز ، بينها و بين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في سنة سبع للهجرةِ صلحا ، و ذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لمّا نزل خيبر و فتح حصونها، ولم يبق إلاّ فدك، راسله أهلُها أن يصالحهم على النصف من ثمارهم و أموالهم .فأجابهم إلى ذلك . فهي ممّا لم يوجف عليه بخيلٍ و لا ركابٍ ، فكانتْ خالصةً للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم . فوهبها صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة عليها السلام . يُنظر : معجم البلدان ٣/ ١٠٢ .

التذكير بواقعةٍ تركتْ آثارها الكبرى في مسيرِ الحياةِ الإسلاميّةِ ، حينما أُخذتْ (فدك) منه . ولكنّه عليه السلام آثرَ أنْ يذكرَ الحادثةَ بهذهِ الإشارةِ الموجزةِ التي غلَّفها برفقٍ ولُطفٍ ، فلم يُسمِّ من شحّتْ نفسُه بها اعتماداً على ذاكرةِ الناسِ التي ما زالتْ طريّةً ، تحتفظ بالتفاصيلِ التي يلمّحُ إليها بما يقتربُ من التصريح .

وأمرٌ آخرُ نراهُ يختبأُ خلفَ هذا التعبيرِ، وهو استعمالُ الإمامِ للفظةِ (شحّتْ)، والشُّحُّ هو البُخْلُ بالمالِ والمعروفِ ، بخلافِ البُخلِ الذي يكون بالمالِ فقطْ، ففاطمةُ عليها السلام لو لم تكن (فدك) لها لاستحقتْ من المعروفِ ما يمنعُ التعرّضُ لها بأيّ وجهٍ من الوجوهِ، فكيف و(فدك) لها من أبيها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله ، ومن هنا تظهرُ لنا دقّةُ استعمالِ الإمامِ عليه السلام للألفاظ في لغته العلويّةِ.

ويضعُ الإمامُ عليه السلام معادلاً تعبيريّـًا لنفوسِ القومِ التي شحّتْ بفدك ، يتمثّلُ في نفوسِ قومٍ آخرين سختْ عنها ، ونفوسُ القومِ هنا نفسُهُ الكبيرُةُ التي أغضتْ عن حقّها الشرعيّ وتركته ولم تُنازعهُ إليهِ على وفقِ ما يقدمهُ الجذرُ (سخا) من معانٍ . وهذه الموازنةُ التي أجراها الإمامُ عليه السلام بين نفسين ، تُظهِرُ سُموَّ النفسِ التي سامحتْ وأغضتْ ( وهذا معنى السخاءِ هنا)[1] ، بما تملكُ على النفسِ التي شحَّتْ بما لا تملك .

(١) ثمّة رأي طريف لابن أبي الحديد في دلالةِ (السخاء) هنا ، ينظر: شرح نهج البلاغة ١٦/ ٢٠٩.

ثمّ يُتِمُّ الإمامُ عليه السلام الفقرةَ السابقةَ من كتابه بقوله ( ونعمَ الحَكَمُ اللهُ )، فالموازنةُ التي أجراها الإمامُ بين النفوسِ التي شحّتْ والنفوسِ التي سختْ وكلها إلى اللهِ تعالى ليحكمَ فيها ، ونعم الحكمُ هو جلّ شأنُه . وقد استشعرَ ابنُ أبي الحديدِ ضربـًا من الشكوى والتظلّمِ في قولِ الإمامِ عليه السلام فقال : (( ... وهذا الكلامُ كلامُ شاكٍ متظلّمٍ ))[١].

ولكي لا يتسرّب إلى بعضِ النفوسِ ضربـًا من الشكّ ، أنّ ما قالهُ عليه السلام ينمّ عن انشغالٍ بأمرِ ( فدك ) ، قال عليه السلام متمّـًا حديثَهُ عن الزهدِ بالدنيا : ((وما أصنعُ بفَدَكٍ وغيرِ فدكٍ ، والنّفسُ مظانُّها في غدٍ جَدَثٌ ، تنقطعُ في ظُلمتهِ آثارُها وتغيبُ أخبارُها ، وحفرةٌ لو زيدَ في فُسحتِها ، وأوسعتْ يدا حافرِها ، لأضغطها الحجُر والمدرُ ، وسدَّ فُرَجَها التّرابُ المتراكمُ))[٢].

يبسُطُ الإمامُ هنا دواعي زهدَه بالدُّنيا ، ليكون هذا الكلامُ موعظةً وإرشاداً ونُصحـًا للمسلمينَ ، فيستفهمُ من نفسهِ عن (فدك) وغيرها مُقلّلاً من شأنها ، محقّراً لها لا بوصفها أرضـًا يملكها ، ولكن بوصفها متاعـًا من أمتعةِ الدنيا الفانيةِ ، ومن هنا جاء استفهامُ عليه السلام مشوبـًا بحسرةٍ وتوجّعٍ

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٠٩ .

(٢) نهج البلاغة ٣/ ٧١ .

وألمٍ على غيرهِ ممن جعلَ الدنيا همّه الرئيسَ . فما قيمةُ الدنيا مقابل ما ينتظرُ الإنسان ، فالنفسُ مظانّها التي تستقرُ فيها غداً جدثٌ (قبر) ، ومظانّ الشيء : المحلُّ الذي يُظنُّ وجودُ الشيء فيه[١]، والظنُّ هنا بمعنى العلمِ ، فالنفسُ تعلمُ بمآلها إلى القبرِ ، ونرجّحُ هنا أنَّ الإمامَ عليه السلام آثر استعمالَ (الظنّ) للدلالةِ على العلمِ ، لأنّ تهافتَ الناسِ على الدنيا يُنسيهم أجداثهم، فكأنّما سلوكهم يومئ إلى ارتيابهم بذلك كلّه ، فصارتْ هذه المفردةُ تعبّرُ عن علمِ البصير بما ينتظرهُ ، وتعبّرُ في الوقتِ نفسه عن ارتيابِ غيرِ البصيرِ بمآلهِ ، لقدرةِ الجذر (ظنن) على التعبيرِ عن المعنيينِ في آنٍ واحدٍ[٢] ،لأنّ السِّياقَ يحتملُ ما نقوله .

أمّا قولُهُ عليه السلام : ( تنقطعُ في ظُلمتهِ آثارُها وتغيبُ أخبارُها ) ، فيعني أنَّ آثارَ الإنسانِ تنقطعُ وتنتهي حالَ دخولهِ إلى قبرهِ ، وذكرُ ظلمةِ القبرِ هنا يزيدُ في انقطاعِ الآثارِ ، لأنّ الظلامَ مما يُخفي ، والأثَرُ : كلُّ ما يؤثّره الرجلُ بقدمه في الارضِ[٣]. فموتُهُ يعني انقطاع أيَّ أثرٍ عنه .

ثمّ يصفُ الإمامُ عليه السلام القبر الذي ستؤولُ إليه نفسُ الإنسانِ فيقول :

---

(١) ينظر : لسان العرب ( ظنن) .

(٢) يُنظر : م . ن .

(٣) ينظر : لسان العرب ( أثر) .

((وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ ))[١].

يصفُ الإمامُ عليه السلام هنا القبرَ الذي ينتظرُ نفسَ الإنسانِ ، فهو حفرةٌ ضيّقةٌ ولو أراد الحافرُ توسعتَها لتقرَّ عينُ الناظرِ إليها[٢]، لضيّقها الحجرُ والمدرُ وضغطتْ على من يحلُّ فيها ، وهذا التهويلُ لصورةِ القبرِ يزدادُ هولاً حينما يسدّ الترابُ المتراكمَ الفُرَجَ التي تبقى بين الحجرِ والمدرِ الذي يُسدُّ به اللحدُ الذي يُسجّى فيه الميتُ . وهذهِ الدّقةُ في الوصفِ تُسرّبُ إلى النفوسِ هلعـًا من هذه النهايةِ المحتومة .

إنّ تركيزَ الإمامِ عليه السلام على هذه الجزئيات الصغيرةِ من النهايةِ المحتومةِ لكلّ إنسانٍ كافٍ لتبصيرِ الناسِ بما ينتظرُهم في نهايةِ دنياهم وبدايةِ آخرتهم ، وقد يُقالُ هنا :إنّ الناسَ يرَون كلَّ يومٍ هذه المشاهدِ ولكنّهم لا يأخذون ما ينفعهم لدنياهم وآخرتهم ، بيد أنّ الوصفَ إذا جاء من أميرِ المؤمنينَ عليه السلام ، له دلالةٌ أخرى ومعاني أخر ، وخاصّةً إذا كان الكلامُ موجّهـًا إلى الصحابي عثمان بن حُنيف الأنصاري .

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧١ .

(٢) ورد أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله رأى في قبرِ ابنه إبراهيمَ فرجةً فأمرَ بها تُسّدّ . فقيل له : فقال : أمّا إنّها لا تضرّ و لا تنفع : ولكنّها تُقرّ عينَ الحيّ ، وإنّ العبدَ إذا عملَ عملاً أحبَّ اللّهُ تعالى أن يتقنه . ينظر : الطبقات الكبرى ٨/ ٢١٥ .

ويقولُ الإمامُ عليه السلام في كتابه : (( وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسي أُرَوِّضُهَا بِالتَّقْوى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الأَكْبَرِ ، وَ تَثْبُتَ عَلى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ ))[١].

يُعطي الإمامُ عليه السلام في هذا المقطعِ جواباً لمن يريدُ أنْ يهتديَ إلى طريقٍ يعصِمُهُ من أهوالِ ما ينتظره ، فيجيبُ الإمامُ عليه السلام بهذا المقطعِ من كلامهِ ، مُتحدّثاً عن نفسهِ ، لأنّ هذا أشدّ تأثيراً في نفسِ من يسمعُ ، فجعل التقوى سبيلاً لترويضِ النفسِ ، والتقوى تعني : أنْ يقي الإنسانُ نفسَه من العقابِ والمعاصي بالعملِ الصالحِ [٢]، وهذا لا يتأتى إلّا بترويضِ النفسِ، والترويضُ هنا يعني : التعليمَ والإذلالَ حتى تكونَ طيّعةً لأمرِ صاحبها . ولا شكّ أنّ الإمامَ عليه السلام نبّه المسلمين إلى أنّ بإمكان أيّ واحدٍ منهم أنْ يصل إلى مرتبةِ التقوى بتدريبِ النفسِ وترويضها وتهذيبها ، فينجو من أهوالِ الآخرةِ ، ومن هنا جاء قولهُ : ( لتأتي آمنةً يوم الخوف الأكبر) ، فالإمامُ عليه السلام أراد أنْ يُطمئِن من يُروّضُ نفسَه على التقوى بدلالةِ هذه الآيةِ الكريمةِ ، التي تُظهرُ البشرى التي تتلقّى بها الملائكةُ هؤلاءِ يوم الخوفِ الأكبرِ . وهؤلاءِ هم من يتمسّكُ بنهجِ عليٍّ عليه السلام في حياتهِ ، وقد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : يا علي أنت وشيعتُك على الحوضِ تَسقون

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧١ .

(٢) ينظر : لسان العرب ( وقى) .

من أحببتم، وتمنعون من كرِهتم ، وأنتمُ الآمنون يومَ الفزعِ الاكبرِ في ظلِّ العرشِ ، يفزعُ الناسُ ولا تفزعون ، ويحزنُ الناسُ ولا تحزنون ، فيكم نزلتْ هذه الآيةُ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(١) (٢) ومعلومٌ أنّ من يُشايعُ عليّـًا عليه السلام هو من يسيرُ على نهجهِ ويترسّمُ خطاهُ ويتمسّكُ بحبلهِ، وهو حبلُ اللهِ المتين .

ويُبيّنُ الإمامُ عليه السلام أنّ ترويضَ نفسهِ على ما مرَّ ذكرُهُ ، لا يعني أنّه غيرُ قادرٍ على أنْ يأخذَ من الدنيا ما يُريدُ . يقولُ متمّـًا قوله السابق : ((ولو شئتُ لاهتديتُ الطريقَ إلى مصفّى هذا العسلِ، ولبابِ هذا القمحِ، ونسائجَ هذا القزِّ. ولكن هيهات أنْ يغلبني هواي ، ويقودَني جشعي إلى تخيّرِ الأطعمةِ - ولعلّ بالحجازِ أو اليمامةِ من لا طمعَ له في القرصِ، ولا عهدَ له بالشبعِ - أو أبيتُ مبطانـًا وحولي بطونٌ غرثى وأكبادٌ حرّى، أو أكونُ كما قال القائلُ:

وحسبُكَ داءً أنْ تبيتَ ببطنةٍ وحولك أكبادٌ تحنّ إلى القدِّ))(٣)

---

(١) الأنبياء ١٠١ - ١٠٣.

(٢) بحار الأنوار ٧/ ١٧٩ . والآيات من سورة الأنبياء .

(٣) نهج البلاغة ٣/ ٧١، ٧٢ .

فلو أراد عليه السلام أنْ يهتديَ إلى ملذّاتِ الدنيا من المأكلِ والملبسِ لأمكنه ذلك ، سواءٌ أكان خليفةً أم لا ، ففي الحالينِ بمقدورهِ ذلك ، ولكنّه عليّ عليه السلام الذي كان يعملُ بيدهِ لينفقَ ما يحصلُ عليه من أجرٍ على فقراءِ المسلمين ومساكينهم حينما كان في المدينةِ[١]،وحينما استوطن الكوفةَ خليفةً ، كان يكنسُ بيده بيتَ المالِ ، بعد أن يوزّعُ ما فيه على المسلمين بعدلهِ المعروفِ ، ثم يُصلّي فيه ركعتي شكرٍ لله ربِّ العالمين ، ومن هذه حالهُ فهل يعبأ بطيبِ مأكلٍ أو ملبس ؟ هذا لا يكونُ . وثمّة قولٌ آخرُ للإمامِ عليه السلام أشدُّ بياناً لاشمئزازهِ من طلبِ الدنيا وزينتِها ، أورده الشيخُ الصدوقُ في أماليه ، يؤكّدُ عزوفَ الإمامِ عليه السلام عن دنيا الآخرين: ((... ولو شئتُ لتسربلتُ ، بالعبقريِّ المنقوشِ من ديباجكم، ولأكلتُ لُبابَ هذا البرِّ بصدورِ دجاجكم ، ولشربتُ الماءَ الزلالَ برقيقِ زجاجِكم، ولكنّي أصدقُ اللهَ جلّتْ عظمتُهُ حيث يقول : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾[٢]))[٣] .

(١) دعائم الإسلام ٢/ ٣٠٢ .

(٢) هود: ١٥.

(٣) أمالي الصدوق ٧١٩ .

ثمّ يُقررُ عليه السلام حقيقةً يعرفُها المسلمون جميعـًا عنه ، وهي استحالةُ أنْ ينقادَ عليه السلام إلى هواهُ ، وجاء بـ(هيهات) للمبالغةِ والتوكيدِ ، إذْ تؤدّي هذه اللفظةُ ، الدلالةَ المشار إليها [١]. وتؤدّي المعنى نفسَهُ في القسم الثاني من القول السابقِ ، وهو استحالةُ أن يكون منقاداً إلى جشعهِ في تخيّرِ الأطعمةِ، فما المرادُ بالجشعِ هنا . جاء في لسانِ العربِ تحت الجذرِ المعاني الآتيةِ:

١. الجشعُ : أسوأُ الحرصِ .

٢. الجشعُ : أشدُّ الحرصِ على الأكلِ وغيره .

٣. الجشعُ : أنْ تأخذَ نصيبكَ وتطمعُ في نصيبِ غيرك .

٤. الجشِعُ : المتخلّقُ بالباطلِ وما ليسَ فيه .

إنّ ملاحظةَ هذه المعاني تظهرُ لنا صورةَ الجشعِ المقرِفة التي رسمها الإمامُ عليه السلام لمن يندفعُ بحرصٍ إلى تخيّرِ الاطعمةِ ، وتزدادُ هذه الصورةُ بشاعةً ، حينما يتأطّرُ الجشعُ بإطارِ أخذِك نصيبِ الآخرين وعدمِ الاكتفاءِ بنصيبِك ، وتبلغُ صورةُ الجشعِ ذروتها ، حينما ننظرُ في المعنى الثالثِ ، الذي يكرّسُ التخلّقَ بالباطلِ ، وإنْ لم يكن فيه ، وهذا المعنى وعلى الرغمِ من نفورِ النفسِ منه ، فإنّ يحملُ ضربـًا من التباهي بصفةٍ مذمومةٍ ، هي النفاقُ بعينه . ولا يخفى ما في هذه الصورِ من سماتٍ تُجبرُ الإنسانَ

(١) ينظر : معاني النحو ٤/ ٤٤ .

المسلمَ على السَّعيِّ لتهذيبِ نفسِهِ من هذه الصغائرِ التي تُصوّرُ سلوكـًا اجتماعيّـًا قد يكونُ مقبولاً عند من لا ينظر إليه بعينِ أميرِ المؤمنين ، ولو كان من خواصِّ أصحابه ، كما حال عثمان بن حُنيف .

ويُجسّدُ الإمامُ عليه السلام فيما بقي من قولهِ السابقِ الواجبَ الأخلاقيَّ والشرعيَّ الذي يجبُ أنْ ينهضَ به من يتولّى إدارةِ شؤونِ المسلمين ، ويجعلَ من سيرتهِ مثالاً يُتّبعُ في هذا الشأنِ ، إذْ إنّ حرصَه على عدمِ خضوعهِ لهواه نابعٌ من حرصه على أنْ لا يكون في بلادِ المسلمين ( وكنّى عنها بالحجاز أو باليمامةِ) ، من لا طمعَ له بقرصٍ من الخبزِ ، أو من لا عهد له بالشبعِ ، ولا يخفى ما في هذين التعبيرينِ من كنايةٍ دالّةٍ على الفقرِ الشديدِ ، الذي يكون تداركهُ من شأنِ من يتولّى أمورَ المسلمين . ثمّ يلتفتُ إلى نفسه فيخبرُ بضربٍ من التعجّبِ يُظهرهُ السياقُ ، عن مبيتهِ مبطانـًا (والمبطان: صيغةُ مبالغةٍ لمن تمتلئ بطنُهُ من الأكلِ امتلاءً شديداً) وحوله جياعٌ غرثى (والغَرَثُ: أشدُّ الجوعِ)[1] ، وأكبادٌ حرّى ، وهنا تتقابلُ الصورتانِ ، صورةُ ممتليء البطنِ ، وصورةُ الجائعِ العطشانِ الذي لا يقوى على مقاومةِ ما هو فيهِ ، لتجسّدَ حاجةَ المجتمعِ الإسلامي إلى العدالةِ التي تنظرُ إلى الجميعِ بعينِ الرحمةِ والإنصافِ .

---

(١) تُنظر معاني المفردتين ( مبطان ) و ( غرثى) في : لسان العرب ( بطن) و ( غرث) ، وقد استشهد صاحبُ اللسانِ بهذا المقطعِ من كلام الإمامِ عليه السلام .

ولكي يُحرّكُ الإمامُ عليه السلام وجدانَ العربِ الذين تربَّوا على قيمةِ الجوارِ في عصرِ ما قبل الإسلام ، جاء بشاهدٍ شعريٍّ تتمثّلُ فيه هذه القيمةُ بشكلٍ جليٍّ ، فجاء ببيتٍ شعريٍّ يجسّد ذلك :

وحسبُك داءً أنْ تبيتَ ببطنةٍ وحولك أكبادٌ تحنُّ إلى القدِّ

فالبطنةُ في البيتِ داءٌ يُصيبُ الإنسانُ به نفسَهُ إذا ملأ بطنهُ بالأكلِ ، ويزدادُ الداءُ بشاعةً إذا كان بجوارِ المبطانِ من يتمنّى أنْ يأكلَ شيئاً ولو كان قطعةً من سيرٍ مدبوغ. وهذه الصورةُ من أوجعِ ما يكونِ في دلالتها ، وهي لشاعرٍ جاهليٍّ ليس بمسلمٍ ، فما قولُنا في المسلم الذي كرّم له الإسلامُ هذه القيمةَ وهذّبها على وفقِ ما يريدهُ الله تعالى . ومن هنا يكونُ استشهادُ الإمامُ عليه السلام بهذا البيتِ تذكيراً لمن لم يتمكّنُ الإسلامُ من نفسه ، وظلّ وفيّاً للقيمِ الأخلاقيّةِ التي كانتْ سائدةً في العصر الجاهلي .

ويستمرُّ الإمامُ في بيانِ حالهِ لعاملهِ عثمان بنِ حُنيف ، فيقولُ : ((أأقنعُ من نفسي بأنْ يُقالَ أميرُ المؤمنين ولا أشاركهم في مكارهِ الدّهرِ ، أو أكونَ أُسوةً لهم في جشوبةِ العيشِ ، فما خُلِقتُ ليشغلني أكلُ الطيباتِ كالبهيمةِ المربوطةِ همُّها علفُها ، أو المرسلةِ ، شغلُها تقمُّمها ، تَكْتَرِشُ من أعلافِها وتلهو عمّا يُرادُ بها))[1].

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٢ .

يستفهمُ الإمامُ عليه السلام هنا استفهاما إنكاريّاً من نفسهِ عن نفسهِ ، ليؤكّد من خلالِ ذلك المعنى الذي يُريدُهُ ، وهو كيف يقتنعُ بأنْ يُقالُ له أميرُ المؤمنين ، وهو لا يشارك المؤمنين الذين جعلهُ اللهُ تعالى أميراً لهم في مكارهِ الدهرِ . لأنّ لقبَ (أمير المؤمنين) خاصٌّ به عليه السلام ، لا يشاركه به أحدٌ في دلالتهِ عليه ، فقد ورد عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنّ رجلاً سأله (( عن القائم يُسلّمُ عليه بإمرةِ المؤمنين ؟ قال : لا ذاك اسمٌ سمّى اللهُ به أميرَ المؤمنين عليه السلام ، لم يسمِّ به أحدٌ قبله ، ولا يتسمّى به بعده إلا كافرٌ، قلتُ : جُعلتُ فداك كيف يُسلّم عليه ؟ قال: يقولون: السّلام عليك يا بقيةَ اللهِ، ثم قرأ : بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ))[١].

فعليٌّ عليه السلام يوجبُ على نفسهِ أنْ يشارك المسلمين فيما يواجهون في حياتهم من نوائبِ الدهرِ ومكارهِ ، ليكون المصداقَ الأوّلَ لهذا اللقبِ الذي كرّمهُ اللهُ تعالى به ، ويكونُ أُسوةً لهم في جُشوبةِ العيشِ الذي يعيشون فيه ، فما الدلالة التي يُريدها عليه السلام من هذا الضربِ من العيشِ . جاء في لسان العرب المعاني الآتيةُ تحت الجذر ( جشب )[٢]:

١. الجشيبُ : البشعُ من كلِّ شيء .

---

(١) الكافي ١/ ٤١٢ ،

(٢) ينظر : لسان العرب ( جشب) .

٢. الجشيبُ من الثيابِ : الغليظُ .

٣.الجشبُ : الغليظُ الخشنُ من الطعامِ .

٤.الجشبُ : الطعامُ الذي لا أُدُمَ له .

ونظرةٌ على هذه المعاني ، تُرينا أنَّ ( جُشوبةَ العيشِ ) التي يُشاركُ الإمامُ عليه السلام بها أصحابَهُ ويكونُ أسوةً لهم بها تعني : الأكلَ الكريهَ الذي يأخذُ بالحلقِ ، ولا أُدُمَ له يُعينُ على استساغتهِ ، وغالبـًا ما يكونُ غليظـًا خَشنـًا ، وهنا لنا أنْ نتخيّلَ ما يُعانيه من يأكلُ هذا الضربَ من الطعامِ ، وبمقدورهِ أنْ يتنعّمَ بضروب الأكلِ اللذيذةِ لو أراد .

وتعني الجشوبةُ أيضـًا في المعاني السابقةِ ، الغليظُ من الثيابِ ، بل البشعُ من كلِّ شيء ، وهنا تتعاضدُ هذه المعاني لتُظهرَ أنّ هذا الضربَ من العيشِ لا يرتاضُ عليه إلا الإمامُ عليه السلام ، وبهذا يُعطي لأصحابه مثالاً يُتّبعُ ، واُسوةً يتعزّون بها ويتّبعونها في المعاشِ ، ويريدُ من عمالهِ ومنهم صاحبُ الكتابِ ( عثمان بن حُنيف ) ، أن يتمثّلوا هذا كلّه .

ثمّ يرسمُ الإمامُ عليه السلام في قولهِ السابقِ صورةً مُنفِّرةً لما لا يرضاهُ من العيشِ ، فينفي أنْ يكون مخلوقـًا من أجلِ الانشغالِ بأكلِ الطيباتِ ، فيُصبحُ ـ وحاشاهُ فهو أجلُّ وأعظمُ ـ كالبهيمةِ المربوطةِ لا همّ لها إلّا ما يُقدّمُ لها من طعامِ . والإمامُ عليه السلام يسعى إلى تنفيرِ الناسِ من هذا الضربِ

من العيشِ ، لأنّ ما يقوله في أحاديثِهِ كما أشرنا من قبلُ ، يأتي على نحوِ (إياك أعني واسمعي يا جارة) ، كما هو معهودٌ في أساليبِ الخطابِ القرآني[١] .

ولكي يزيدَ عليه السلام من قسوةِ الصورةِ على من يبحثُ عن العيشِ الرغيدِ من المسلمين من دون أنْ يعبأ بأحوالِ غيره ، جاء في قولهِ السابقِ بصورةِ البهيمةِ المرسلةِ التي لا شُغلَ لها إلّا التقمّمُ ، ولعلّ الوقوفَ على معاني هذا الجذرِ يبسطُ لنا دقّةَ ما يُريدُهُ الإمامُ عليه السلام . جاء في المعجم العربي المعاني الآتيةُ للجذر ( قمم) :

١ . قمّ الشيءَ قمّـًا : كنسه ، والمقمّةُ : الكُناسةُ ، القمامةُ : الكناسةُ .

٢ . القُمّةُ : المزبلةُ .

٣. قمّ ما على المائدةِ قمّـًا : أكله فلم يدعْ منه شيئـًا .

٤ .المِقمّةُ: مِرمّةُ الشاةِ، تلفُّ بها ما أصابتْ على وجهِ الأرضِ وتأكله.

إنّ الملاحظَ في هذه المعاني أنّها تخصُّ طريقةَ الأكلِ من جهةٍ وطبيعةَ المأكولِ من جهةٍ أخرى ، وهذا أمرٌ يختصُ بالحيوانِ غالبـًا ،فالبهيمةُ تستعملُ مِرمّتها ، أيْ شفاهها لتلتقطَ ما تُصيبُ على وجهِ الأرضِ لتأكلَهُ ،

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٢ .

لا تفرّقُ بين مرتعٍ خَصْبٍ أو بقايا كُناسةٍ متروكةٍ مهملةٍ . ويمكن أنْ يكونَ الإنسانُ على هذا النحوِ ، ويُشارك الحيوانَ بطريقةِ الأكلِ هذه ونوعِ الأكلِ، إذا نزعَ إنسانيّته وتخلّى عنها . وهذا تبشيعٌ لا نظيرَ له في بيانِ صورةِ من يريدُ أنْ ينأى بنفسهِ عن بني الإنسان .

ولكي تكتملَ بشاعةُ الصُّورةِ ، يجعلُ الإمامُ عليه السلام كرشَ البهيمةِ وسيلةً إلى ذلك ، فيستعمل الفعلَ ( تكترشُ ) لبيانِ ما يفعله الأكلُ الكثيرُ من القمامةِ في بطنِ البهيمةِ. ولا شكّ أنّ هذا الضربَ من الاستعمالِ الدقيقِ للمفرداتِ يُسهمُ في خلقِ السياقِ الجمالي والمعرفي الذي يضعهُ الإمامُ عليه السلام في كلامهِ في شتى مناحي الحياةِ .

ويضيفُ عليه السلام دلالاتٍ أخر للغايةِ من خلقِه ، ويعني خلقَ الإنسانِ ، تتمظهرُ في نفي صفاتٍ أخرى لم يُخلقُ من أجلها ، فيقول مخاطبـًا عثمان بن حُنيف : (( أو أُترك سُدى ، أو أُهملَ عابثـًا ، أو أجرّ حبلَ الضلالةِ ، أو اعتسفَ طريقَ المتاهةِ ))[1].

فالإنسانُ على وفقِ قولِ أميرِ المؤمنين عليه السلام هذا لم يُتركْ سدى ((والسَّدوُ : ركوبُ الرأسِ في السّيرِ ، يكون في الإبلِ والخيلِ ))[2]، ولا

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٢ .

(٢) ينظر : لسان العرب ( سدا) .

يصحّ أنْ يكون هذا في الإنسانِ المسلمِ ، فيركب رأسه فيكون كالدابةِ التي خُلع عذارُها ، فراحتْ تسيرُ على غيرِ هدى ، والإمامُ عليه السلام هنا يكنّي عن عدم اكتراثِ هذا الضربِ من الناسِ بأيّةِ قيمةٍ يمكن أنْ تكون مقيّدةً له عن الانغمارِ في الاستسلامِ للهوى . وهذا بيانٌ ونُصحٌ وتحذيرٌ وإبلاغٌ للناسِ لكي يضعوا أمام أنظارهم ما يقرّبهم من اللهِ تعالى . ولا يقودُهم جشعُهم إلى الاقترابِ منِ البهائمِ في العيشِ .

أمّا قولُهُ عليه السلام ( أو أجرَّ حبلَ الضلالةِ ) ، فليس من شأنِ المسلمِ أنْ يكون ضالًّا ، ( الضلال : ضدُّ الهدى والرشادِ ، والضّلالُ يعني الضّياعَ أيضـًا)[1] ، وإنّما عليه أنْ يسيرَ في السبيلِ الذي انتهجهُ النبي صلى الله عليه وآله ، وثبّتهُ الإمامُ عليه السلام . بيد أنّ هذا التوصيفَ الذي جاء به الإمامُ عليه السلام لا يقف عند ضلالِ المرءِ نفسهِ ، بل يجعلُ منه قائداً للضالّين ، فهو الذي يجرُّ الضلالةَ بحبلٍ لتتبعه ويتبعها الآخرون الذين غرتّهم . ولا يخفى ما في هذه الصياغةِ من جمال فنّي زاد المعنى لمعانـًا ، وزاد من يتولّى شؤونَ المسلمينَ تنبيهـًا ومن ثمّ بصيرةً بالخطرِ الذي يُحدقُ به إنْ يغلبهُ الطمعُ وحبُّ زخارفِ الدنيا وما يُزيّنها .

---

(١) ينظر : لسان العرب (ضلل) .

## ركائز زهد الإمام عليه السلام :

بعد أنْ وضعَ الإمامُ فيما مرَّ من كتابه مظاهرَ زهدِه وانصرافهِ عن ملذّاتِ الدنيا ، ليبشّعَ صورةَ من يسعى إليها من أجلها من دون أنْ يكون للآخرةِ نصيبٌ عنده ، فيُبيّنُ هنا الثوابتَ التي أمسكَ عليه السلام بها في حياتهِ ، وهنا قد يكونُ من تكرارِ القولِ أنْ نشيرَ إلى أنّ صفاتِ الإمامِ عليه السلام صفاتٌ ربانيّةٌ وهبها اللهُ تعالى له ، ولكنّهُ عليه السلام أخذَ بالأسبابِ ليرسمَ للمسلمين طريقَ الهدايةِ الذي يفتقرون إليه . فبدأ بيانَه لركائزِ زهده بالقولِ : ((وكأنّي بقائلكم يقولُ : إذا كان هذا قوتُ ابنِ أبي طالبٍ ، فقد قعدَ به الضَّعفُ عن قتالِ الأقرانِ ومنازلةِ الشجعانِ ، ألا وإنَّ الشجرةَ البريّةَ أصلبُ عوداً ، والروائعَ الخَضِرةَ أرقُّ جلوداً ، والنباتاتِ البدويّةَ أقوى وُقوداً ، وأبطأ خُموداً))[1].

يبدأُ الإمامُ عليه السلام قوله هذا بـ (كأنّ) التي تكونُ للتنبيه هنا[2] لأنّ هذا الاستفهامَ قد يقعُ من بعض الذين يسمعون هذا الكلامَ ، ويعرفون شجاعةَ الإمامِ عليه السلام وقوّتَهُ ، إذْ سيسألون ويتساءلون عن ركائز هذه القوةِ التي لا تتناسب مع ما يأكلهُ الإمامُ عليه السلام من الطعامِ الجشبِ الذي وصفه عليه السلام لنا في النصّ السابقِ . مع التذكير أنّ الصحابةَ ومن ثمّ المسلمين يعرفون فضائلَ عليّ ، وثمّة شاهدٌ يُغرينا بالوقوفِ عنده ، وهو ما علّق به صاحبُ

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٢ .

(٢) ينظر : معاني النحو ١/ ٣١٣ .

النهايةِ في غريبِ الحديثِ على الحديثِ النبويّ ((النظرُ إلى عليٍّ عبادة)) حيثُ قال: ((...معناه أنّ علِيا رضي الله عنه كان إذا بَرَز قال الناسُ : لا إله إلا الله ما أشرَفَ هذا الفَتى ، لا إله إلا الله ما أعلَمَ هذا الفتى ، لا إله إلا الله ما أكرَمَ هذا الفتى ، لا إله إلا الله ما أتْقَى هذا الفتى ، لا إله إلا الله ما أشْجَعَ هذا الفتى ، فكانت رؤيَتُه تَحْمِلُهم على كلمة التوحيد ))[1] ، ولذا فإنّ الإمامَ عليه السلام في قوله السابق يعني فئةً بعينها ، وإنْ كان الأصلُ في الكلام إغراءَ المسلمين على التدبّرِ في حياتهِ وسيرته لتقويمِ حياتهم . مع التركيزِ على أنّ ما عنده من الصفاتِ المذكورةِ هبةٌ من اللهِ تعالى .

وثمة ملاحظة يجدرُ الوقوفُ عندها ، وهي إنَّ الإمامَ عليه السلام ذكرَ نفسَه منسوبـًا لأبيهِ ( ابن أبي طالب) وليس باسمهِ ، وظنّي هنا أنّه عليه السلام أرادَ أنْ يذكّرَ من يسمعُ كلامَهُ من خصومه بهذه الشخصيّةِ العربيةِ الإسلاميةِ التي نهضتْ بعبءِ الإسلامِ في بدايةِ ظهورهِ ، بعد أنْ صار النسبُ مسنداً من مساندِ الفخرِ في العصرِ الذي سبق تولّي الإمامِ عليه السلام الخلافة الرسميّةِ ، خاصّةً وإنّ من كان يُزاحمُ الإمامَ عليه السلام على تولّي شؤونِ المسلمين يرتكزُ أحيانـًا على نسبهِ إلى قريش ، أعني بذلك معاوية بن أبي سفيان ، الذي جعل من هذه النسبةِ سبيلاً للسيرِ في طريقِه إلى حربِ الإمامِ عليه السلام .

---

(١) النهاية في غريب الحديث ٥/ ٧٧ ، وينظر الحديث في : أمالي الطوسي ٤٥٥ ، ينابيع المودّة ١/ ٢٦٥ .

ويلتفتُ الإمامُ عليه السلام إلى البيئةِ العربيةِ الصحراويّةِ وينتقي منها مثالاً لشجاعتهِ وقدرتهِ على منازلةِ الأقرانِ وتشتيتِ جموعهم ، على الرغم من نوعِ القوتِ الذي يأكلُهُ ، فيذكر أنّ النباتاتِ الصحراويّةَ التي تنبتُ في البرِّ أصلب عوداً من الشجرةِ التي تنبتُ في الأرضِ النديّةِ[١] ، لافتقار الأولى إلى الماءِ ، ورِيِّ الثانيةِ بهِ مما يكسبُها لينا ونعومةً وحسنـًا ونظارةً . ولا شكّ أنّ العربيَّ المسلمَ سيستحضرُ هاتين الصورتينِ أمامه ، ويرى دقةِ الواصفِ عليه السلام وجمالَ الوصفِ .

ومن البيئةِ نفسها يستقي المثالَ الآخرَ لبيانِ ما هو عليه السلام بصددِهِ ، فيذكر أنّ النباتاتِ البدويّةَ أقوى وُقوداً وأبطأ خمُوداً من غيرها . ونحسبُ هنا أنّه عليه السلام نسب النباتاتِ إلى ( البدو) وهم سكان الباديةِ أكثر من نسبتها إلى الباديةِ نفسها ، وإنْ كانتِ النسبتان لجذرٍ واحدٍ ، لأنّ البدو أعرفُ بالنباتاتِ التي يكونُ وُقودها قويّـًا ، وخمُودها بطيئـًا ، وهذا الأمرُ تشهدُ عليه نارُ الغضى التي يضربون المثلَ بحرارتها[٢].

ثمّ يختمُ الإمامُ عليه السلام الحديثَ عن قوّته وشجاعتهِ التي سوّغها بما مرّ من كلامهِ ، بذكرِ صلتهِ بالنبيّ صلى الله عليه وآله ، وذكرُ هذه الصّلةِ في هذا السّياقِ يُشجّعنا على القولِ : إنّ الإمامَ عليه السلام جعل الصفاتِ التي مرَّ ذكرُها تستمدُّ

(١) ينظر ما كتبه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ١٦/ ٢٨٩ .

(٢) ينظر : ثمار القلوب ٥٨١ .

وجودَها من النبيّ ﷺ، ثمّ من الله عزّ وجلّ كما أشرنا قبل قليل. يقولُ عليه السلام: ((وأنا من رسولِ اللهِ كالصِّنوِ من الصِّنوِ والذراعِ من العضُدِ))[1].

لقد عطفَ الإمامُ عليه السلام هذه العبارةَ على العبارةِ التي سبقتها ، لأنّ السياقَ سياقَ بيانٍ لمظاهرِ قوّتهِ ومصادرها ، فبيّن هنا المصدرَ الرئيسَ لها وإنْ تأخّرَ في السّياقِ ، لأنّ ما ذكره ينتهي إلى هذا المنبعِ ، والآن نقفُ على معاني ( الصنو) لنعرفَ ما أرادهُ الإمامُ عليه السلام بقوله هذا . جاء في لسانِ العربِ تحت الجذر ( صنو) المعاني الآتيةُ :

١. الصِنوُ : الأخُ الشقيقُ والابنُ .

٢. الصِنوُ : المثل .

٣. الصِنوان : الركيتانِ المتجاورتان إذا نبعتا من عين واحدةٍ .

٤. الصنوان : الشجرتان النابتتانِ من أصلٍ واحدٍ ، فكلُّ واحدةٍ منهما صنو الأخرى .

يمكن أنْ نقولَ ابتداءً ، إنَّ هذه المعاني تدورُ حول اتّحادِ الصِنو مع صِنوه ، لأنّهما من أصلٍ واحدٍ ، والمعاني الجزئيّةُ تؤدّي هذه الدلالةَ ، فالأخُ الشقيقُ صنو أخيه ، والابنُ صنو أبيه ، والحوضان المتجاوران إذا

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٣ .

كان ماؤُهما من أصلٍ واحدٍ فهما صنوانٌ ، ومثلُ هذا يُقالُ عن الشجرتين إذا نبتتا من أصلٍ واحدٍ . وبمقاربةٍ معرفيّةٍ لهذه المعاني مع صلةِ الإمامِ عليه السلام بالنبيّ صلى الله عليه وآله ،نقولُ : أنهما أخوان شقيقانِ ، لا من حيثُ النسبِ وإنما من حيث الصلةُ الروحيّةُ التي جعلها اللهُ بينهم ، وكثيراً ما كان النبيُّ صلى الله عليه وآله يقولُ للإمامِ عليه السلام ((أنت أخي في الدنيا والآخرةِ ، وأنت أقرب الناسِ منّي موقفًا يوم القيامةِ ، ومنزلي ومنزلك في الجنّةِ متواجهين كمنزلِ الأخوينِ))[1]، وهذا الحديثُ يجعلُ أخوّةَ النبي صلى الله عليه وآله والإمامِ عليه السلام ، نمطًا ربانيًّا في الدنيا والآخرة حقًّا ، فإذا كانتْ أُخوّةُ الدنيا معلومةٌ لنا في وجهها الظاهرِ، فإنّ أخوّةَ الآخرةِ لا نعلم عن كنهها شيئًا إلا ما يردُ منها عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وعن أهلِ البيتِ عليهم السلام ، ومن هنا لم يذكّر الإمامُ المسلمين فيما كتبهُ بكتابه بالأخوّةِ التي يعهدونها بينهما ، بل جاء بمفردةِ (الصِنو) لتقرّبَ الدلالةَ التي يريدها عليه السلام إليهم على وفقِ ما تؤدّيه المفردةُ في الاستعمالِ الاجتماعي .

وثمة أمرٌ آخرُ يمكنُ أن يحضرَ هنا ، وهو إنَّ أُخوّةَ النسبِ لا يُلتفتُ إليها كثيراً كما يُلتفتُ إلى هذا الضربِ من الأُخوّةِ الإلهيةِ بين النبي صلى الله عليه وآله والإمامِ عليه السلام ، لأنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال عن عمّه العباس بن عبد المطّلب :

---

(١) الخصال ٤٢٩ .

(( العباسُ صنو أبي ))[١]، ولم يقل (صنوي) حتى تقفَ الدلالةُ على علاقةِ النسبِ فقط .

أما المعنى الآخرُ، وهو المنبعُ الواحدُ لعينين من الماءِ، والأصلُ الواحدُ لشجرتينِ، فلا يقفُ أيضاً عند الدلالةِ الاجتماعيّةِ المعهودةِ، وإنّما يذهبُ إلى الإشارةِ إلى خصوصيّةِ الصِّلةِ بين النبيّ ﷺ والإمامِ عليه السلام، على النحوِ الذي تبيّن لنا قبل قليل، مع مفارقةٍ دلاليةٍ أخرى، يبيّنها الحديث النبوي الآتي الذي سننقله على طوله . يقول النبيّ ﷺ : ((خُلقتُ أنا وعليّ بنُ أبى طالبٍ من نورٍ واحدٍ ، نسبّحُ اللهَ يمنةَ العرشِ قبل أنْ يُخلقَ آدمُ بألفي عامٍ ، فلما أنْ خلق اللهُ آدمَ جعلَ ذلك النورَ في صُلبه ، ولقد سكن الجنةَ ونحن في صلبه ، ولقد همّ بالخطيئةِ ونحنُ في صلبهِ ولقد ركبَ نوح في السفينةِ ونحن في صلبهِ ، ولقد قُذفَ إبراهيمُ في النارِ ونحنُ في صلبه ، فلم يزل ينقلنا اللهُ عزّ وجلّ من أصلابٍ طاهرةٍ إلى أرحامٍ طاهرةٍ حتى انتهى بنا إلى عبدالمطلب ، فقسمنا نصفين ، فجعلني في صُلبِ عبدالله ، وجعل عليّاً في صُلبِ أبى طالبٍ ، وجعل فيَّ النبوّةَ والبركةَ وجعل في عليٍّ الفصاحةَ والفروسيةَ ، وشقّ لنا اسمين من أسمائه، فذو العرش محمودٌ، وأنا محمدٌ، واللهُ الأعلى وهذا عليٌّ))[٢] . وهذا

(١) الفائق في غريب الحديث ٢/ ٢٦٣ ، بحار الأنوار ٢٢/ ٢٨٥ .

(٢) علل الشرائع ١/ ١٤٣ ، وينظر أيضاً : معاني الاخبار ٥٦ .

الحديثُ الشريفُ يظهرُ لنا بوضوحٍ تام ركائزَ صلةِ الإمامِ عليه السلام بالنبيّ صلى الله عليه وآله، التي انتقى لها أميرُ المؤمنين لفظةَ (الصنو) التي تستوعبُ المعاني التي يُريدها، والتي لا يجرؤ غيرُ عليٍّ عليه السلام على الاقترابِ منها. ومن هنا يُظهرُ لنا هذا الوجهُ من التأويلِ بعضاً من وجوهِ اللغةِ التي يستعملها الإمامُ في كتبه وخطبه وكلماته.

بقي أنْ نشيرَ إلى ضميمةٍ أخرى من الدلالةِ قدّمها لنا الجذرُ (صنو)، وهي دلالةُ (الصنوان) على عينِ الماءِ الواحدةِ، والماءُ هنا وفي كلّ حين هو ركيزةُ الحياةِ التي لا حياة بدونها، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، فالنبيُّ صلى الله عليه وآله، والإمامُ عليه السلام يمثّلان أصلَ الحياةِ للمخلوقاتِ كما هو شأن الماء على وفقِ الدلالةِ اللغويّةِ التي نحنُ بصددها، فقد ورد في حديثِ الكساءِ المشهورِ هذا المعنى: ((وعزّتي وجلالي إنّي ما خلقتُ سماءً مبنيةً، ولا أرضاً مدحيةً، ولا قمراً منيراً، ولا شمساً مضيئة إلّا في محبةِ هؤلاءِ الخمسةِ الذين هم تحت الكساء))[2].

إنّ هذا التمييزَ الواضحَ لدلالاتِ الجذرِ اللغوي الذي اعتمدناه يتوافقُ تماماً مع لغةِ أهلِ البيتِ عليهم السلام، التي يقولُ عنها الإمامُ أبو عبد الله

(١) الأنبياء: ٣٠.

(٢) تفسير القمي ١/ ١٨.

الصادق عليه السلام : (( وإنّ الكلمةَ من كلامنا لتنصرف على سبعين وجهاً ، لنا من جميعها المخرج ))[١] .

ويبقى من قولِ الإمامِ عليه السلام عن صلته برسولِ الله صلى الله عليه وآله ، صلة الذراعِ من العضُدِ ، وهذه صورةٌ أخرى ، الوقوفُ عند دلالاتها يكشفُ لنا وجهاً آخرَ من وجوهِ تلك الصلة ، فالعضدُ أصلُ الذراعِ ، والذراعُ وسيلةُ الإنسانِ إلى العملِ والكسبِ والدفاعِ عن الذاتِ ، وعن الآخرين في المواطن التي يأمرُ بها اللهُ تعالى ، ومجملُ القولِ هنا أنّ ما بالذراعِ من قوّةٍ يستمدها من الأصلِ وهو العضد[٢] ، واستناداً إلى هذا ، نقول : إنَّ ما عند الإمامِ عليه السلام من قوّةٍ مستمدٌّ بسببِ النبيّ صلى الله عليه وآله من الله تعالى ، ومن هنا ندرك مغزى قولِ الإمامِ عليه السلام عن قلعهِ لبابِ خيبر : ((واللهِ ما قلعتُ بابَ خيبر ورميتُ به خلفَ ظهري أربعين ذراعاً بقوةٍ جسديةٍ ولا حركةٍ غذائيةٍ ، لكنّي أُيّدتُ بقوةٍ ملكوتيةٍ ، ونفسٍ بنورِ ربّها مضيئة))[٣].

ولكي يضعَ الإمامُ عليه السلام مصداقاً لقولهِ السابقِ ، يضيف في هذا المقطعِ من كتابه قوله : ((واللهِ لو تظاهرتْ العربُ على قتالي لما ولّيتُ عنها ، ولو أمكنتْ الفرصُ من رقابها لسارعتُ إليها ))[٤].

---

(١) معاني الأخبار ٢ .

(٢) ينظر ما كتبه ابن أبي الحديد عن هذه الصورةِ في شرح نهج البلاغة ١٦/ ٢٩٠ .

(٣) شرح نهج البلاغة ٥/ ٧ .

(٤) نهج البلاغة ٣/ ٧٣ .

يُقسمُ الإمامُ عليه السلام لتوكيدِ كلامهِ ،الغرضَ من القسمِ في العربيةِ توكيدُ الكلامِ وتقويته[١]، بأنّه لا يأبه بالعربِ جميعاً لو تظاهرتْ على قتالهِ ، ولا يمكنُ أنْ يولّي عنها ، وهذه الوثاقةُ تجسّدُ ما عُرفَ عن أميرِ المؤمنين عليه السلام في الحروب التي قاتل فيها المشركين منذ بداية الدعوةِ الإسلاميّةِ إلى جنبِ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم .إذْ لم يُعرْف عنه عليه السلام النكوصُ في أيّةِ معركةٍ عن أحدٍ نازله ، كما يشهدُ بذلك أعداؤه وأصحابُه الذين عاصروهُ كلّهم .

بيد أنّ ثمّةَ أمراً يتوارى خلف قولِ الإمامِ عليه السلام هذا ، وهو أنّ ثقته المطلقةَ بصحّةِ منهجهِ ، وهو منهج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومن ثمّ منهج اللهِ تعالى ، تحملهُ على هذا القولِ ، فمن يقاتلهُ يكونُ حالُهُ كمن يقاتلُ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن هنا فإنّ تظاهرَ الناسِ عليه لا يزيدُهُ إلا ثباتاً ، ولن يولّي عنهم ، بلْ إنْ تهيّأتْ الفُرَصُ لقتالهم لسارعَ إليها ، رغبةً في نصرةِ الحقِّ ودفعِ الباطلِ وإقامةِ الدين الحقِّ.

وقد التفت ابنُ أبي الحديد إلى وجهٍ طريفٍ من وجوهِ هذه القضيةِ التي نقولُ بها ، وسأنقله هنا على طوله لدقّةِ مغزاه . يقول : (( غرضُهُ أنْ يقرّرَ في نفوسِ أصحابهِ وغيرهم من العربِ ، أنّه يُحاربُ على حقٍّ ، وأنّ حربَه لأهلِ الشّامِ كالجهادِ أيامِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنّ من يجاهدُ الكفّارَ

(١) ينظر : كتاب سيبويه ١/ ٤٥٤ ، معاني النحو ٤/ ١٥٨ .

يجبُ عليه أنْ يغلظَ عليهم، ويستأصلَ شأفتَهم، ألا ترى أنّ رسول الله ﷺ لما جاهدَ بنى قُريظة وظفر ، لم يُبقِ ولم يعفُ وحصد في يومٍ واحدٍ رقابَ ألفَ إنسانٍ صبراً في مقامٍ واحدٍ ، لما علم في ذلك من إعزازِ الدينِ وإذلالِ المشركين ، فالعفوُ له مقامٌ والانتقامُ له مقامٌ .))[١].

و يمكنُ أنْ نُضيف هنا أمراً نراهُ حقيقاً بالذكرِ ، وهو أنّ مسارعةَ الإمامِ إلى قتالِ من يتظاهرُ على قتاله ، يقيّدها عودتُه إلى طريقِ الحقِّ ، فإنْ عاد فإنّه سينعمُ بعفوِ الإمامِ عليه السلام ، ويُصبحُ شأنُه شأن غيره من المسلمين الآخرين ، فقد تظافرُ أهلُ الجملِ على قتالهِ ، وبعد هزيمتهم وانتهاء المعركةِ عفا عن الجميعِ ولم يأخذْ من غنائمهم شيئاً . وقد ذكر هذا في كتابهِ إلى أهلِ الكوفةِ حينما أعلمهم بانتصاره عليه السلام على الناكثين[٢].

ويُتمُّ عليه السلام هذا المقطعَ من كتابهِ بقوله ((... وسأجهدُ في أنْ أطهّرَ الأرضَ من هذا الشخصِ المعكوسِ والجسمِ المركوسِ حتى تخرجَ المدَرَةُ من حبِّ الحصيدِ))[٣].

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦/ ٢٩١ .

(٢) ينظر : الإرشاد ١/ ٢٥٩ .

(٣) نهج البلاغة ٣/ ٧٣ .

يُخبرُ الإمامُ عليه السلام واليه عثمانَ بنَ حُنيف ومن خلالهِ المسلمين جميعـًا ، بأنّه سيبذلُ غايةَ ما يملكُ من جهدٍ وطاقةٍ لتطهيرِ الأرضِ من شخصٍ بعينهِ ، وأشار إليه باسمِ الإشارةِ (هذا) ليميّزهُ من غيره بالإشارةِ المحسوسةِ إليه ، وهذا يعني أنّ هذا الشخصَ معلومٌ من الجميعِ ، فاكتفى الإمامُ عليه السلام بذكرِ صفتينِ من صفاته . وهنا لا بدّ من بيانٍ نُجملهُ فيما يأتي :

إنّ الوقوفَ على معاني الصفتينِ يُقرّبنا من مُرادِ الإمامِ عليه السلام في هذا الجزءِ من كلامه . فالصفةُ الأولى نقفُ على معانيها تحت الجذر (عكس) في المعجم العربي . جاء في لسانِ العربِ المعاني الآتيةِ[1]:

١ .عكس الشيء : ردّ آخرَهُ على أوّله .

٢ .عكس الدابةَ : إذا جذبَ رأسَها إليه لترجعَ إلى ورائِها القَهْقَرى .

٣.عكس رأسَ البعيرِ : عطفه عطفـًا .

وهذه المعاني تُظهرُ لنا أنّ الشخصّ الموصوفَ بها عطفَ رأسَهُ إلى الوراءِ ، ورجع إلى ورائهِ القهقرى ، وردّ آخره على أوّلهِ . وبمعنى آخر فهذا الشخصُ كان على حالٍ وانتقلَ منها إلى حالٍ أخرى ، ولكنّه لم يبق في هذه الحالِ التي انتقلَ إليها ، فعاد إلى حالتهِ الأولى متقهقراً وربّما نادمـًا . وما دام الإمامُ عليه السلام هو الواصفُ هنا ، فهذا يعني أنّ هذا الشخصَ

(١) ينظر : لسان العرب (عكس) .

دخل الإسلامَ ، ولكنّه عطف رأسَهُ عنه وعاد إلى حاله قبل الإسلامِ ، فاستحقَ أن يجهدَ الإمامُ عليه السلام نفسه ليطهّرَ الأرضَ منه ، لأنّ بقاءهُ يعني ثلماً في الدين .

أما الصفةُ الثانيةُ التي وُصفَ بها جسمُهُ بالمركوس، فمن معانيها ما يأتي:

١. الركسُ : قلبُ الشيءِ على رأسهِ ، وردُّ أوّلهِ على آخرهِ .

٢. الركسُ : ردُّ الشيءِ مقلوباً .

٣. الارتكاسُ : الارتداد .

٤ .أركسه الله: ردّهُ إلى الكفرِ. قال تعالى: ﴿وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾[١].

فصاحبُ هذا الجسمِ انقلب على رأسهِ ، وارتدّ إلى الكفرِ . وعلى الرغم من اقتراب صفتي (المعكوس) ، (المركوس) من بعضهما في الدلالةِ ، فإنّ الإمامَ وصف الجسمَ هنا بهذه الصّفةِ ، فكأنّ صاحبَها جسمٌ فقط لا روحَ فيه ، فهو ميّتٌ وإن كان في ظاهره حيّاً . يقولُ ابنُ أبي الحديد: ((والمرادُ انعكاسُ عقيدته وأنها ليستْ عقيدةَ هدى ، بل هي معاكسةٌ للحقِّ والصواب ، وسمّاه مركوساً من قولهم : ارتكس في الضلال ، والركسُ : ردُّ الشيء مقلوبا ))[٢].

---

(١) النساء: ٨٨.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٦/ ٢٩١ .

ويبقى من قوله السابق عليه السلام (حتى تخرجَ المدرةُ من حبِّ الحصيدِ)، وهذا المقطعُ تتمّةٌ لأوّل الكلامِ الذي سبقَ ، فالإمام عليه السلام سيطهر الأرضَ من هذا المشار إليه حتى تخرج المدرةُ من حبّ الحصيد ، والمدرةُ : قطع الطينِ الصغيرةُ التي تختلطُ بالحبِّ المحصود ، وإخراجُها وعزلُها عن الحبِّ يحتاجُ إلى أناةٍ وجهدٍ وصبرٍ وخبرةٍ ، وهذا وجهُ الجهادِ الأوّلِ الذي سينهضُ به الإمامُ عليه السلام من أجلِ تحقيقِ تطهيرِ الأرضِ الذي مرّ ذكرُهُ.

إنّ وصف الإمامِ عليه السلام هذا يتضمنُ تشبيها للدينِ بحبِّ الحصيدِ الذي يكونُ عماداً لحياةِ المسلمينِ ، فصار لازمـًا هنا أنْ يُنقّى هذا الحبُّ مما يشينهُ من الشوائبِ ( المدر وغيره ) ، حتى يكون صالحـًا للأكلِ ، فلا تستقيمُ الحياةُ إلا بنقاءِ المطعمِ . وقد وقف ابن أبي الحديدِ عند هذا المقطعِ من قولِ الإمامِ عليه السلام فقال عنه : (( أيْ حتى يتطهّرَ الدينُ وأهلَه منه وذلك لأنَّ الزرّاعَ يجتهدون في إخراجِ المدرِ والحجرِ والشّوكِ والعوسجِ ونحو ذلك من بين الزرعِ كيْ تفسد منابتُهُ . فيفسد الحبُّ الذى يخرجُ منه، فشبّه معاويةَ بالمدرِ ونحوه من مُفسداتِ الحبّ ، وشبة الدينَ بالحبّ الذى هو ثمرةُ الزرعِ ))[1].

(١) شرح نهج البلاغة ١٦/ ٢٨٩ .

وتبقى ضميمةٌ أخرى ينطوي عليها توصيفُ الإمامِ عليه السلام الذي نحنُ بصددهِ ، وهي أنّ الطينَ مما يُحرّمُ أكلهُ عند المسلمين جميعـًا[١]، وبقاؤهُ مع حبِّ الحصيدِ قد يضع الحبَّ في هذه الدائرةِ ، فيكون تطهيرهُ من المدرِ واجبـًا ، وهنا يلتقي تطهيرُ الأرضِ مع تطهيرِ الطعامِ مما يشوبُهُ في مفارقةٍ تشبيهيّةٍ مُوازِنةٍ ، تؤكّدُ وجوبَ اشتراكِ المسلمين جميعـًا بالواجبِ الذي تكفّل الإمامُ الذ بسطهُ في هذا الجزء من قوله .

## حديثُ الإمامِ عليه السلام مع الدنيا :

يخرجُ الإمامُ عليه السلام في كتابهِ إلى الحديثِ مع الدنيا ، بعد أنْ بيّنَ زهدهُ فيها ، ودعوتَه المسلمين إلى النظرِ إليها على النحوِ الذي مرّ ، فيخاطبها بقوله: ((إليكِ عنّي يا دنيا فحبلُك على غاربك ، قد انسللتُ من مخالبكِ، وأفلّتُ من حبائلكِ ، واجتنبتُ الذَّهابَ في مداحضكِ))[٢].

يخاطبُ الإمامُ عليه السلام الدنيا خطابَ العاقلِ ويناديها بوصفها عاقلاً يسمعُ النداءَ ويعقلُهُ ، فيقول (إليك عنّي) ، وهذا الضربُ من التعبيرِ يستعملهُ العربُ للاختصارِ والتوكيدِ ، فكأنّه عليه السلام يقولُ لها : ضُمّي

(١) ينظر : الكافي ٦/ ٢٦٥ ، المعجم الكبير ٦/ ٢٥٢ . كنز العمال ١٥/ ٢٧٤.

(٢) نهج البلاغة ٣/ ٧٢ .

رحلَكِ وثُقْلَكِ إليكِ واذهبي عنّي ، وخذي أوزاركِ ، فأنا لستُ من أهلكِ. ويلاحظُ هنا أنّ (إليكِ عنّي) أكثرُ وقعاً في النفسِ من أيّ تعبيرٍ آخر، فاذهبي عني الذي فسّر به بعضُ الشّراحِ قولَ الإمامِ هذا[1] ، لا يؤدّي مايودّيه قولُ الإمامِ عليه السلام ، لأنّه طلبٌ ممّن رافقته الدنيا زمناً وأراد أنْ يُفارقها ، فقال : اذهبي عني ، أما إليك عنّي ، فهو يصدرُ ممن رأى الدنيا مقبلةً إليه ، فصرفها عنه طارداً لها قبل أنْ تختلطَ به ، وهذا القولُ لا يمكن أنْ يقولَهُ إلا عليٌّ عليه السلام .

أما قولهُ عليه السلام ( فحبلُك على غاربِك ) ، فهو كنايةٌ عن إهماله للدنيا بشكلٍ مطلقٍ ، إذْ شبّهها بالناقةِ التي يوضعُ حبلُها على غاربها ( والغاربُ أعلى مقدّمِ السّنامِ) ، لترعى أنّى شاءتْ ، وكيف شاءتُ ، فصاحبُها قد أهملها ، ولا يلتفتُ إليها . ولعلّ تقريبَ الإمامِ عليه السلام للدنيا من الناقةِ تصويرٌ واقعي ، فهذه الناقةُ التي أهملها هو عليه السلام ستكونُ مهوى أفئدةِ كثيرٍ من الناس الذين يتلطّفون بها ليرتووا منها ، وهي جاهزةٌ للانقيادِ لمن يرغبُ فيها ، فما عليه إلّا أنْ يُمسكَ بزمامها الملقى على غاربها . وهذا التصويرُ الحركي الذي يبسطه الإمامُ عليه السلام في قولهِ ، يظهرُ الحركيّةَ المستمرّةَ التي ترافقُ الدنيا ومن يطلبُها .

---

(١) ينظر شرح الشيخ محمد عبدة في : م . ن هامش الصفحة .

ثمّ يأتي قولُه (قد انسللتُ من مخالبك) ، ليؤكّدَ من خلاله فراقَه للدنيا التي انسلّ من مخالبها بأناةٍ ورويّةٍ وهدوء ، فلا الدنيا تقدرُ على إغرائهِ ، ولا هو عليه السلام يخضعُ لمغرياتها ، ومن هنا كان الفعل ( انسللتُ ) ملائما تماماً لفراقه للدنيا ، وقد سُبقَ هذا الفعل بحرفِ التحقيق (قد) الذي يُفيد تحقيق وقوع ما يأتي بعده كما تقولُ بذلك أساليبُ العربيّةُ المعهودة . ويلاحظُ هنا تبشيعُ الإمامِ عليه السلام لصورةِ من تُمسكُ الدنيا به ، فتفعلُ فعلها فيه ، وما المخالبُ إلا الشهواتُ التي تُمسكُ بالإنسانِ أو يُمسك هو بها .

ثمّ قال عليه السلام (وأفلتُّ من حبائلك) ، وهذا ضربٌ آخر من ضروبِ فراقهِ عليه السلام للدنيا ، فهو عليه السلام أفلتَ من حبائلِ الدنيا ، والإفلاتُ : التخلّصُ من الشيء فجأةً من غيرِ تمكّثٍ[1] ، والحبائلُ : جمع حبالة ، وهي (( ما يُصادُ بها من أيِّ شيءٍ كان ))[2] ، فالإمامُ عليه السلام أفلت من كلِّ ما تضعهُ الدنيا من الشهواتِ لإيقاعِ الآخرين في شباكها ، من دون عناء أو مهادنةٍ يُوجبُها نزوعُ النفسِ إلى الشهواتِ ، والتخلّصُ منها لا يكونُ هيّنا ، ولكنْ مع عليٍّ عليه السلام الأمرُ مختلفٌ ، ومن هنا كان الفعلُ( أفلّتُ ) ينطوي على ما يتناسب مع علاقته عليه السلام بالدنيا .

---

(١) ينظر : لسان العرب ( فلت) .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٣٣٣ .

أما قولهُ عليه السلام (واجتنبتُ الذهابَ في مداحضك) ، فالمداحضُ : المزالقُ أو المزلّات التي لا تثبت الأقدامُ عليها ، وهذا ما تجنّبه أميرُ المؤمنين عليه السلام حقّـا . وبهذا القولِ يُظهرُ الإمامُ عليه السلام عزوفه عن الدنيا إلّا بالقدرِ الذي يحقّقُ للناسِ سعادتهم في الآخرةِ ، ومن هنا يكونُ هذا الفعلُ تسخيرا للدنيا من أجلِ الآخرةِ .

ويتّمُ الإمامُ عليه السلام حديثَه مع الدنيا بقوله: ((أين القرونُ الذين غررتِهم بمداعبكِ ، أين الأممُ الذين فتنتِهم بزخارفك ، ها هم رهائنُ القبورِ ومضامينُ اللحودِ ))[1].

يستفهمُ الإمامُ عليه السلام هنا استفهامـاً تقريريّا من الدنيا عن القرونِ الذين خدعتهم وأطعمتهم بالباطلِ مداعبَها ، وعن الأممِ التي فُتِنتْ بزخارفِها ، ليؤكّدَ من خلالِ هذا الضربِ من الاستفهامِ ، ذهابَ من استفهم عنهم ، فصاروا مرهونين في القبورِ ، تتضمّنهم اللحودُ فيها ، فهم لا يقدرون على الخلاصِ من رهنِ القبورِ ، ولا التملّص من اللحودِ . وهذا التوصيفُ العلويُّ لنهايةِ القرونِ والأممِ ، يضعُ منْ على عينيه غِشاوةٌ أمام ما ينتظرهُ إذا آن رحيلُه من الدنيا ، وهذا ما ينتظرُ من يقيمُ مودّةً مع الدنيا ، فهي تخدعُ وتُغري ثم تتخلّى عمّن ينقادُ لها .

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٣ـ ٧٤ .

وما دامت الدنيا قد فعلتْ فعلَها في العبادِ على النحوِ الذي مرّ ، فيُظهرُ الإمامُ عليه السلام برمه منها فيقول : (( واللهِ لو كنتِ شخصاً مرئيّاً وقالباً حسيّاً لأقمتُ عليكِ حدودَ اللهِ في عبادٍ غررتِهم بالأماني ، وأممٍ ألقيتِهم في المهاوي ، وملوكٍ أسلمتِهم إلى التلَفِ ، وأوردتِهم مواردَ البلاءِ ، إذْ لا وِردَ ولا صدرَ ))[1].

يُقسمُ الإمامُ عليه السلام باللهِ تعالى ، لتوكيدِ كلامهِ لمن يسمعه ، أنْ لو كانتْ الدنيا تتمثّلُ بشخصٍ مرئيٍّ أو بقالبٍ يمكنُ أنْ يُحسَّ به ، لأقامَ عليها حدودَ اللهِ تعالى التي وضعها لإنقاذِ عبادهِ من شرورها ، وذكرَ عليه السلام أنماطاً ثلاثةً لمن غرتهم الدنيا بغرورها ، وتمنّى أنْ يُقيم الحدَّ على الدنيا بسبب فعلها بهذه الأنماطِ الثلاثةِ ، وهؤلاءِ هم :

**النمط الأوّلُ**: العبادُ الذين غرّتهم الدّنيا بالأماني ، فهؤلاءِ سمّاهم عليه السلام بالعبادِ لأنّهم لم يحصلوا من الدنيا على شيءٍ ذي بالٍ ، وإنّما ظلّوا يعتاشون على الأماني من دونِ أنْ يتحقّقَ لهم منها أيُّ شيء . وهؤلاءِ على وفقِ توصيفِ الإمامِ عليه السلام همُ الأهونُ من غيرهم من أصحابِ الدنيا.

**النمط الثاني** : الأممُ الذين ألقتهمُ الدنيا في المهاوي ، والمهاوي : الأماكن التي المنخفضة التي تقعُ بين جبلين ، إذْ لا يُعرفْ مصيرُ من يقعُ

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٤.

فيها ، وفي الأحوالِ كلّها ، كنّى الإمامُ عليه السلام بهذا عن المصيرِ المُريبِ الذي آل اليه حالُ هذه الأممِ . ويبدو أنّ هذا النمط همُ كثيرون على وفقِ المعنى الذي يودّيه الجذر (أمم)[١] .

النمط الثالث : الملوكُ الذين أسلمتهم الدنيا إلى التلفِ ، وعلى الرغمِ من أنَّ الذهنَ يذهبُ إلى الملكِ ذي السلطان أوّلا ، لأنّه المصداقُ الرئيسُ لدلالةِ هذه اللفظةِ ، فإنّها تشملُ كلَّ من يملك أمراً . والسلطانُ الذي يملكهُ الملوكُ أوردهم مواردَ البلاءِ ، فلا عدلَ يُقامُ بين الناسِ ، وسلطانُهم يُغريهم بمواردِ نقمِ اللهِ تعالى ، وهنا جاء الإمامُ عليه السلام بما صار مثلاً فيما بعدُ ، وهو قولُه : (إذْ لا وردَ ولا صَدَرَ) ، ليُضربَ على من لا يُصيبُ خيراً ، فالورد : ورود الماء ، والصَدَرُ : الصدورُ عن الماءِ بعد الشربِ[٢]. فهؤلاءِ الملوكُ لم ينتفعوا في دنياهم إذْ تركوا ما فيها وذهبوا إلى قبورهم ، ولم ينتفعوا في الآخرة مما كان لهم في الدنيا . وهكذا يُقرّعُ الإمامُ عليه السلام الدنيا التي فعلتْ هذا كلّه بهؤلاءِ الموصوفين ، وتقريعُهُ هذا موجّهٌ إلى من ذكرهم في واقعِ الأمرِ ، فاتّخذ الدنيا معادلاً لهؤلاءِ ، لأنّهم

(١) ينظر : لسان العرب ( أمم) .

(٢) ورد هذا القولُ مثلاً في شعرِ الأخطلِ يمدح عبد الملك بن مروان ، ويهجو قيساً وبني كليب في قوله في الديوان :

أمّـا كليـبُ بـنُ يربـوعٍ فلـيس لهـا عنـد التفـاخرِ إيـرادٌ ولا صَـدَرُ

هم الذين استراحوا إلى الدنيا في حياتهم . وانغمروا في متاهاتِ ملذّاتها .

ويتمُّ الإمامُ عليه السلام كلامَهُ مخاطباً المسلمين من خلالِ عاملِهِ عثمان بنِ حُنيفٍ ، بالاستمرارِ في مخاطبةِ الدنيا ، فيقول : ((هيهات من وطِئ دحضَكِ زَلِقَ ، ومن ركبَ لُجَجَكِ غَرِقَ ، ومن ازورَّ عنْ حبائِلكِ وُفّقَ ، والسالِمُ منكِ لا يُبالي إنْ ضاقَ به مُناخُهُ ، والدنيا عنده كيومٍ حان انسلاخُهُ))[1].

يُقرّرُ الإمامُ هنا عليه السلام حقائقَ ثابتةً ينتفعُ بها من يريدُ أنْ يُحسنَ النظرَ إلى الدنيا وزخارفها وملذّاتها الزائلةِ ، فيستمرّ في خطابها ، ويبدأ الخطابَ بـ ( هيهات) وهي اسم فعلٍ يعني بَعُدَ بُعْداً شديداً كلّ ما يمكنُ أنْ يُقرّبه إلى الدنيا ، لأنّ منْ وطِئ مزلّاتها زَلِقَ ، إذْ لا يقوى على الثَّباتِ عليها ، وغَرِقَ من ركِب لجَجَها ، فلُجَجُ البحرِ تُغرِقُ من يركبُها ، وهذا شأنِ الدنيا التي أعطاها الإمامُ عليه السلام هذهِ الصّفَةَ المرعبةَ من صفاتِ البحرِ الهائجِ ، لأنّ السامعَ يُدرِكُ ما يعنيه بحرُ لُجاجُ أولجُيٌّ وقد شاهد أكثرُهم البحرَ الموصوفَ بهذه الصّفةِ ، وسمعوا قولَه تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[2].

---

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٤ .

(٢) النور: ٤٠.

ثمّ ذكر الإمامُ عليه السلام أنّ التوفيقَ حليفٌ لمنْ يزوَرُّ عن مصائدِ الدنيا وحبائلها التي تصطادُ طالبيها بها ، والازورارُ عن الدنيا هو الميلُ والانحرافُ عنها ،فكأنّها تنصبُ مصائدها على طرقِ الناسِ كي تمسكَ بهم .

ثمّ يبسطُ الإمامُ عليه السلام صورةَ السالمِ من حبائلِ الدنيا ومزالقِها ، إذْ لا يُبالي أيّـًا كانتْ حالهُ ، فقد تضيقُ به ولكنّه لا يعبأُ بها ، لأنّه يدركُ أنّ الدنيا يومٌ حان انسلاخُهُ ، واللافتُ أنّ الإمامَ عليه السلام استعمل لفظةَ (مناخ) في سياقِ كلامه ليُعبّر عن كلِّ ما قد يُواجِهُ السالمِ من مزالقِ الدنيا من مشاقٍ ، وقد أوجزها ابنُ أبي الحديدِ في قوله : ((ثم قال : لا يبالى من سلم منك إن ضاق مناخه لا يبالى بالفقر ولا بالمرض ولا بالحبوس والسجون وغير ذلك من أنواع المحن ! لان هذا كله حقير لا اعتداد به في جنب السلامة من فتنه الدنيا )) ، وهذه العوارضُ كلّها مما قد يواجهُ الإنسانَ في مُناخه .

ولكي يُقدّمَ الإمامُ عليه السلام ، صورةً لمن يريدُ أنْ لا يهتمُّ بشؤونِ الدنيا على الوجهِ الذي يتمنّاهُ ، يجعلُ عليه السلام من علاقتهِ بها قدوةً للمقتدينَ به وأُسوةً للمتأسِّين، فيقول: ((اعزبي عنّي ! فواللهِ لا أذلُّ لكِ فتستذلّيني، ولا أسْلَسُ لكِ فتقوديني ، وأيمُ اللهِ يمينـًا أستثني فيها بمشيئةِ اللهِ ، لأروّضنَّ

نفسي رياضةً تهشُّ معها إلى القرصِ إذا قدِرتْ عليه مطعوماً ، وتقنعُ بالملحِ مأدوماً ، ولأَدَعنَّ مُقلتيَّ كعينِ ماءٍ نضُبَ معينُها مُستفرِغةً دموعُها، أتمتليءُ السّائمةُ من رعيها فتبركَ ، وتشبعُ الربيضةُ من عشبها فتربِضَ ، ويأكلُ عليٌّ من زاده فيهجعَ ! قرّتْ إذاً عينُهُ إذا اقتدى بعد السنين المتطاولةِ بالبهيمةِ الهاملةِ والسّائمةِ المرعيةِ))[1].

يطردُ الإمامُ عليه السلام هنا الدنيا بقوله ( اعزُبي عنّي) ،أيْ ابعدي واذهبي عنّي بعيداً ، لأنّه لا شغلَ له بها ، أمّا غيرهُ عليه السلام فقد لا يقوى على ما يستطيعُهُ هو عليه السلام ، ولذا فإنّ الدنيا تبقى على حالها مع غيره ، ولكنّها تبقى مُعزبةً ، لا تأوي إليه ، وقد تأوي إلى غيره ، على وفقِ دلالةِ الجذر (عزب) ، ومن هنا يتبيّنُ لنا دقّةُ استعمالِ الإمامِ عليه السلام للألفاظِ التي تمكّنه من إبلاغِ هذهِ الوصايا والنصائحِ إلى المسلمين ، فابتعادُ الدنيا لا يعني أنّها أنهتْ صلتها مع من ابتعدتْ عنه ، فهي غالباً ما تكونُ قريبةً ، تبحثُ عن فرصةٍ تعودُ فيها إليه ، ولذا كانتْ دقةُ استعمالِ الفعلِ (اعزبي) مُحتضِنةً لهذا المعنى .

ثمّ يُقسمُ الإمامُ عليه السلام قسمَ توكيدٍ ليُلفت ذهنَ المسلمينِ إلى ضخامةِ ما يُريدُ قوله بشأنِ النظرِ إلى الدنيا ، فيقسمُ عليه السلام أنّه لا يكون ذليلاً للدنيا

(١) نهج البلاغة ٣/ ٧٤ .

فتستذلّه ، وهذا يعني أنّ من يذهبُ وراءَ الدنيا سيكونُ تابعـًا ذليلاً مُستذَلًّا، والذلُّ معيبٌ لا يرضاهُ مسلمٌ لنفسهِ ، ومن هنا يؤدّي قولُ الإمامِعليه السلام وظيفتَهُ التربويّةَ في تبشيعِ صورةِ الدنيا لمن يركضُ لاهثـًا وراءها ، والإمامُعليه السلام يأبى أنْ يكونَ سلسـًا حتى تقودهُ الدنيا . وهنا سيُوازنُ من يركضُ خلفَ الدنيا بين حاله وبين ما يدعو إليه الإمامُ عليه السلام في حديثهِ عن نفسهِ، فيرى (أعني من يركضُ خلف الدنيا)عليه السلام البونَ الشاسعَ بين حالهِ وبين ما يُريدهُ الإمامُ عليه السلام في دعوته ، وهنا ربما يعودُ عن الدنيا مُستجيبـًا إلى نهجِ الإمامِ عليه السلام .

ثمّ يُقسمُ الإمامُ عليه السلام يمينـًا آخرَ بعد قسمهِ السابقِ بقوله ( وأيمُ الله) فأيمُ الله من ألفاظ القسمِ[1] ، وتشدّدُ الإمامُ عليه السلام الذي يُظهرهُ تكرار القسم هذا مردّهُ إلى حرصه على وضعِ منهجٍ لولاتهِ مثل عثمان بن حُنيفٍ ولغيره من المسلمين في طريقةِ النظر إلى الدنيا ، ومعاملةِ النفسِ على وفقِ ذلك . ثمّ يستثني من يمينه ما يشاءُ اللهُ تعالى ، وبعدها يبسطُ الحالَ التي سيُروّضُ نفسَه عليها رياضةً تستدعي العَجَبَ من هذه القدرةِ والصبرِ ، الذي لا يُطيقهُ إلّا هو عليه السلام ، ومن هنا يكون ما سيقولهُ عن الرياضةِ مُسوّغـًا لتشدّده في يمينه .

---

(١) ينظر : معاني النحو ٤/ ١٦٥ .

ورياضتُهُ عليه السلام إذلالٌ لنفسهِ وتعليمُها على القبولِ بنمطِ العيشِ الذي يُريده لها ، وهو أنْ تهشَّ إلى الرغيفِ إذا قدرتْ عليه مطعومـًا ، فما الذي يعنيه الفعلُ ( هشّ) ؟ ، جاء في لسان العربِ تحت الجذر (هشش) المعاني الآتيةُ :

١. الهشاشة : الارتياح والخفّة للمعروف .

٢. رجلٌ هشٌّ : إذا هشّ إلى إخوانه .

٣. استهشّني أمرُ كذا : استخفّني فخفتُ له .

٤. هشّ العودُ هشوشـًا : إذا تكسّرَ

إنّ المعنى الجامعَ لهذه المعاني هو الارتياحُ والخفّةُ والاستبشارُ ، وهذه المعاني تظهرُ على نفسِ الإمامِ عليه السلام التي حرمها بالرياضةِ عن ملذّاتِ الدنيا كلّها ، فلم يبق لها إلّا الارتياح لرغيفٍ من الخبزِ إنْ وُجِدَ طعامـًا ، وترضى بالملحِ إدامـًا له ، والإدامُ هو ما يُصلحُ الطعامَ ويُطيّبهُ ، والإدامُ ما يؤكلُ بالخبزِ أيَّ شيءٍ كان[1]، ومن هنا لنا أنْ نتصوّرَ مقدارَ الرياضةِ التي تُجبرُ النفسَ على الارتياح بالرغيفِ طعاما وبالملحِ إدامـًا .

ثمّ يأتي قولُهُ في النصِّ السابقِ عليه السلام ( ولأدَعنَّ مقلتي كعينِ ماءٍ نَضُبَ معينُها ، مُستفرغةً دموعُها) .

---

(١) ينظر : لسان العرب ( أدم) .

لم يكتفِ الإمامُ عليه السلام بترويضِ نفسهِ على الجوعِ بالقسوةِ التي وصفها كما مرّ ، وإنّما أتبعَ ذلك بكثرةِ البكاءِ ، إذْ سيدع عينَهُ تستفرغُ ما فيها من الدموعِ ، فتُصبحُ كعينِ الماءِ التي نَضُبَ ماؤُها . خشية من اللهِ تعالى ورغبةً في ثوابه ، وقبل هذا إدراكاً منه عليه السلام ، لعظمةِ الله تعالى ، وهو يقرأُ في كلّ حينٍ قولَهُ تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾[١] ، وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾[٢]، وفي صدرهِ وصيّةُ النبي صلى الله عليه وآله له : ((أوصيك يا علي في نفسك بخصالٍ فاحفظها ، ... والرابعة البكاء لله ، يبني لك بكلِّ دمعةٍ بيتاً في الجنةّ))[٣]. ومن غير شكٍّ ، فإنّ الإمامَ عليه السلام يبكي إيماناً وهو الإيمانُ كلّه، ولكنّه يُريد أنّ يدلَّ المسلمين على أبوابِ رحمةِ الله تعالى ، والقربِ منه ، والبكاءُ من هذه الوسائلِ الفاعلةِ في هذا الميدان .

ثمّ يستفهمُ عليه السلام استفهاماً إنكاريّاً يربأُ بنفسهِ من خلالهِ من أنْ يكونَ كالغنمِ السائمةِ التي لا يُعارضها أحدٌ وهي ترعى حتى تمتلئ بطونُها فتبرك مستريحةً ، أو كالغنمِ الرابضةِ بعد أنْ تشبعَ من العشبِ ، ثمّ يُنكرُ أنْ يكون حالُهُ كحالِ ما وصفَ من الغنمِ ( ويأكلُ عليٌّ من زادهِ فيهجع) ،

(١) الإسراء: ١٠٩.

(٢) مريم: ٥٨.

(٣) بحار الأنوار ٧٤/ ٦٩ .

والهجوعُ : النومُ المستريحُ . فهذا ما لا يرضاهُ عليه السلام لنفسهِ أو لغيرهِ من الولاةِ والعمالِ وباقي المسلمين .

ويستقبحُ الإمامُ عليه السلام هذه الحالةَ لنفسهِ ، فيقولُ متهكماً وداعياً على نفسهِ، إذا جعل من البهائم الهاملةِ قدوةً له بعد هذه السنين المتطاولةِ التي أمضاها في ((الجهاد والسبق والعبادة))[١] وبعد أنْ كان قرآناً ناطقاً بين المسلمين[٢].

## من مظاهر علاقةُ العبدُ بربّهِ :

ويصلُ الإمامُ عليه السلام إلى الجزءِ الأخيرِ من كتابه إلى عثمانَ بنِ حنيفٍ ، فيرسمُ صورةً لما يتمنّاه لما ينبغي أنْ تكونَ عليهِ علاقةُ العبدِ بربِّه فيقول : ((طوبى لنفسٍ أدّتْ إلى ربِّها فرضَها ، وعركتْ بجنبِها بؤسَها، وهجرتْ في الليلِ غُمْضَها، حتى إذ غلبَ الكرى عليها افترشتْ أرضَها وتوسّدتْ كفَّها، في معشرٍ أسهرَ عيونَهم خوفُ معادِهم، وتجافتْ عن مضاجعِهم جنوبُهم، وهَمْهَمَتْ بذكرِ ربِّهم شفاهُهُم، وتقشّعتْ بطولِ استغفارهم ذنوبُهم، ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣]))[٤] .

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦/ ٢٩٥ .

(٢) جاء في ينابيع المودّة ١/ ٢١٤ ، انّ الإمامَ عليه السلام كان يقول عن نفسه (( أنا القرآن الناطق)) .

(٣) المجادلة: ٢٢.

(٤) نهج البلاغة ٣/ ٧٥ .

يبدأُ الإمامُ عليه السلام كلامَه هنا بالدعاءِ للنفسِ التي أدّتْ إلى الله تعالى ما عليها من فروضٍ ، وجاء الدعاءُ بلفظة (طوبى)[١] وتعني (طيبـًا)[٢] للنفسِ المشارِ إليها . هذه النفسُ التي تفترشُ الأرضَ وتتوسّدُ كفّها إذا أجهدتها العبادةُ ، وغلب عليها الكرى ، وهجرتْ عيونُها غُمضَها ، وتجافتْ عن المضاجعِ جنوبُها . وهذا الوصفُ الذي بسطهُ الإمامُ عليه السلام بهذه العبارات الرشيقةِ التي زاد جاذبيتَها ما حقّقهُ لها السجعُ من جمالٍ ، يُظهرُ لنا الإحساسَ العظيمَ الذي يشعرُ به من يصلُ إلى مرتبةِ العبوديّةِ الحقّةِ ، التي يُجسِّدها قولهُ تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾[٣]، الذي ضمّنهُ الإمامُ عليه السلام في كلامه . هذا فضلاً عن اللقطةِ الأخرى التي تصوّرُ هؤلاءِ المعشرَ الذين تُهَمْهِمُ شفاهُهم بذكرِ اللهِ تعالى ، والهمهمةُ : ترديدُ الصوتُ في الصدرِ[٤]، ولكنَّ الإمامَ جمع بين حركةِ الشفاهِ وبين الهمهمةِ ، ليُظهرَ انشغالَ أولئك المعشرِ بذكرِ الله تعالى في الأحوالِ كلّها ، لا يشغلهم شيءٌ عن ذلك أبداً .

---

(١) تكرر دعاءُ أميرِ المؤمنين عليه السلام بهذه اللفظةِ ، فقد أحصى له صاحبُ كتاب (عيونِ الحكم والمواعظ) / ٣١٣ ، خمسـًا وأربعين حكمةً ، كلّها تبدأُ بلفظةِ ( طوبى) .

(٢) ينظر : شرح شافية ابن الحاجب ٣/ ١٣٥ .

(٣) السجدة: ١٦.

(٤) ينظر : لسان العرب ( همم) .

والصورةُ الأخيرةُ التي أهداها الإمامُ عليه السلام للمسلمين في كتابه لعامله، هي صورةُ المؤمنين الذين قشّعَ ذنوبَهم طولُ استغفارهم . ولعلّ اللافت للنظرِ هنا استعمالُ الإمامِ للفعلِ ( تقشّع) في إشارتهِ إلى أهميّةِ الاستغفار بوصفهِ وجهـًا من وجوهِ العبادةِ والدعاءِ . والجذر ( قشع) يعني فيما يتلاءم مع سياقِ قولِ الإمامِ عليه السلام : انقشع عنه الشيءُ وتقشّعَ : إذا انجلى عنه كالظلامِ عن الصبحِ ، والهمِّ عن القلب ، والسّحابِ عن الجو . ويُلاحظُ هنا الصورُ التي أعطاها الاستعمال الاجتماعي لهذا الجذرِ ، فهي لا تقفُ عند حدِّ انجلاءِ الظلام أو الهمّ أو السّحاب ، وإنّما تُسبغُ على الانجلاءِ جمالاً واستبشاراً ومتعةً ، وهذا ما يتحقّقُ لمن يستغفرُ الله سبحانه وتعالى ، لكثرةِ ما ورد بشأنهِ من عظيم الأجرِ ، لأنّه وجهٌ من وجوهِ العبادةِ الحقّةِ التي تتجسّدُ فيها عبوديةُ المسلمِ لربّه . ومن هنا جاء استشهادهُ عليه السلام بقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] بيانـًا للمرتبةِ التي يصلُ إليها من مرّ وصفهم بقولهِ السابقِ.

ويختم الإمامُ عليه السلام كتابه بهذه الكلمات التي تُلخّصُ ما يريدهُ من المسلمين عامةً ، ومن عماله خاصّةً : ((فاتّقِ اللهَ يا ابنَ حُنيفٍ ، ولتكفك أقراصُكَ ليكون من النارِ خلاصك))[2].

(١) المجادلة: ٢٢.

(٢) نهج البلاغة ٣/ ٧٥ .

إنّ دعوةَ الإمامِ عليه السلام هذهِ تجمعُ التقوى من أطرافها ، فلو اكتفى المسلمُ بالأقراصِ التي يأكلها ، ولم تنظرْ عينهُ إلى غيرها ، ولم تمتدَّ يده إلى سواها ، لكان ذلك خلاصاً له من النارِ يوم الوقوفِ بين يدي الله تعالى .

* * * * * * *

لقد تكشّفَ لنا من خلالِ كتاب الإمام عليه السلام إلى عثمانِ بن حُنيفٍ أنّه عليه السلام ، جعل حادثةَ دعوةِ عاملهِ إلى المأدبةِ مناسبةً لتوجيه المسلمين إلى النهجِ القويمِ الذي يُريدهُ لهم ، من خلالِ وضعِ الأسسِ التي ينبغي على المسلمِ السيرُ على هُداها في حياتهِ ، ليضمن بذلك السلامةَ من عذابِ الله تعالى وأهوالِ يومِ القيامةِ . ومن هنا كانتْ وصايا الإمام عليه السلام منهجاً تربويّاً في النواحي الاجتماعيةِ والاقتصاديةِ والدينيّةِ التي تبني حياة الإنسانِ على أكملِ وجهٍ يريدهُ اللهُ تعالى .

# فهرست

# المصادر والمراجع

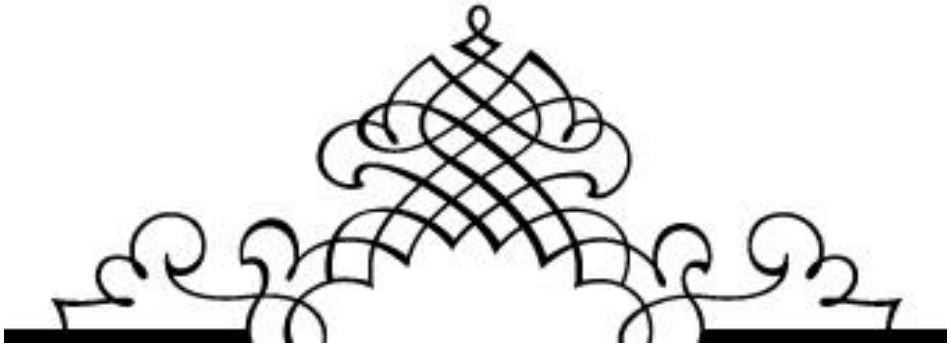

# فهرست المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١- **الإتقان في علوم القرآن** ، جلال الدين السيوطي ( ت ٩١١هـ ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .

٢- **الاختصاص** ، الشيخ المفيد ( ت ٤١٣ هـ) ، تحقيق علي أكبر غفاري، نشر جماعة المدرسين ، قم ، ايران .

٣- **الأزمنة والأمكنة** ، للمرزوقي ( أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن الاصفهاني ت٤٢١ هـ)، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤١٧ هـ.

٤- **أُسد الغابة في معرفة الصحابة** ، لابن الأثير ( ت ٦٣٠هـ) ، انتشارات اسماعيليان ، طهران .

٥- **إعجاز القرآن** ، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب ( ت ٤٠٣هـ) ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر ، ط٥ ، ١٩٩٧م .

٦- **أمـالي الطوسـي** ، الشـيخ الطوسـي ( أبـو جعفـر محمـد بـن الحسـن الطوسي ت ٣٨٥هـ)، تحقيق بهزاد الجعفري وعلي أكبر غفـاري ، دار الكتب الإسلامية ، مؤسسة البعثة ، قم ، ط١ ، ١٤١٧هـ .

٧- **أمالي المفيد** ، الشيخ المفيد ( ت ١٠٢٢هـ ) ، دار التيـار الجديـد ودار المرتضى .

٨- **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع** ، المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني ت ٨٤٥هـ) ، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

٩- **الأمثل ( الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل)** ، ناصر مكارم الشيرازي ، نشر مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، ط١ ، التصحيح الثالث ١٤٢٦هـ .

١٠- **الانتصار** ، الشريف المرتضى ( ت ٤٣٦هـ ) ، تحقيق مؤسسـة النشـر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، قم المقدسة .

١١- **أهل البيت عليهم السلام في نهج البلاغة** / قراءة تأويلية ، أ . د . حـاكم حبيـب الكريطي ، المدرسة المفتوحة ، شيكاغو .

١٢- **أوائـل المقـالات** ، الشـيخ المفيـد ( ت ٤١٣هـ) ، تحقيـق إبـراهيم الأنصاري ، دار المفيد ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م .

١٣- **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك** - ابن هشام (أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري ) ، دار الجيل – بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٩م .

١٤- **بحار الأنوار** ، الشيخ المجلسي ( ت١١١١هـ ) ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

١٥- **بحوث في علوم القرآن** ، محمد باقر الصدر ، مجمع الثقلين العلمي، بغداد ، العراق ، د.ت .

١٦- **البرهان في علوم القرآن** ، أبو عبد الله بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ، ط١، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م .

١٧- **بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد** (عليهم السلام) ، أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار ( ت ٢٩٠هـ ) ، تقديم وتعليق وتصحيح الحاج ميرزا محسن كوجه باغي ، منشورات الأعلمي ، طهران .

١٨- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** ، الفيروزآبادي ( مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ ) ، تحقيق محمد علي النجار ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة .

١٩- **بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة** ، التستري ( محمد تقي كاظم محمد علي جعفر التستري ت ١٤٢٠هـ ) ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١١م .

٢٠- **البيان والتبيين** ، الجاحظ ( ت ٢٥٥ ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٤٢٣هـ .

٢١- **تاج العروس من جواهر القاموس** ، الزبيدي ( محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ، أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي ت ١٢٠٥هـ ) ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، د. ط ، د.ت .

٢٢- **تاريخ الطبري** ( تاريخ الرسل والملوك ) ، الطبري ( محمد بن جرير بن يزيد الآملي ت ٣١٠ هـ ، دار التراث ، ط٢ ، بيروت ، لبنان ١٣٨٧هـ .

٢٣- **تاريخ مدينة دمشق** ، لابن عساكر ( ت ٥٧١هـ ) ، تحقيق علي شيري، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٣هـ .

٢٤- **تاريخ اليعقوبي** ، اليعقوبي ( أحمد بن أبي يعقوب ت ٢٨٤هـ ) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٢٥- **التبيان في تفسير القرآن** ، الشيخ الطوسي ( ت ٤٦٠هـ) ، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي ، مكتب الاعلام الاسلامي ، ط١ ، ١٤٠٩هـ .

٢٦- **تصحيح اعتقادات الامامية** ، للشيخ المفيد ( ت٤١٣هـ ) ، تحقيق حسين دركاهي ، دار المفيد ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .

٢٧- **تفسير البيضاوي** (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، البيضاوي ، (ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي ت٦٨٥هـ) ، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٨هـ.

٢٨- **تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)** (ابو اسحق الثعلبي ت ٤٢٧هـ ) ، تحقيق محمد بن عاشور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٢٢هـ .

٢٩- **تفسير الصافي** ، الفيض الكاشاني ( ت ١٠٩١ ) ، ط٢ ، ١٤١٦هـ ، مؤسسة الهدى ، قم ، إيران .

٣٠- **تفسير الطبري** ( الجامع في تأويل القرآن ) ، الطبري ( محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ ) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م .

٣١- **تفسير العياشي** ، العياشي (النضر بن محمد بن مسعود بن عياش السمرقندي ت ٣٢٠هـ) ، تحقيق الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، المكتبة العلمية الإسلامية ، طهران ، د.ت.

٣٢- **تفسير القرطبي** ( الجامع لأحكام القرآن ) ، شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١ هـ ) ، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م .

٣٣- **الحيوان** ، عمرو بن بحر الجاحظ ( ت ٢٥٥هـ ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٦م .

٣٤- **الخصال** ، الشيخ الصدوق (أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ت٣٨١هـ)، صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، د.ط، د.ت.

٣٥- **الخصائص** ، أبو الفتح عثمان بن جني ( ت ٣٩٢هـ ) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٤ .

٣٦- **دراسات في نهج البلاغة** ، الشيخ محمد مهدي شمس الدين ، الدار الاسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ط٣ ، ١٩٨١م .

٣٧- **دعائم الإسلام** ، النعمان المغربي ( القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي ت ٣٦٣هـ ) ، تحقيق: اصف بن علي اصغر فيضي ، منشورات : دار المعارف . مصر .

٣٨- **ديوان الحادرة**، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، دار صادر، ط٢، بيروت ، لبنان ١٣٩٣هـ .

٣٩- **رسائل المرتضى رسائل المرتضى** ، السيد الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ ) ، تحقيق السيد مهدي رجائي ، دار القرآن ، ١٤٠٥هـ.

٤٠- **روضة الواعظين** ، الفتّال النيسابوري ( ت ٥٠٨ هـ ) ، تحقيق سيد محمد مهدي الخرسان ، منشورات الرضي ، قم ، إيران .

٤١- **زاد المسير في علم التفسير** ، لابن الجوزي ( جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن علي بن محمد الجوزي ت ٥٩٧ هـ ) ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ .

٤٢- **سنن الترمذي** ، الترمذي ( محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك ) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

٤٣- **السنن الكبرى** ، البيهقي ( أحمد بن الحسين ت ٤٥٨ هـ ) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

٤٤- **سير أعلام النبلاء** ، للذهبي ( ت ٧٤٨ هـ ) تحقيق شعيب الأرنؤوط و حسين الأسد ، ط٩ ، ١٤١٣هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٤٥- **شرح احقاق الحق وإزهاق الباطل** ، السيد نور الله الحسيني التستري ( ت ١٠١٩ هـ) ، تعليقات السيد شهاب الدين الحسيني المرعشي النجفي .

٤٦- **شرح أصول الكافي** ، شرح المولى محمد صالح المازندراني ، تعليق الميرزا أبو الحسن الشعراني ، تصحيح علي أكبر الغفاري ، ط١ ، المكتبة الاسلاميةُم ، ايران .

٤٧- **شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار** ، للقاضي المغربي (ت ت٣٦٣هـ) ، تحقيق السيد محمد الحسيني الجلالي ، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم ، ايران .

٤٨- **شرح الأزهار** ، أحمد المرتضى ( ت ٨٤٠ هـ ) ، نشر غمضان ، صنعاء ، ١٤٠٠هـ.

٤٩- **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك** ، الأشموني ( علي بن محمد بن عيسى ت ٩٠٠هـ ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

٥٠- **شرح التصريح على التوضيح** ، زين الدين المصري ( خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهري ت ٩٠٥هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م .

٥١- **شرح الرضي على الكافية** ، رضي الدين الاسترآبادي ، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر ، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م ، جامعة قاريونس .

٥٢- **شرح نهج البلاغة** ، لابن أبي الحديد ( ت ٦٥٦هـ ) ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ، دار احياء الكتب العربية .

٥٣- **صورة الأسواق في الشعر الجاهلي** ، الاستاذ الدكتور حاكم حبيب عزر الكريطي ( بحث )، مجلة الاستاذ ، مجلة كلية التربية / ابن رشد، جامعة بغداد ، العدد٢٣ .

٥٤- **الطبقات الكبرى** ، أبو عبد الله محمد بن سعيد بن منيع الهاشمي (ت ٢٣٠هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م .

٥٥- **عيون الأثر**، ابن سيد الناس ت ٧٣٤ هـ ، تحقيق إبراهيم محمد رمضان ، دار القلم ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م

٥٦- **الغارات** ، لأبي اسحق ابراهيم بن محمد الثقفي الكوفي (ت ٢٨٣هـ) ، تحقيق السيد جلال الدين المحدث ، مطبعة بهمن .

٥٧- **الفصول المختارة** ، الشيخ المفيد ( ت٤١٣هـ ) ، تحقيق السيد مير علي شريفي ، دار المفيد ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م .

٥٨- **فضـائل الخمسـة مـن الصـحاح السـتة** ، السـيد مرتضـى الحسـيني الفيروزآبادي ، منشورات الفيروزآبادي .

٥٩- **في ظلال القرآن** ، سيد قطب (ابراهيم حسين الشاذلي ت ١٣٨٥هـ)، بيروت، القاهرة ، ط١٧ ، ١٤١٢هـ .

٦٠- **في ضلال نهج البلاغة** / محاولة لفهم جديد ، الشيخ محمد جواد مُغنية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

٦١- **القضاء في الفقه الإسلامي** ، السيد كاظم الحائري ، مجمع الفكر الإسلامي ، ط١ ، ١٤١٥هـ .

٦٢- **الكـافي** ، ثقـة الإسـلامي الكلينـي ( ت ٣٢٨ / ٣٢٩هـ ) ، صـححه وعلّق عليه على أكبر الغفاري ، دار الكتب الإسلامية ، ط٣ ، طهران .

٦٣- **كتاب سليم بن قيس الهلالي** ، تحقيق : محمد باقر الأنصاري ، منشورات : الهادي ، ط١ ، قم المقدّسة .

٦٤- **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال** ، عـلاء الـدين بـن حسـام الـدين (ت ٩٧٥هـ) ، تحقيق بكري حياني وصـفوة السـقا ، مؤسسـة الرسـالة ، ط٥ ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٦٥- **لسان العرب** ، **لابن منظور** (محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمـال الدين ابن منظور ت ٧١١هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٤هـ .

٦٦- **مباحث في علوم القرآن** ، الشيخ صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، ط ٧ ، بيروت.

٦٧- **المبسوط** ، السرخسي ( شمس الدين أبو بكر بن محمد بن أبي سهل ) ، دراسة وتحقيق: خليل محيي الدين الميس ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٦٨- **مجمع الأمثال** ، الميداني ( ت ٥١٨هـ ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان .

٦٩- **مجمع البحرين** ، فخر الدين الطريحي ( ت ١٠٨٥هـ ) ، تحقيق السيد أحمد الحسيني ، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، ط٢، ١٤٠٨هـ.

٧٠- **مجمع البيان في تفسير القرآن** ، الشيخ الطبرسي (ت ٥٦٠ هـ) ، تحقيق لجنة من العلماء والمحققين الاخصائيين ، ط١ ، ١٤١٥هـ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت .

٧١-**المحبّر** ، ابن حبيب ( محمد بن حبيب بن أمية الهاشمش بالولاء البغدادي ت ٢٤٥ هـ ) ، تحقيق إيلزة ليختن شتيتر ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

٧٢- **المسائل السروية** ، الشيخ المفيد ( ت ٤١٣هـ ) ، مطبعة مهر ، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد .

٧٣- **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل** ، المحقق النوري (الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي ت١٣٢٠هـ) ، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، مطبعة سعيد ، قم ، إيران .

٧٤- **المسترشد في امامة أمير المؤمنين** عليه السلام ، للطبري ( محمد بن جرير بن رستم الطبري ، تحقيق الشيخ أحمد المحمودي ، مطبعة سلمان الفارسي ، قم ، ط١ ، نشر مؤسسة الثقافة الإسلامية لكوشانبور .

٧٥- **مسند أحمد** ، للإمام أحمد بن حنبل ( ت ٢٤١هـ ) ، دار صادر ، بيروت .

٧٦- **معاني النحو**، تأليف الدكتور فاضل السامرائي، مطبعة التعاليم العالي في الموصل، ساعدت جامعة بغداد في نشره، ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧م.

٧٧- **المعجم الكبير** ، الطبراني ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، دار احياء التراث العربي ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ط٢ .

٧٨- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن** ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان.

٧٩- **المعنى القرآني بين التفسير والتأويل** / دراسة تحليلية معرفية في النص القرآني ، عباس أمير معارز ، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٨م .

٨٠- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** ، لابن هشام الأنصاري ، تحقيق الدكتور مازن المبارك والسيد محمد علي حمد الله ، راجعه السيد سعيد الافغاني ، دار الفكر ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٨٦ م .

٨١- **مفردات ألفاظ القرآن**، الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) ، دار القلم، دمشق .

٨٢- **المفصّل في صنعة الإعراب** ، للزمخشري ( ت ٥٣٨ هـ ) ، تحقيق علي أبو ملحم ، مكتبة الهلال ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م .

٨٣- **من لا يحضره الفقيه**، الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ) ، صححه وعلّيق عليه علي أكبر الغفاري ، منشورات جماعة المدرسين ، قم ، إيران .

٨٤- **مناقب آل أبي طالب** ، تأليف ابن شهر آشوب ( ت ٥٨٨هـ) ، تحقيق: لجنة من اساتذة النجف الاشرف ، ١٣٧٦هـ ، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف .

٨٥- **ميزان الحكمة** ، محمد الريشهري ، تحقيق وطباعة ونشر : دار الحديث ، الطبعة الأولى ، د.ت .

٨٦- **الميزان في تفسير القرآن** ، للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ) ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، قم ، ايران .

٨٧- **النهاية في غريب الحديث والأثر** ، ابن الأثير ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي ، مؤسسة اسماعيليان ، قم ، ط٤ .

٨٨- **نهـج البلاغـة** ، الإمـام علـي بـن أبـي طالـب عليه السلام ، جمعـه الشـريف الرضي ، تحقيق الشيخ محمد عبده ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

٨٩- **همـع الهوامـع في شـرح جمـع الجوامـع** ، لجـلال الـدين السـيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، المكتبة التوفيقية ، مصر .

٩٠- **وسـائل الشـيعة إلـى تحصـيل مسـائل الشـريعة** ، الشـيخ محمـد بـن الحسن الحر العاملي ( ت ١١٠٤هـ) ، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، ط٢ ، ١٤١٤ه، مطبعة مهر ، قم .

٩١- **ينـابيع المـودّة لـذوي القربـى** ، الشـيخ سـليمان القنـدوزي (ت ١٢٩٤هـ) ، تحقيق سيد علي جمال أشرف ، دار الأسوة للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٤١٦هـ .

# فهرس المحتويات

# فهرس المحتويات


| الموضوع | ص |
|---|---|
| مقدمة مركز أمير المؤمنين(ع) ... | ٧ |
| مقدمة المؤلّف | ٩ |
| الفصل الأول | ١٧ |
| وصف القرآن وبيان علومه | |
| أسماء القرآن | ٢٠ |
| ٢- الكتاب | ٢٤ |
| صفات القرآن الكريم | ٢٧ |
| المسلم والقرآن | ٣٠ |
| وصف القرآن للقرآن | ٣٧ |
| ١- القرآن تبيان لكل شيء | ٣٩ |
| ٢- ظاهر القرآن أنيق | ٤١ |
| باطن القرآن عميق | ٤٥ |
| القرآن أحسن الحديث | ٤٧ |
| القرآن ربيع القلوب | ٤٩ |
| القرآن نور | ٥٢ |
| القرآن فرقان | ٥٥ |

| الموضوع | ص |
|---|---|
| علوم القرآن الكريم ..... | ٥٨ |
| ١- علم الحلال والحرام ..... | ٦٠ |
| ٢- علم الفرائض والفضائل ..... | ٦١ |
| ٣- علم الناسخ والمنسوخ ..... | ٦٣ |
| ٤- علم المحكم والمتشابه ..... | ٦٤ |
| **خاتمة الفصل** ..... | ٦٦ |
| الفَصْلُ الثَّانِي | ٦٧ |
| **صفات القضاة وأسس اختيارهم في نهج البلاغة** | |
| أسس اختيار القضاة ..... | ٧١ |
| القدرة على تصريف الأمور ..... | ٧٢ |
| لا تُمحكه الخصوم ..... | ٧٣ |
| لا يتمادى في الزلّة ..... | ٧٦ |
| لا يُحجم من الرجوع إلى الحق ..... | ٧٨ |
| لا تُشرف نفسه على طمع ..... | ٨٠ |
| التأنّي في الحكم ..... | ٨٢ |
| عدم التبرّم بمراجعة الخصم ..... | ٨٥ |
| الصبر على كشف الأمور ..... | ٨٦ |
| الصرامة عند اتّضاح الحكم ..... | ٨٧ |
| عدم التأثّر بالإطراء والإغراء ..... | ٨٩ |
| وصايا الإمام عليه السلام للقضاة ..... | ٩٢ |
| ترك الطمع ..... | ٩٣ |

| الموضوع | ص |
|---|---|
| مخالفة الهوى | ٩٦ |
| تزيين العلم بالسّمت الصالح | ٩٧ |
| عدم المشاورة في الحكم | ٩٩ |
| الاهتمام بأحوال القضاة والنظر في عملهم | ١٠١ |
| اختلاف القضاة في الأحكام | ١٠٨ |
| **خاتمة الفصل** | ١١٧ |
| **الفصل الثالث** | ١١٩ |
| **أسس اختيار الولاة والعمّال وصفاتهم** | |
| الاختبار وترك المحاباة والأثرة | ١٢١ |
| التجربة والحياء | ١٢٤ |
| مراقبة أعمال الولاة | ١٣٢ |
| التحفّظ من الأعوان | ١٣٦ |
| **الفصل الرابع** | ١٣٩ |
| **أقوال الإمام علي عليه السلام في غسل النبي صلى الله عليه وآله ودفنه** | |
| وفاة النبي صلى الله عليه وآله | ١٤٢ |
| غُسل النبي صلى الله عليه وآله | ١٤٧ |
| دفن رسول الله صلى الله عليه وآله | ١٦٠ |
| تأبين النبي صلى الله عليه وآله | ١٦٢ |

| الموضوع | ص |
|---|---|
| الفصل الخامس | ١٧٥ |
| **الوفاء بالعهد أسٌّ من أسس بناء الدولة والمجتمع** | |
| الوفاء بالعهد في العصر الجاهلي ..... | ١٨١ |
| الوفاء بالعهد في الإسلام ..... | ١٨٣ |
| الوفاء بالعهد أمان للعباد ..... | ١٩١ |
| شروط صحة العهد ..... | ١٩٣ |
| **خاتمة الفصل** ..... | ١٩٩ |
| الفصل السادس | ٢٠١ |
| **كتاب الإمام علي عليه السلام إلى عثمان بن حُنيف واليّه على البصرة** | |
| الإمام عليه السلام قدوة أصحابه ..... | ٢٠٨ |
| من مظاهر زُهد الإمام عليه السلام بالدنيا ..... | ٢١٧ |
| ركائز زُهد الإمام عليه السلام ..... | ٢٣٦ |
| حديث الإمام عليه السلام مع الدنيا ..... | ٢٤٩ |
| من مظاهر علاقة العبد بربه ..... | ٢٦١ |
| **فهرست المصادر والمراجع** ..... | ٢٦٥ |
| **فهرس المحتويات** ..... | ٢٨١ |